

مجلــة فكريــة ابـداعيــة

مجلة شهرية تصدر مؤقتا اربع مرات في السنة
السنة الرابعة ـ العدد الثالث عشر ـ 1979

العنوان :
ص. ب. 505
المحمدية ـ المغرب

الموضوعات

• دراسات

• رواية

• من تراثنا الحديث

نظرا لارتفاع أسعار الورق والطباعية نجد انفسنا مضطرين الى رفع قيمة الاشتراك في المجلة ابتداء من هذا العدد ، وذلك على النحو التالي :

المغرب : الاشتراك العادي 20 درهما
اشتراك المؤسسات 30 درهما

الاقطار العربية وأوروبا :
الاشتراك العادي 50 درهما
اشتراك المؤسسات 150 درهما

اشتراك المساندة : ابتداء من 50 درهما

تبعث الاشتراكات باسم
محمد بنيس
الحساب البريدي 1.383.41 الربط

1 ـ المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن راي كاتبيها .
2 ـ المقالات التي لم تنشر لا ترد الى أصحابها .

التطور السياسي للحركة النقابية بالمغرب

عبد اللطيف المنوني

صدر في شهر مارس 1979 كتاب « الحركة النقابية في المغرب » (بالفرنسية) عن دار النشر المغربية .. اصل هذا الكتاب اطروحة الاستاذ عبد اللطيف المنوني . دافع عنها المؤلف بجامعة غرونبل (فرنسا) في 17 مارس 1976 ، ونال بها دكتوراة الدولة في القانون العام والعلوم السياسية بدرجة مشرف جدا .

كانت لجنة المناقشة مكونة من الاساتذة ، ميشيل روسي ، رئيس اللجنة ، وجورج لافو ، مشرف ومقرر ، وجورج لوكا ، مقرر ، وجي كير ، ثم كلود بالازولي .

يمكن اعتبار صدور هذا الكتاب ، وفي هذه الظروف التاريخية التي نعيشها بالضبط ، حدثا بارزا ذا دلالة خاصة . كتاب اكاديمي يخرج على التقاليد السائدة في البحث الاكاديمي بالمغرب ، والعالم العربي بصفة عامة . من هنا تاتي اهميته ودلالته . خروج يرسم لمجال البحث العلمي طريقا للارتباط الحي والملموس بالحياة التي يعيشها الانسان ، في صراعه من اجل مستقبل مغاير . انه ، اذن ، عمل يرفض الحياد ، كما يعارض اساليب التناول التي تسود بحثنا الاكاديمي ببرودتها ، واختبائها تحت ستائر الوهم لتبرر عملها الذي يخشى مواجهة الواقع ، ومحاكمته . موضوع ساخن ، وارتباط حميم . هكذا تتجلى أبعاد هذه الاطروحة ـ الكتاب التي لا شك ان المثقفين بالمغرب ، وبقية الاقطار العربية ، سيتعرفون فيه على باحث يعطي للعمل الاكاديمي وجهته الصحيحة : الانخراط في التحول التاريخي .

نقدم في هذا العدد عرضا للاستاذ عبد اللطيف المنوني عن مجال من اهم مجالات الكتاب ، وهو يجمع بين الجانبين النظري والتحليلي ، بعيدا عن الاسلوب المالوف في عرض مثل هذه الكتب . والمجلة ، اذ تعتز بنشر هذا العرض ، ترجو ان يتم نقل الكتاب الى اللغة العربية في اقرب فرصة ممكنة حتى يستفيد منه القطاع الواسع من القراء .

من أهم المصادر المعتمد عليها في الدراسة :

AYACHE (A) : La création de l'Union Confédérée au Maroc (1920-1930) - « Le mouvement social » 1967 Le Maroc - Editions sociales, 1956.

BENBRAHIM (F) : La question syndicale au Maroc - Mémoire 1961, Paris.

BENDAHOU (C) : L'Union Nationale des Forces Populaires de la Constitution du complot de juillet 1963 - Mémoire 1964 - Paris.

BELAL (A) : Quelques problèmes du mouvement syndical marocain Al Moukafih - 1er mai 1963.

BENBARKA (M) : Option révolutionnaire au Maroc - Maspéro, 1965.

BENSEDDIK (M) : Le syndicalisme marocain en marche (mémoire) 1952.

BERENGUIER (H) : Le syndicalisme marocain - Cahiers de l'Afrique et de l'Asie. Premier trimestre 1961.

BERNARD (S) : Le conflit franco-marocain - 3 volumes - Editions de l'Institut de Sociologie de l'Université libre de Bruxelles, 1963.

DEHAAZ (G) : Les patrons et le syndicat - Revue Confluent; nº 9, septembre-octobre 1960.

GALISSOT (R) : Le patronat européen au Maroc (1931-1942) Rabat 1964.

LACOUTURE (J et S) : Le Maroc à l'épreuve (Seuil 1958)

MONTAGNE (R) : Naissance du prolétariat marocain, enquête collective, 1952.

WATERBURY (J) : Le Commandeur de Croyants - P.U.F., 1975.

BRUCE (M) : The political role of labor in developping countries - The Booking Inst - may 1963.

CAIRE (G) : Syndicalisme ouvrier et sous-développement - Revue Economique - mars 1962.

MEYNAUD (J) et SALAHBEY (A) : Le syndicalisme africain - Editions Payot, 1963.

WEISS (F) : Doctrine et action syndicales en Algérie - Editions Cujas 1970.

LENINE : Textes sur les syndicats - Editions du Progrès, Moscou.

MARX (K) ENGELS (F) : Le syndicalisme, extraits traduits et annotés par **Dangeville (R)**, Editions Maspéro.

ان اهمية موضوعنا هذا ، أي دراسة التطور السياسي للحركة النقابية في المغرب ، تكمن في ابراز الدور الفعال للعمل السياسي داخل الحركة النقابية . وهذا الموضوع يكتسي ، بدون شك ، في الوقت الراهن طابعا حادا ، باعتبار أن غياب التنظيمات النقابية عن ساحة النضال السياسي منذ سنوات أدى الى اضعاف الحركة العمالية وتشتيت صفوفها وضياع كثير من مكتسباتها ، هذا الغياب الذي يفسر ظهور الحركة التصحيحية كانتفاضة واعية ، تاريخية لجماهير العمال تحت قيادةالعناصر الطليعية والتقدمية بانتماءاتها المختلفة وفي اطار النقابات الوطنية .

ان الحركة النقابية المغربية ، بحكم المواقع التي تحتلها الطبقة العاملة المغربية في النضال الاجتماعي والوطني ، مطالبة دائما بربط علاقات نضالية متينة بينها وبين الفصائل الاخرى لحركة التحرر الوطني . وغير خاف أن هذه العلاقات النضالية ذات طبيعة موضوعية ، وتلعب دورا اساسيا في تطوير كل من الحركة النقابية ومن حركة التحرر الوطني باعتبارهما حركتين تربطهما علاقة عضوية وتفاعل مستمر .

لذلك فاننا سنحاول في هذا العرض أن نبرز القوانين الموضوعية التي تتحكم في صيرورة هذه الجدلية وهذا التفاعل .

1 ـ قضايا نظرية أولية

ان الدراسة العلمية لاهمية العمل السياسي بالنسبة للحركة النقابية يجب أن تنطلق من طبيعة الممارسة اليومية للنقابات اي من طبيعة العمل النقابي ذاته في أشكاله المختلفة .

نلاحظ أولا ، في الممارسة النقابية ، ان هناك علاقة جدلية بين الطابع الاقتصادي والطابع السياسي ، ذلك أن كل عمل تقوم به النقابة في اطار خصوصيتها ، اي الدفاع عن العمال ، يكتسي طابعا نقابيا محضا لكونه يشكل عملا مطلبيا اقتصديا من شانه اما الحفاظ على مكتسبات او تحسين الوضعية العامة للمنخرطين ، كما يكتسي هذا العمل في نفس الوقت طابعه السياسي ، باعتباره موجها ضد سيطرة الراسمال ، وبالتالي يشكل ـ بطريقة غير مباشرة ـ احتجاجا ضد النظام الراسمالي كنظام عام للعلاقات الاجتماعية:
ان اهمية كل من الطابع السياسي والطابع الاقتصادي المطلبي تختلف حسب اهمية وشكل النضال النقابي ، فاذا كان هذا الاخير مقتصرا على معمل واحد ، أو مؤسسة ، فمن المؤكد انه يتضمن طابعا سياسيا غير أنه طابع سياسي محدود في شكل جنيني . وفي هذا المستوى فان الاضراب او النضال النقابي يتخذ بالاساس طابعا اقتصاديا ، وذلك باعتباره يشكل حافزا لنمو الرأسمال حيث يرغم الراسمالي على تنظيم الانتاج بشكل

اكثر عقلانية ، وعلى تجديد وتحديث الآلات وبصفة عامة على الرفع من الراسمال العضوي بالنسبة للراسمال المحرك . وخلاصة القول يشكل هذا المستوى من النضال النقابي وسيلة ديناميكية في تطوير النظام الراسمالي ذاته لكي يصبح احتكاريا أو نصف احتكاري ، وفي هذه الحدود الضيقة يظل الاضراب جزءا من السير العادي للراسمالية ويتخذ صبغة العفوية . ولا بد من التذكير في هذا الصدد بان الاضرابات المحدودة قد برزت تاريخيا قبل اي تنظيم نقابي ، بل ان نموها واتساعها هو الذي ادى الى تكوين الحركة النقابية كما يشهد على ذلك تطوير التشريع الاجتماعي بفرنسا . فحق الاضراب في هذا البلد ، مثلا ، وقع الاعتراف به سنة 1864 اما حق تكوين النقابات فلم يسن الا في سنة 1884 ؛

وحينما يتوسع العمل النقابي ليشمل قطاعا مهنيا باكمله او رقعة جغرافية مهمة (اقليم - بلد الخ) فان الطابع السياسي هو الذي يتغلب على الطابع الاقتصادي ، ويتجلى ذلك في التدخل المتزايد والبارز للدولة اما في شكل القمع واما في شكل الوساطة ضمن اطار الدفاع عن النظام القائم او بهما معا - كما يتجلى هذا الطابع السياسي في نوعية المطالب التي تفرض عموميتها اصدار قوانين وتشريعات ، هذا بصفة عامة .

اما بالنسبة للمغرب فان الطابع السياسي للعمل النقابي كان بارزا منذ نشأة الحركة العمالية لكون النضال النقابي بمختلف مستوياته كان موجها ضد الراسمالي الذي هو في نفس الوقت مستغل ومستعمر . كما ان المطالب النقابية المحضة مثل الزيادة في الاجور اكتست طابعا سياسيا من جراء التمييز الحاصل في المرحلة الاستعمارية بين العمال المغاربة والعمال الاجانب ، بالاضافة الى أن الحق النقابي ذاته كان مطلبا سياسيا بالاساس (حق الحريات العامة) وبعبارة اخرى فان النضال النقابي في شروط ما يسمى بالعالم الثالث يكتسي طابعا سياسيا باعتباره موجها ضد الهيمنة الامبريالية من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي . وبصفة عامة فان الطابع السياسي يكون اكثر بروزا عند ما تخص الحركة النقابية القطاع العمومي او الشبه العمومي اي عند ما يكون المشغل هو الدولة .

ولكل هذه الاسباب المرتبطة جميعها بالطابع المزدوج والجدلي للعمل النقابي يمكن الخروج بخلاصة أساسية ، وهي أنه **لا وجود لحركة نقابية بدون ممارسة سياسية** . هذه هي الملاحظة الاولى الاساسية التي يريد ان يبرزها العرض وهي موضوعية الطابع السياسي لكل عمل نقابي .

هذه الخلاصة الاولى التي وصلنا اليها تطرح علينا اشكالية اخرى : ما هي طبيعة هذه الممارسة السياسية التي يفرضها الطابع الجدلي لنضال النقابات ؟ هل هي من طبيعة تهدف الى القضاء على الاستغلال وبالتالي على

النظام الذي يكرس هذا الاستغلال اى النظام الراسمالي ، أم تقتصر فقط على الصراع من أجل تحسين شروط العمل ضمن حدود النظام الراسمالي ؟

إن مضمون الطابع السياسي للعمل النقابي رهين بعنصرين مترابطين ، اولهما المرحلة التي يمر بها النظام الراسمالي ، وثانيهما التكوين الداخلي للطبقة العاملة (اي بنسبة الطبقة العاملة) والاشكال التاريخية للصراع الطبقي داخل المجتمع . فعلى سبيل المثال توجد في الدول الراسمالية الغربية المتقدمة طبقة عاملة واسعة تكون الاغلبية الكبرى من الجماهير الشعبية وهي طبقة متميزة داخليا différenciée تضم على الخصوص فئة من المؤهلين تقنيا ، وهذه الفئة بواسطة مهارتها المهنية ومستواها التعليمي واستقلالها النسبي عن رب المعمل ، او عن المؤسسة ، تمثل الحلقة الاجتماعية التي تزود الحركة العمالية بالاطر الضرورية لكل طبقة تاريخية . وفي نفس الوقت فان الراسمالية في هذه البلدان وصلت الى مرحلتها الامبريالية الشيء الذي جعلها **تستغل بالاضافة الى عمالها ، عمال وشعوب المناطق الخاضعة لها اقتصاديا وسياسيا** ، كما مكنها من تزويد سوقها الداخلية وصناعتها في الدولة الام بمواد اولية ومواد غذائية بثمن زهيد يوفر للراسمالية ارباحا اضافية طائلة . لذلك فان الراسمالية تعمد الى تمزيق وحدة الطبقة العاملة بفك الاواصر بين جماهير العمال الذين لا يتمتعون بالمهارات التقنية وفئة العمال المؤهلين ، والى خلق ارستقراطية عمالية من العناصر المؤهلة موضوعيا لتكون اطرا للحركة العمالية . وفي الدول التي نجحت فيها الى حد ما خطة التمزيق هذه تتمتع الارستقراطية العمالية باجور عالية نسبيا ، وباستقرار في العمل ، وبامتيازات اخرى تجعلها قابلة للنظام الراسمالي وتسعى **فقط** الى اصلاحه من الداخل .

كما أن توسع الخط الاصلاحي ، الذي هو في واقع الامر ادخال النظرية والممارسة البورجوازية داخل صفوف الطبقة العاملة ، سيجعل النقابات في موقع التنافس والتنافر مع الحركة الاشتراكية ، ومن مظاهر هذا التنافس أو التنافر بروز شعارات داخل الحركة العمالية مثل استقلال النقابة الذي هو في الحقيقة استقلال النقابة لا عن البورجوازية والنظام السائد ولكن عن التنظيمات الاشتراكية الطليعية ، ومثل شعار تفوق النقابة عن الحزب كاداة للتغيير .

ان دراسة التطور التاريخي للحركات العمالية الاوربية على الخصوص في انجلترا وفرنسا تظهر أن الممارسة الاصلاحية داخل الحركة النقابية نشأت مع تحول الراسمال من راسمال التنافس الى راس مال مبني على الاحتكار ، اي الامبريالية . ولقد كتب كل من ماركس وانجلز ولينين الكثير عن انقسام الحركة العمالية بين الاختيار الاصلاحي البورجوازي في عمقه واتجاهه ، وبين

الاختيــار الاشتراكــي .

لقد وصلت الراسمالية الاحتكارية في انجلترا الى استمالة الارستقراطية العمالية بنهج خطة نقابية اصلاحية بدأت تلجأ الى اشكال نقابية جديدة متلائمة مع الهياكل الراسمالية القائمة ومع ضرورة استمرارها مثل الاغراق في العمل الانتخابي والعمل البرلماني ، وتوسيع العمل التعاضدي والتركيـز عليه . ولقد أدى تطور هذا الاتجاه النقابي الاصلاحي في نهاية القرن 19 الى خلق الحزب العمالي الذي هو واجهته السياسية .

أما في فرنسا فقد ظهر الاتجاه النقابي الاصلاحي ، تحت غطاء ثوريـة لفظية ، بقيادة الفوضوية النقابية التي كانت تجارب الحركة الاشتراكية السياسية ، بدعوى أن أنجح اداة لتحقيق هذا العمل النقابي والتنظيم النقابي بصفة أدق هي الاضراب العام والذي يقوم بـه العمـال بـدون أي تحـالف مع باقي الفئات الشعبية الاخرى . غير أن عمقها الاصلاحي المضمر انكشف وبشكل مفضوح بعد فشل الاضراب العام لسنة 1901 ومع اندلاع الحـرب العالمية الاولى اللذين اثبتا لدى الجماهير الواسعة من العمال خرافة الاطروحات الفوضـويـة .

وما يمكن التركيز عليه من خلال هذه النماذج التاريخية هو ان الامبريالية يمكن ان تُدخل في تجربة خلق الارستقراطية العمالية حتى في البلاد المستعمرة (بضم الميم الثاني) وهذا بالضبط ما فعلته في المغرب ابان الحمايـة . ان الاستعمار في المغرب جعل من مجموع العمال الاجانب سواء من الموظفين في الادارة او العمال الذين يشتغلون في القطاع الصناعي الخاص والتابع للدولة ارستقراطية عمالية . فالموظفون الاجانب كانوا يتمتعون بامتيازات واسعة نوجزها فيما يلي :

1/ مضاعفة الاجور بالنسبة لما يتقاضاه الموظف بفرنسا . 2/ اعطاء تعويضات المجيء وتعويضات الاقامة وتعويضات المعيشة ـ اعطاء عطل دورية في فرنسا مع الاحتفاظ بالاجر . 3/ امكانية اخذ رصيدهم المالـي للتقاعد بعد 10 سنوات من العمل . اما العمال الصناعيون الاجانب فقد كانوا هم ايضا يتمتعون بامتيازات في ظل قوانين الشغل المرتكزة على التمييز في الاجور . وقد اعترف ليون جوهو L. Johoux نفسه وهو الكاتب العـام لـ س. ج. ت. C. G. T. بفرنسا ، عند مجيئه الى المغرب في سنة 1930 باهمية هذه الامتيازات .

وهذا ما يفسر كون التنظيمات النقابية التي خلقتها الشغيلة الاجنبية في المغرب بما فيها س. ج. ت. C. G. T. كانت ذات نزعة اصلاحية بالنسبة لنظام الحماية كنظام ، أو على الاقل تبعا للدور الطليعي للشعب الفرنسي بالنسبة لشعوب ما كان يسمى بشعوب فرنسا وما وراء البحار في النضال

ضد الرأسمالية . ولذلك فان نقابة س. ج. ت. C. G. T التي كانت اكثر تقدما من النقابات الاخرى لم تتمكن قط ، رغم دورها الايجابي في شيوع الوعي النقابي لدى العمال المغاربة ، من تجاوز حدين في عملها النقابي : وهما ، الحد الاقتصادي الذي يعني تجنيد قاعدتها من أجل رفع الميز الحاصل في الاجور رغم مطالبتها به في السنوات الاخيرة من عهد الحماية ، والحد السياسي الذي يعني النضال ضد الاستعمار واشكاله . هذا النضال الذي ربط ذلك بما كان يسمى بالاتحاد الفرنسي ، وهذا يفسر لنا بدوره نشوء وتوسع حركة عمالية مغربية وطنية مرتبطة بالحركة الوطنية كما يفسر لنا ضعفا وصعوبة شيوع الفكر الاشتراكي العلمي .

لنتساءل الآن ، وفي مستوى آخر من التحليل ، عن شروط اخرى موضوعية مكنت بدورها تاريخيا من فصل الحركة العمالية الاشتراكية عن الحركة النقابية في بعض البلدان الرأسمالية ، ذلك انه لا يكفي لفهم هذا الفصل فقط اعتبار موقف الرأسمالية الاحتكارية من الارستقراطية بل من الضروري ابراز العوامل الداخلية المرتبطة بسير النظام الراسمالي التي تمكن من تواجد الحركة النقابية في شرط هذا النظام كحركة نقابية مطلبية ، فالحركة النقابية مهما وضعت استراتيجية نضالها في أفق اصلاحي ضعيف لن تتمكن من الاستمرار ، كحركة نقابية وبواسطة العمل النقابي ، الا اذا تمكنت من انتزاع بعض المكاسب المطلبية ليس فقط للارستقراطية العمالية بل ايضا لمجموع الطبقة العاملة . وهذا متيسر اذا ما رجعنا الى طبيعة الازمات الدائرية التي تعرفها الراسمالية ، ففي اثناء هذه الازمات تتعطل كمية كبيرة من قوة العمل ، كالآلات ، واليد العاملة ، مما يتسبب في التسريح الواسع للعمال ، وفي التراجع عن كثير من المكتسبات العمالية . وتدخل المعركة النقابية في مرحلة الدفاع عن النفس ، الا ان مضاعفات الازمة من جراء القضاء على الراسمال الصغير والمؤسسات المتأخرة من الناحية الانتاجية . وبفضل تمركز الراسمال يتمكن النظام الراسمالي في فترات اخرى من التوسع . فجدلية الركود والتوسع تفرض وجود جيش من يد عاملة احتياطية تسميها الاشتراكية العلمية بالجيش الصناعي الاحتياطي الذي هو عنصر ضروري في توسيع الراسمال بعد أزمته . وبالتطابق مع هذه المراحل تعرف الحركة النقابية ، ولاسباب موضوعية محضة ، فترة من الدفاع عن النفس وعن المكتسبات غالبا ما تكون فيها الخسائر ، وفترة أخرى تواكب التوسع تنتعش فيها الحركة النقابية بفضل تزايد الطلب على اليد العاملة بقوة وبفعالية في الضغط وفي الصراع ، وهذه الفترة بالذات هي التي تفسر استمرار الحركة النقابية كحركة نقابية واستمرار هيمنة الارستقراطية العمالية على الحركة النقابية في بعض الدول .

وينتج عن كل ما سبق ذكره ان الشروط الموضوعية الاقتصادية والاجتماعية للنظام الراسمالي والصراع الطبقي تخلق امكانية ممارسة اصلاحية داخل النقابات ، وهذا لا يعني أن الممارسة الاصلاحية ستكون حتمية في جميع الحالات ، بل ان بعض التجارب أظهرت أن توفر شروط ذاتية من تنظيم عمالي أصيل مستقل عن الراسمال ، ومرتكز على الاشتراكية العلمية كما أظهرت هذه التجارب أنه عندما يعرف هذا التنظيم كيف يجد طريقه الخاص لتوسيع نفوذ الاشتراكية العلمية فانه يتمكن من خلق تنظيمات نقابية تتبنى تصفية استغلال الانسان لاخيه الانسان وبالتالي القضاء على نظام التاجير الذي يفرض على العامل بيع قوة عمله وهذا ما كانت تنص عليه قوانين س. ج. ش.

جدلية النضال الاقتصادي والنضال السياسي في الدول الخاضعة للنفوذ الامبريالي

غير أن جدلية النضال الاقتصادي والنضال السياسي هذه تخضع في الدول التابعة للراسمالية العالمية لشروط موضوعية أخرى . ذلك أن تغلغل الامبريالية في هذه الدول وما ينتج عنه من نهب وتخريب للاقتصاد الوطني ومن اعتماد على اولغارشية محلية تعيش في فلك الاحتكارات الاجنبية يجعلها في أزمة مستمرة ، اي هيكلية . وينعكس هذا على وضعية الطبقة العاملة المحلية التي تصبح تحت وطأة الاستغلال الفاحش بجانب وجود بطالة مزمنة وعلى عكس وضعية الدول الراسمالية يمكن الحديث في الدول التابعة ، عن جيش دائم من العاطلين ، وليس عن عمل احتياطي صناعي . وطبيعي أن كل بطالة دائمة حادة لها مضاعفاتها السلبية على النضال النقابي وعمل القدرة الفعلية للنقابات اثناء الصراع واثناء المفاوضات . بالاضافة الى أن أغلبية الصناعات الموجودة في البلاد التابعة لا تتطلب يدا عاملة مؤهلة ، مما يسهل القمع . ان البورجوازية في المغرب مثلا لا تحترم أبسط الحقوق المعترف بها في قوانين الشغل ، فاغلبية العمال ليسوا مسجلين في الضمان الاجتماعي ، وعملية الطرد تمس حتى المسؤولين النقابيين المنتخبين الذين يحميهم نظريا قانون الشغل ، وفي كثير من الاحيان يتم هذا الطرد بدون استشارة مفتشية الشغل والسلطات الاخرى المختصة كالعمالة مثلا . ان المنظمات النقابية لا تتمكن ، في الدول التابعة اذا اقتصرت على العمل النقابي الصرف من جراء ما يحيط بها من ضغوط اقتصادية واجتماعية ، من أن تغير جذريا من علاقات العمل داخل المؤسسات ولا قانون الشغل ولا انتزاع مكتسبات أساسية بالنسبة للطبقة العاملة . ذلك ان هذه المطالب لا يمكن تحقيقها الا في اطار نضال عام نقابي وسياسي للقضاء على الازمة وذلك بالنضال ضد الهيمنة

الامبريالية ومن أجل التحرر والتقدم .

لذلك فلا يمكن أن يكون هناك نضال نقابي فعال دون نضال سياسي عام ، بل اكثر من ذلك فان الوجود النقابي ذاته واستمرار نفوذه يحتم اختيارات ثورية وممارسة سياسية ثورية داخل النقابات .

وضمن هذا النضال المعادي للراسمالية ذي الافق التحرري لا يلتقي النضال النقابي بالنضال السياسي فقط ، بل اكثر من ذلك ، يتحتم على التنظيمات النقابية أن ترتبط بحركة التحرر الوطني باعتبارها تغييرا تاريخيا لمطامح الجماهير الشعبية بجميع فئاتها المناضلة بما في ذلك الطبقة العاملة من اجل الانعتاق الوطني والتقدم الاجتماعي . هذا الارتباط يخضع لجدلية الكل والجزء .

ان تطور الحركة النقابية في المغرب [illegible] بكل جلاء جدلية التنظيم النقابي وحركة التحرر الوطني . فالحركة النقابية عند ظهورها في أوساط العمال المغاربة ابتداء من سنة 1934 كانت عبارة عن مستوى من مستويات التنظيم والوعي الوطني ، فانخراط العامل المغربي في النقابة كان يعني النضال ضد التمييز في الاجور وضد الاستغلال الراسمالي الذي هو في نفس الوقت استغلال استعماري واضطهاد وطني ، كما أن التداخل بين التنظيمات النقابية وتنظيمات الحركة الوطنية لم ينقطع قط . فاول حزب وطني في المغرب (كتلة العمل الوطني) كان أول من طالب بحق العمال المغاربة في تكوين نقاباتهم ، كما أن الحزب الوطني الذي أصبح فيما بعد سنة 1944 ، حزب الاستقلال ، كان أول من انشأ نقابة وطنية سنة 1937 خارج التشريع الاستعماري .

وتجدر الاشارة هنا الى [illegible] النسبي للنضال النقابي وللتنظيمات النقابية الوطنية السرية في [illegible] المؤسسات ككوزيمار ساهم مع الظروف التي واكبت الحرب العالمية [illegible] وخارجيا في تجاوز الاستراتيجية الاصلاحية التي دشنتها [illegible] سنة 1934 واستبدالها باستراتيجية تعتمد على [illegible] الاستقلال، هذا الشعار الذي انبثق عنه حزب الاستقلال [illegible] على الحركة النقابية المغربية اذ وسع نفوذ النقابات الوطنية [illegible] ت. وفرض بداخلها اتجاها وطنيا تمكن من الهيمنة على [illegible] سنة 1951 . وبالمقابل فان توسيع العمل النقابي ادى [illegible] عرية داخل حزب الاستقلال تغييرات جعلت منه منظمة [illegible] عدد اعضائه الذي كان سنة 1944 يقدر بـ [illegible]000 [illegible] سنة 1947 بـ 30.000 وبـ 100.000 سنة 1952 . وخلال هذه [illegible] ت أغلبية قواعده من العمال

المغاربة . كما تكون داخله اتجاه تقدمي يعنى بتنظيم العمال . ولقد شملت هذه التحولات ايضا اسلوب العمل السياسي اذ ان تدفق العمال داخل حزب الاستقلال رفع من حدة الصراعات داخل هذا الحزب بين الاتجاه الذي كان ينادي بالعمل الديلوماسي السري من اجل الغاء معاهدة 1912 ، والاتجاه الذي يقول بضرورة العمل الجماهيري الواسع بكل اشكاله بما في ذلك العمل المسلح . ومن المعلوم أن هذا الاتجاه الاخير هو الذي تفوق ابتداء من سنة 1953 ، وشرع في المقاومة المسلحة التي خرجت أساسا من الخلايا العمالية التي كانت داخل حزب الاستقلال . كما ان هذه التغييرات التي وقعت في المجال السياسي ، مثل التحول في الاساليب ، وبروز خلايا المقاومة المغربية، قد عجلت بدورها في خلق تنظيم نقابي وطني مستقل عن س. ج. ت. هو الإتحاد المغربي للشغل الذي تمخض عن الانتفاضة التاريخية لـ 20 مارس 1955 تحت حماية المقاومة المغربية وباتصال مستمر مع قادتها الذين ساهموا بآرائهم حتى فيما يخص قيادة الاتحاد المغربي للشغل . ولا تقف هنا جداية التنظيم النقابي وحركة التحرر الوطني . فالاتحاد المغربي للشغل لعب هو الآخر بعد الاستقلال السياسي للبلاد دورا أساسيا في حماية المقاومة وجيش التحرير ضد المخططات التصفوية الرجعية والاستعمارية ، كما لعب دررا ايجابيا في تطوير حركة التحرر الوطني عند ما ساهم في عملية خلق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ، غير أن بروز هذا الحزب التقدمي سنة 1959 كان قد حرر قوة ثورية ما فتئت بدورها ان تجاوزت الاساليب البيروقراطية للاتحاد المغربي للشغل ودخلت في صراع ضد ممارسته النقابية والسياسية الانتهازية . وما ظهور الجامعة المستقلة للبريد سنة 1963 والنقابة الوطنية للتعليم سنة 1965 الا تعبيرا عن الصراع داخل حركة التحرر الوطني ذاتها ، بين الاتجاه الذي ينادي بتعميق المكاسب الديمقراطية والنضال الحازم ضد التبعية والتخلف والاستغلال بالاعتماد على النضالات الجماهيرية الواسعة ، والاتجاه الذي ينادي بالطرق الفوقية بواسطة حكومة شعبية تكون أداة لتغييرات « جذرية » . [illegible] هذا الصراع بالضبط ، مع استمراره في مده وجزره ، هو الذي أدى الى تغيير شامل داخل حركة التحرر الوطني بتكوين الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ثم النقابات الوطنية كاداة لفرض وتعزيز الاتجاه التقدمي لحركة التجدير داخل الجماهير المغربية وتحرير العمل النقابي من التعامل الطبقي والممارسات الانتهازية . وبدون شك فان النقابات الوطنية التي تحررت ستؤدي الى تنمية حركة التحرر الوطني في اتجاه اشتراكي والى تغييرات ايجابية داخل الحركة التقدمية كما وكيفا .

الاستراتيجية الاساسية للقوات الرجعية : فك الارتباط الجدلي بين الحركة النقابية وحركة التحرر الوطني

ان القوات الرجعية قد وعت ، من خلال تجربة صراعها مع الجماهير الشعبية ، الاهمية التي تكتسيها هذه الجدلية والخطورة التي يمثلها التداخل بالنسبة لمصالحها ،-ولهذا رأينا سلطات الحماية في فترة الاستعمار المباشر، والسلطات الرجعية بعد الاستقلال السياسي ، تلجأ الى وضع مخطط ووسائل من شأنها فك الارتباط بين حركة التحرر والحركة النقابية . ومن المفيد الاشارة الى أن الخطة الاساسية للقوات المعادية للطبقة العاملة في المغرب على عكس ما هو متبع من طرف الانظمة الراسمالية في الغرب ، تكمن في فك هذا الارتباط قبل التقسيم الداخلي للتنظيم النقابي الموحد . وبصفة ادق فان القوات الرجعية في بلادنا قد لمست أنه لا سبيل لاضعاف الحركة النقابية المغربية وابعادها عن جماهير العمال وتفتيتها بخلق تنظيمات موازية الا بفك الارتباط الذى يوجد بين هذه الحركة وحركة التحرر الوطني . وقد أظهرت التجربة ان ما يسمى بالاتحاد العام للشغالين لم يتمكن في احراز بعض النفوذ في صفوف العمال الا بعد انحراف الجهاز النقابي للاتحاد المغربي للشغل عن الخط النضالي العام لحركة التحرر الوطني . فلا غرابة اذن اذا راينا القوات الرجعية في بعض الفترات تدافع وبشكل علني عن وحدة الطبقة العاملة داخل تنظيم نقابي موحد مراعية في ذلك فقط فك الارتباط . لقد تبنى « اريك لابون » E. Labonne أحد المقيمين لسلطات الحماية بالمغرب ، على سبيل المثال ، بعد الحرب العالمية الثانية خطة جعل من نقابة س. ج. ت. C. G. T. المنظمة النقابية التي ينخرط فيها جميع العمال المغاربة . فجون لاكوتور J. Lacouture الذي له المام بما كان يجرى في بلادنا على الصعيد الرسمي اكد في كتابه « المغرب في الامتحان (Le Maroc à l'epreuve) بأن أريك لابون في زياراته للمعامل الكبرى بالدار البيضاء سنة 1947 كان يخاطب العمال المغاربة قائلا (الكل داخل (س. ج. ت.) وكذلك الشأن بعد الاستقلال السياسي وقبل سنة 1960 ، اذ تبنى الحكم في مجال علاقته بالحركة النقابية موقفا اساسيا يرتكز على الوحدة النقابية داخل الاتحاد المغربي للشغل كجزء من خطة عامة تهدف الى فك الارتباط . وتشهد الخطابات الرسمية لفاتح ماي وكذلك الرسائل التي وجهت من طرف السلطات العليا الى الاتحاد المغربي للشغل حتى سنة 1960 على هذه الخطة الشمولية التي اتبعها الحكم . ونستخلص من ذلك أن شعار الوحدة النقابية في اطار الشروط المغربية ، ليس دائما ذا محتوى تقدمي ، فتقدميته مرتبطة بالاساس بمدى خدمة هذه الوحدة لقضايا التحرر والتقدم . الوحدة النقابية من اجل ماذا ؟ وفي أي اطار؟

لقد استغل كما رأينا هذا الشعار في ظروف معينة من طرف القوى الرجعية لعزل الحركة النقابية عن حركة التحرر الوطني وعزل الطبقة العاملة عن النضالات التي تخوضها الفئات الاخرى من الشعب المغربي ، ومع كل الاسف فاننا نرى اليوم بعض التقدميين يدافعون عن نفس الشعار بشكل مجرد وحسب تحليل لا تاريخي وبنزعة عمياء لبلوغ نفس الأهداف : وهي الهادفة الى عرقلة الدينامية الداخلية لحركة التحرر الوطني والوقوف ضد التغييرات الضرورية داخل الحركة النقابية ، تلك التغييرات التي يفرضها التطور الموضوعي للحركة النقابية ، والتي ، مهما كان الحال ، لا يمكن أن تسمى من الاخلاقيات المطلقة المثالية .

هذا فيما يخص الخطة العامة التي اتبعتها القوات الرجعية في بلادنا لضرب حركة التحرر الوطني . أما من حيث تطبيقها فقد لجأت الى عدة وسائل لعزل الاطر النقابية عن قاعدة العمال وخلق بيروقراطية لها مصالح خاصة تجعلها تتاثر بخطة الحكم بطريقة أو بأخرى . ومن بين تلك الوسائل الانقطاعات ، والتعاضديات ، والاقتطاعات من الاصل ، وبرص الشغل .

1) **الانقطاعات** : أولا وقبل التطرق الى مسالة الانقطاعات يجب ان نرفع كل لبس ، وذلك بالتاكيد على أنه لا يمكن بناء حركة عمالية وسياسية أو نقابية بدون مناضلين يكرسون كل مجهوداتهم وكل وقتهم للعمل النضالي . وعلى عكس التنظيمات البرجوازية التي يمكن ضمان سيرها العادي بواسطة متطوعين غير دائمين أو منقطعين ، فان الطبقة العاملة ، من جراء شروط عملها القاسية والاستغلال الذي تخضع له ، لا يمكن أن تفرز أطرا تتطوع للعمل النقابي ، وتزاوج بين العمل في الميدان الاقتصادي والمسؤولية النقابية، واذا ما توفر ذلك فسيكون من باب الاستثناء فقط . ومن ثم فان الانقطاع شيء ضروري لكل تسيير ديمقراطي ومستقر للتنظيمات العمالية ، كما ان النضال ضد الانقطاعات بشكل أعمى وبطريقة منهجية غالباً ما يخفي طموح البورجوازية الصغرى في احتلال مراكز القيادة والتوجيه السياسي والايديولوجي داخل الحركة العمالية. هذا من الناحية المبدئية، أما من الناحية العملية فان الشكل الذي طبقت به هذه الانقطاعات في المغرب جعل منها أداة ووسيلة لفصل الأطر النقابية عن القاعدة العمالية ، وبالتالي لاخضاع الحركة النقابية ، في اطار مخطط تحييد الطبقة العاملة ، الى مخطط الحكم وسياسته . ولكي نوضح مسالة الشكل الخاص الذي طبقت فيه الانقطاعات بالمغرب ونتائجه السلبية على الحركة ، نرتئي مقارنته بالشكل الذي طبق ويطبق داخل الحركة النقابية الفرنسية . فالانقطاع بالنسبة لهذه الاخيرة هو وسيلة تسمح للمناضل النقابي ان يتفرغ للعمل النقابي ويتقاضى أجره من النقابة نفسها فيبقى خاضعا لخطة النقابة ولمراقبة الحركة العمالية ــ فمثلا « جورج

سيكي « G. Séguy الكاتب العام لنقابة .C. G. T الفرنسية هو مجرد عامل منقطع تسدد له النقابة الفرنسية التي يرأسها أجرة تفوق المقدار الذي كان سيحصل عليه لو استمر في عمله الاقتصادي .

أما بالمغرب فان الاقتطاعات ينص عليها القانون الاساسي للوظيفة العمومية الذي يذكر في أحد بنوده امكانية الانقطاعات السياسية (داخل مؤسسة سياسية كالبرلمان) والانقطاعات النقابية داخل النقابات . ومن المفروض ان المؤسسة التي يصبح خاضعا لها المنقطع ، في كلتا الحالتين ، هي التي تخلف مؤسسته الاولى في تسديد اجره ، ولكن الواقع مخالف لذلك . فالمنقطع النقابي بالمغرب يستمر في التوصل باجره من مؤسسته الاولى ، وبما ان أغلبية المنقطعين هم منحدرون من القطاع العام والشبه العمومي فانهم يستمرون في تقاضي أجورهم من المؤسسات الادارية الحكومية ، الشيء الذي يترك للحكم امكانية الضغط والتاثير على خطط النقابة كما ظهر ذلك ابان الاضراب العام لقطاع الوظيفة العمومية سنة 1961 . واذا ما ادخلنا في اعتبارنا ان الانقطاعات في غالبيتها العظمى تقرر وتعطى بطلب من الجهاز المركزي للنقابة وليس بتقرير ولا بطلب الاجهزة النقابية القاعدية ، واذا ما علمنا كذلك ان مسالة الانقطاع وتعيين المنقطعين وممارستهم لا تناقش داخل المؤتمرات النقابية (المؤتمر الخامس للاتحاد المغربي للشغل مثلا ، لم يناقش حتى تقرير النشاط العام للمنظمة المركزية) أدركنا بوضوح انه لا توجد لدى القواعد العمالية أية وسيلة لمراقبة ومحاسبة المنقطعين الذين هم خاضعون فقط لارادة القيادة المركزية ، وهذه الوضعية تعرض أغلبية المنقطعين ، ولا نقول الكل اذ لا شك في نزاهة ونضالية بعض المنقطعين ، لاخطار الانحراف وخيانة قضايا الطبقة العاملة . اذن ، في هذه الشروط وفي اطار التراجعات السياسية التي أقدم عليها الجهاز النقابي منذ 1961 تكونت بيروقراطية نقابية لها مصالحها وحساسيتها خصوصا اذا علمنا ان عدد هؤلاء المنقطعين في نمو متزايد رغم تقلص القاعدة النقابية وجمود التنظيمات ، ولنذكر على سبيل المثال أن الجامعة الوطنية للتعليم للاتحاد المغربي للشغل التي كانت تتوفر في سنة 1958 ، اي في السنوات الاولى لنشاتها ، وهي سنوات الازدهار النقابي ، على منقطع واحد هو كاتبها العام آنذاك ، فان هذه الجامعة الآن تتوفر على أكثر من 30 منقطعا رغم أنها منذ نوفمبر 1975 لم تعد تتمتع ، كما دلت على ذلك انتخابات اللجان الثنائية ، الا على أقل من 40 ٪ من المقاعد .

بالاضافة الى ذلك فان المنقطعين ، في غالبيتهم العظمى ، وليس ذلك صدفة ، يقع اختيارهم من صفوف موظفي القطاع العام وشبه العمومي ، أي من الفئات البورجوازية الصغرى المأجورة، وهي فئة تتصف بعدم استقرارها، وبتبنيها في كثير من الاحيان في مجال النضال النقابي لاساليب الضغط

والتدخل والوساطة ، تلك الاساليب التي لا تلجأ الى تجنيد القواعد الواسعة من العمال . كما افرزت التجربة في السنوات الاخيرة شكلا آخر من المنقطعين ، وهم المكلفون بالتعاضديات . ففي مرحلة أولى مع تزايد عـدد المنقطعيـن وتقلص العمل النقابي بدأ أغلبهم يلتجئون للعمل داخل التعاضديات ، لان هذا العمل ، فضلا على انه عمل مستمر ، ولا يمثل نفس المخاطر التي يمثلها العمل النقابي ، يمكنهم من الرفع من مداخيلهم بواسطـة الساعـات الاضافيـة والتعويضات مثلا ، فأصبح أغلب المنقطعين يشتغلون داخل التعاضديات . وهكذا فان الحركة النقابية المغربية ، بعد أن كانت حركة ذات أفق سياسي تحرري ، انتقلت الى حركة تعتمد بالاساس على العمل المطلبي الاقتصادى ، وفي فترتها الاخيرة تحولت الى حركة ترتكز على التسيير داخل التعاضديات ، ومع تحولها هذا توسع الفصل بين الجهاز النقابي والقاعدة العمالية وزادت تبعية هذا الجهاز للحكم . وقد أدى هذا التطور الى بروز مجموعة أخرى داخل الجهاز النقابي ، وهي التي تستمد نفوذها من القوة المالية ومن الخدمات التى يمكن أن تقوم بها التعاضديات التي تشرف عليها وليس من اشعاعها السياسي ولا من عملها النقابي . وتشكل هذه المجموعة أكبر خطر على التوجيه النقابي، اذ أصبحت في الايام الاخيرة ، كما يدل على ذلك نهجها داخل البرلمان المنتخب سنة 77 ، أقرب ما يمكن الى سياسة الحكم .

والخلاصة ان وزن المنقطعين في اطار التوجيه الاقتصادي المحضـر الذي لا يرتكز على جدلية العمل النقابي والعمل السياسي قد دفع بالحركـة النقابية من خطة المطالب الى خطة التسيير ، وحول من الطبيعة الطبقيـة لقيادة الحركة النقابية التي أصبحت اما بورجوازية صغرى واما بورجوازية وسر التقارب بين الحكم والجهاز النقابي يكمن في هذه التحولات .

2) **التعاضديات** : وهي أيضا وسيلة ساعدت في تغيير استراتيجيـة الاتحاد المغربي للشغل وفك العرى بينه وبين حركة التحرر الوطني . وهنـا يجب أن نقارن بين دور التعاضديات داخل الحركة النقابية في الدول الرأسمالية الغربية وفي بلادنا . ففي الاولى نشأت الحركة العمالية المطلبية أول ما نشأت على شكل حركة تعاضدية وبصفة خاصة على شكل صناديق المقاومة النقابية (CRS) التي كانت في غياب كل حركة نقابية وسيلة لتمويـل الاضرابات . أما التنظيم النقابي فانه كان من مكاسب الحركة التعاضدية واستمرت التعاضديات بعد ذلك في تغذية العمل النقابي وظلت تخدم النقابات.

أما بالنسبة للمغرب فان التطور التاريخي كان عكس ذلك ، وأدى الى نتائج عكسية . فأول ما ظهر بالنسبة للحركة العمالية المغربية هو التنظيمات النقابية التي أدخلتها الارستقراطية العمالية الفرنسية قبل أن يندمج فيهـا العمال المغاربة وتغزوها الحركة الوطنية . ولم تظهر التعاضديات بالنسبـة

للطبقة العاملة المغربية الا في السنوات الاولى بعد الاستقلال ، وكمكسب للنضالات العمالية وللتنظيمات النقابية، واستمرت بعد ذلك التنظيمات النقابية تسهر على هذا المكسب حتى ولو أدى بها ذلك الى تنازلات أساسية .

فعوض أن تكون التعاضديات في خدمة العمل النقابي ، من أجل تغذيته وتقوية مقاومة العمال للاستغلال الرأسمالي رأينا العكس ، بل أكثر من ذلك فان التعاضدياتاصبحت ابتداء من سنة 1965 كمؤسسة رئيسية داخل الهياكل النقابية ، وخلقت كما أسلفنا القول جماعة من اطر ذات امتيازات خصوصا وأن هذه التعاضديات تتمتع بقوة مالية كبرى . وأصبحت في بعض القطاعات ، كقطاع الطاقة مثلا ، وسيلة للضغط على العمال من أجل انخراطهم داخل النقابات . ومن ثم ينخرط العامل لا من أجل صيانة حقوقه كعامل ، ولكن من أجل الاستفادة من الخدمات التي تقوم بها التعاضديات . أما بالنسبة للحركة العمالية الغربية ، فان العامل ينخرط في التعاضدية ، بصفة النقابة ، كعضو في تنظيم عمالي ، يعني أن المقياس هو الفعالية النقابية ، **فلا تعاضديات مزدهرة بدون تنظيم عمالي صلب** . اما بالنسبة للمغرب ، فان العامل يصبح عضواً في النقابة بصفته مشاركا في التعاضدية .

ولهذا فان التجربة المغربية في السنوات الاخيرة ، وعلى الخصوص بالنسبة للقطاع العام ، أعطت أولوية للتعاضدية على النقابة ، حتى أن البقية الباقية من التنظيم النضالي لا توجد الا في القطاعات التي تتمتع بتعاضديات قوية . اما في القطاعت الاخرى ، وهي الاغلبية التي لا يوجد فيها عمل تعاضدي مهم ، فليست هناك نقابات واسعة النفوذ ، وسر ذلك يكمن في الاستراتيجية التي تبناها الاتحاد المغربي للشغل منذ 1961 . وزيادة على ذلك فان أهمية التعاضديات في الهيكل النقابي العام قد وسع تأثير الحكم على التعاضديات ، وبالتالي على النقابات ، خصوصا عندما تكون هذه التعاضديات لا تتوفر على تسيير قويم كم اكدت ذلك المراقبة التي قامت بها وزارة المالية على التعاضدية العامة للتربية الوطنية سنة 1973 ، والتي اظهرت خصاصا يقدر بـ 350 مليون سنتيم .

ورغم الصلاحية التي يعطيها ظهير سنة 1963 حول النقابات في هذه الحالة لوزارة الشغل لتكوين مكتب مؤقت للتعاضدية خلفا للمكتب المدان وتنظيم انتخابات جديدة في ثلاثة أشهر لمكتب يقع اختياره ديمقراطيا من طرف الاعضاء ، فان الوزارة المعنية لم تحرك ساكنا مما يدل على تواطوء الحكم والجهاز النقابي ، أو على الاقل على رضى الحكم فيما يخص التسيير العام الذي يتبعه هذا الجهاز .

3) **الاقتطاعات من الاصل** : ونعني بذلك بعض الممارسات النقابية في بيع بطاقات العضوية واستخراج ثمنها ، لا بالاتصال المباشر مع العضو

الراغب في الانخراط ولكن باقتطاع ثمن البطاقة بطريقة منهجية وكل سنة او كل شهر حسب شكليات الانخراط في الاصل ، أي من الاجرة ، وهي ما زالت عند المشغل قبل دفعها الى العامل . وقد شملت هذه الممارسات ابان الاستعمار كثيرا من المكاتب الوظائفية مثل المكتب الوطني للطاقة والمكتب الشـريف للفوسفاط الخ... وكانت تدخل اذاك في الخطة التي تبنتها الحماية بعد الحرب العالمية الثانية ، وخصوصا في عهد (ايريك لابون) المقيم العام ، تلـك الخطة التي كانت تهدف الى تقوية (س. ج. ت.) الفرنسية ، والى تشجيع انخرط العمال المغاربة في هذه المنظمة ، وبالتالي الى المحاربة غير المباشرة لكل محاولة يقوم بها النقابيون الوطنيون من أجل خلق منظمة نقابية مستقلة عن تنظيمات واستراتيجيات (س. ج. ت.) . فالاقتطاع في الاصل كما نراه ، كان في الشروط المغربية الاولى عبارة عن نتيجة التقاءات سياسية واتفـاق ضمني بين سلطات الحماية والحركة النقابية الفرنسية المتواجدة في المغرب . ونجد هذه الممارسة معمولا بها بعد الاستقلال داخل المكتب الوطني للطاقة ، حيث ينخرط في الجامعة الوطنية للطاقة التابعة للاتحاد المغربي للشغل أغلب عمال هذا القطاع ، وهي حسب الاحصائيات الاخيرة تدر على هذا التنظيم النقابي مدخولا سنويا يقدر بـ 50 مليون سنتيم .

ولكن المهم هنا هو دراسة ما يترتب عن هـذه الممارسـة ، بالنسبـة للتنظيمات النقابية وبالنسبة للخط العام الذي ينهجه التنظيم ، فالاقتطاع في الاصل يشجع داخل التنظيمات على بروز وتنمية اتجاه بيروقراطي ، ممـا يجعل الانخراط في النقابة غير ناتج عن حيوية التنظيم وفعاليته النضالية ، ولكنه يتحول الى عمل روتيني يوسع حقيقة من الامكانيات المالية للنقابات ، وهذا شيء يجب الا يستهان به ، ولكنه في نفس الوقت يضعف من طاقاتها النضالية ، ويحولها من تنظيم جماهيري يتطور على أساس التطوع والاقتناع الى سلسلة من المكاتب والمصالح ترتبط ارتباطا متينا بالادارة، ويستحسن هنا ادراج موقف الثورة الروسية سنة 1917 ، وقائدها لينين تجاه الاقتطاع مـن الاصل ، وقد تحدد هذا الموقف في مرحلتين ، ففي الاولى عند انتصار الثورة ، وحتى سنة 1920، وتحت ضغط الجناح النقابي، وقع الاتفاق على تطبيق الاقتطاع من الاصل على أساس توسيع نفوذ النقابات السوفياتية، وربط الجماهير بعجلة الثورة ، ولكن بعد ثلاث سنوات من هذه الممارسة اتضح ان الاقتطاع في الاصل هو من أنجح الوسائل لتشجيع البيروقراطية وفصل القيادة النقابية عـن جماهيرها . وقد أدت هذه التجربة الى التراجع عن الاقتطاع ، وبدأت النقابات حتى في ظل الاشتراكية ، وفي نظام الحزب الوحيد ، تعمل لتستحق الانخراط الطوعي للعمال . وهذا كله يظهر لنا أن الاقتطاع من الاصل ، ليس فقط تقنية تنظيمية يمكن ادراجها في اي تجربة نقابية ، ولكنها ذات مدلـول وأبعـاد

سياسية وايديولوجية ، وبالتالي فانها زيادة على ذلك جزء من كل . واذا رجعنا الى التجارب الحالية ، فاننا نجد هذه الممارسة قد وسعت نفوذ البرجوازية داخل الحركات النقابية في كل من المانيا الغربية وانجلترا وهولندا والولايات المتحدة ، فهي اذن تعني في أغلب الحالات المس بالتنظيم المستقل للطبقة العاملة ، وفتح امكانيات التسرب السياسي والايديولوجي للبرجوازية . وهذه هي بالضبط الوظيفة التي تقوم بها عملية الاقتطاع من الاصل في الشروط المغربية ، حتى وان كانت لا تطبق الا في قطاع واحد ، فانها اكتسبت في الشروط المغربية ، ولاسبابتنظيمية وتاريخية ، اهمية كبرى وذلك بالمكانة التي تحتلها الجامعة الوطنية للطاقة داخل التنظيمات النقابية العامة .

3) **البــرص ،** Bourses ان منح البرص هو أيضا من الوسائل التي ادت الى افساد الحركة النقابية في بلادنا ، وبالذات في الشروط الغربية . ومن اللازم لتبين هذا الامر ان نرجع الى مقارنة مع الشـروط الاجنبيــة ، الفرنسية منها على الخصوص . وهنا يجب التذكير بان برص الشغل أول ما نشأت في أواخر القرن التاسع عشر ، وعلى الخصوص انطلاقا من سنوات 1880 ، كانت ثمرة المجهودات المستقلة للتنظيمات العمالية التي كانت قد أخذت تخرج من أزمتها بعد هزيمة الانتفاضة العمالية لكمونة باريس .

وبرص الشغل ، التي وقع انشاؤها بفضل الجانب الايجابي من العمل الذى بدأ يتوم به التيار الفوضوى داخل الحركة العمالية ، كـانت اطـارا للتثقيف والتكوين العمالي ، كما كانت عنصرا من عناصر التضامن . وقـد تمكنت حركة البرص مع نموها ان تفرض على كثير من المجالس البلدية ، وخاصة منها المجالس البلدية التي كان الاشتراكيون يكونون فيها الاغلبية تمويل بناء برص الشغل . وقد تكونت بعد ذلك الحركة العماليــة للبـرص بتحالفها في سنة 1895 مع التنظيمات العمالية المهنية التي كانت قد أسستها الحركة الاشتراكية تحت قيادة (جيل كيد) مما ادى الى تكوين الكونفدرالية العامة للشغل . وبعد هذا التاريخ ، ومع ظهور نقابات أخرى في فرنسا ، لـم تعد برص الشغل بناية في قبضة نقابة ما ، أو امتيازا لنقابة من النقابات ، ولكنها أضحت مؤسسة عمالية ، يسيرها مجلس من العمال منتخب بطريقة ديمقراطية من طرف الجماهير العمالية لمدينة من المدن ، ومن ثم تتمكن كل النقابات حسب تمثيلها من تنظيم اجتماعات داخل البرص . ووضع كهـذا يدفع بكل التنظيمات النقابية لتعتمد على بناياتها الخاصة بجانب بـرص الشغل ، وبالتالي على امكانياتها الذاتية ونفوذها الخاص داخـل الجماهير العمــاليــة .

اما بالنسبة للمغرب ، فاننا نجد برص الشغل ومـا يصاحبهـا مـن امكانيات العمل البيروقراطي المحض ، كالهاتف الخ ... توجد في يد نقابــة

موالحدة هي الاتحاد المغربي للشغل . وحالة كهذه يجب أن ينظر اليها بشيء من المرونة ، ومن زاوية تطورية . ففي بداية الاستقلال كانت سيطرة الاتحاد المغربي للشغل على برص الشغل الموجودة وبناء برص أخرى في الدار البيضاء وفاس ، أو احتلال برص أخرى بالنسبة لمراكش ، وكان كل هذا نتيجة النضال الوطني ، وميزان القوى السياسي في بداية الاستقلال . وبالفعل ففي هذه الفترة كانت برص الشغل قد اعطت امكانيات جديدة ليس فقط بالنسبة للحركة العمالية ولكن أيضا بالنسبة لحركة التحرر الوطني قاطبة . ويجب الا ننسى هنا أن برص الشغل كانت في المرحلة الاولى للاستقلال ، عباره عن مأوى تلجأ اليه الافكار التقدمية ويحتمي به المناضلون التقدميون . وقد لعبت الحركة النقابية بامكانياتها هذه دورا ايجابيا وحاسما في تطوير حركة التحرر الوطني ، وفي ابراز جناح تقدمي مستقل داخلها .

ولكن بعد سنة ١٩٦١ ، ومع التغييرات التي لحقت الحركة النقابية من انحراف في خطتها ، الشيء الذي أدى الى اضعاف الديمقراطية داخلها وتقلص نفوذها وتهميشها على الساحة الوطنية ، تحولت برص الشغل من قواعد لانطلاق الفكر التقدمي والنضال العمالي الى ابراج عاجية تنغلق فيها البيروقراطية على نفسها ، وبالتالي فقد أصبحت برص الشغل بالنسبة للجهاز النقابي وسيلة حيوية للاستمرار كحركة مطلبية ، مما ساعد على تضاعف تأثير السلطات الحاكمة على هذا الجهاز عن طريق البرص . وأمام هذه الوضعية لا يصح الرجوع الى الشعار الرجعي الذي كان قد لوح به الحكم ، باتصال مع النقابات الصورية ، وهو القائل باقتسام برص الشغل بين النقابات الموجودة بصرف النظر عن تمثيلها ، لان المشكل بالنسبة للمناضلين التقدميين هو اقامة الربط بين النضال العمالي وبين برص الشغل كما أدى هذا الكفاح وكقاعدة يتكون فيها فكر تقدمي وفي آخر التحليل كوسيلة لادماج الحركة النقابية في خضم المعارك التي تخوضها الجماهير الشعبية قاطبة داخل حركة التحرر الشعبية . وهذا المشكل لن يحل بطريقة اصدار قرارات ادارية ولا عن طريق اتفاقات فوقية ولكن السبيل الوحيد لحسمه هو النضال من أجل تجاوز الممارسات الانتهازية والتعامل الطبقي . وفي هذا الصدد فان نشوء النقابات الوطنية مع ارتباطها بحركات التحرر الوطني قد خلق مسلسلا سيؤدى الى هذا التجاوز والى اعادة الوحدة في صفوف الطبقة العاملة والثقة في امكانياتها النضالية .

ان المغزى العميق لعملية التجاوز وما تحمله من أفق نضالي واسع بالنسبة للطبقة العاملة ولجماهيرنا سيظهر جليا اذا تطرقنا الى التطور التاريخي للحركة النقابية في المغرب .

2 ـ التطور التاريخي للحركة النقابية في المغرب

لقد خصصنا الباب الاول لعرضنا هذا لابراز بعض مميزات الحركة النقابية ولنضال الطبقة العاملة في المغرب كما حاولنا التركيز على بعض القوانين التي نعتقد أنها تتحكم في هذا التطور . وفي الباب الثاني سنحاول من خلال التحدث عن التاريخ الملموس لهذه الحركة تتبع كيف ان هذه القوانين ، وهذه الخصوصيات ، برزت وفرضت نفسها .

1) المرحلة الاولى : نشاط الحركة النقابية مرحلة الصراع بين الارستقراطية العمالية والاتجاه الوطني .

ان نشأة كل حركة عمالية نقابية أو سياسية تقتضي توفير شروط موضوعية وذاتية في نفس الوقت ، فالشروط الموضوعية تتلخص في وجود نمط من الانتاج يرتكز على الفصل بين المنتج ووسائل الانتاج ، الشيء الذي يؤدي بالمنتج من أجل تجديد شروط عيشه الى بيع قوة عمله ، ولا يتأتى ذلك الا في اطار الانتاج الراسمالي . ومن المعلوم ان هذا النمط من الانتاج لم يعرفه المغرب الا مع دخول الاستعمار الى بلادنا ابتداء من سنة 1912 .

اما الشروط الذاتية التي طبعت الحركة النقابية في المغرب فانها تتمثل في رصيد من تقاليد التنظيم النقابي الاوروبي ، وخاصة منه الفرنسي . لقد نشأت الحركة النقابية بالمغرب أول مرة بواسطة العمال الاجانب ، وخاصة منهم الفرنسيين في اطار المنظمة الاساسية النقابية في فرنسا وهي س. ج. ت. اذ تأسس في سنة 1930 ، وبحضور ل. جوهو ، الكاتب العام لـ س ج ت ، فرع بالمغرب لهذه المنظمة ، ضم في بدايته ثمانية نقابات تنتمي اغلبيتها الى قطاع الوظيفة العمومية وقطاعات أخرى كالقطاع الخاص (صناعة التغذية ، الموانيء ، الخ ...) والمصالح ذات الامتياز . ولكن المهم في الامر هو أن هذه الحركة النقابية لم تكن مجرد استمرار جغرافي وتنظيمي لـ س. ج. ت. الفرنسية بل كانت تختلف عن هذه الاخيرة من ناحية القاعدة الاجتماعية التي تنظمها وكذا بالرجوع الى التوجيه السياسي الذي تبناه مؤتمر 1930 بالمغرب . فاغلبية العمال الفرنسيين والاجانب المتواجدين في بلادنا اذاك كانوا يشكلون ارستقراطية عمالية ، سواء بالنسبة للعمال الفرنسيين الموجودين في فرنسا او بالنسبة للنواة الاولى من العمال المغاربة ، اذ كانوا يتمتعون بعدة امتيازات تفسر ارتباطهم بالنظام الاستعماري كنظام . وقد ظهر ذلك من خلال الملتمسات الصادرة عن مؤتمرهم التأسيسي حيث ركزوا على ما أسموه « **بالدور الحضاري لفرنسا والمغرب** » وكذلك « **الدور الحضاري للعمال الاجانب** » بالنسبة للعمال المغاربة بالخصوص على مستوى التاطير في المهنة أو التاطير

النقابي . ومن المعلوم ان هذه الحركة النقابية ، رغم النضالات الواسعة التي قامت بها سنة 1936 بفضل المساهمة الفعالة للعمال المغاربة ، لم تطلب قط بتصفية التمييز الموجود بين العمال الاوروبيين والمغاربة على الخصوص في ميدان الاجور ، كما انها لم تطالب أيضا بتجربة تكوين النقابات ، بل كانت تركز على ضرورة اعطاء الحق النقابي على مستوى فردي أي الحق لكل عامل مغربي بالانضمام الى س. ج. ت. الفرنسية . وهذه المواقف ساعدت سلطات الحماية وأرباب المعامل في مخططهم القاضي برفض الحق النقابي المطلق للمغاربة (انشاء منظمات نقبية) ، ففي سنة 1930 لم تقر السلطات الاستعمارية إلا بحق العمال الاجانب في تكوين النقابات ، وفي سنة 1938 ، وبعد الاضراب المشهور الذي قام به الفوسفاطيون المغاربة في اليوسفية ، أصدرت هذه السلطات نفسها قوانين تقضي بمعاقبة أي عامل أجنبي ساعد أو حرض عاملا مغربيا على الدخول الى منظمة نقابية. وهذا ما كان يسمى «بالجنحة النقابية»

وقد دخلت في هذا الاطار سلطات الحماية ومنظمات ارباب المعامل في عملية تكوين تنظيمات مهنية تابعة لها على أسس قبلية تهدف الى صرف العمال للمغاربة (انشاء منظمات نقابية)، ففي سنة 1930 لم تقر السلطات الاستعمارية العمال المغاربة . والحقيقة أن العمال المغاربة اتجهوا الى العمل النقابي والى التنظيم العمالي بواسطة نضالهم ضد شروط العمل القاسية ، وضد التمييز في الاجور ، وضد الحيف النقابي . ولهذا كان التقاؤهم طبيعيا مع الحركة الوطنية التي كانت أول حركة طالبت في سنة 1934 في اطار « مطالب الشعب المغربي » ، بحق العمال المغاربة في تكوين نقابي موحد . وفي سنة 1936 ظهرت موجة واسعة من الانخراطات النقابية داخل س. ج. ت. من طرف العمال المغاربة ، ابان النضالات النقابية التي انطلقت من معمل كوسيمار COSUMAR في الدار البيضاء لتصل الى أغلبية القطاعات الاقتصادية كمناجم الفوسفاط في خريبكة ومناجم جرادة . وهكذا أصبحت هذه المنظمة تضم في سنة 1930 أكثر من 20.000 عضو مغربي وتتسع الى عشر اتحادات محلية وتضم 97 منظمة نقابية . وفي سنة 1938 ، اذا اقتصرنا فقط على النقابات الفوسفاطية ، فاننا نلاحظ أنها تضم 2.000 عضو مغربي . وفي نفس الوقت بدأت س. ج. ت. تولي بعض الاهتمام الى تكوين الاطر النقابية المغربية وكانت هذه التطورات بالفعل هي التي حولت س. ج. ت. من منظمة فرنسية لا علاقة لها بالواقع المغربي ، تضم منخرطين قلائل ، الى منظمة واسعة النفوذ تتمكن من الضغط بفاعلية على السلطات وأرباب المعامل . ولكن هذه التطورات لم تغير في نفس الوقت شيئا من مواقف النقابة ومن التوجيه السياسي للارستقراطية العمالية ، وهذا ما يفسر النجاح السياسي الذي كان عمل الحركة الوطنية في صفوف الطبقة العاملة المغربية ، حينما أصدرت

الكتلة الوطنية سنة 1936 كتيبا حول نضالات العمال المغاربة ، وكان الحزب الوطني سنة 1937 هو أول هيئة تقدم على تكوين منظمة نقابية مغربية صرفة.

والخلاصة اننا نجد في سنة 1938 ، أى قبل سنوات قليلة من الحرب العالمية الثانية حركة عمالية مغربية في حالة تحول ، تحت ضغط تناقضاتها الداخلية ، وعلى الخصوص من جراء الصراع المتواجد داخلها بين اتجاه استعمارى أو شبه استعماري تقوده الارستقراطية العمالية ، التي كانت ، رغم تعاطفها العلني مع الاشتراكية ، تعمل موضوعيا على تحريك العمال المغاربة في اتجاه يقبل بالنظام الاستعماري الضروري لاستمرار امتيازات هذه الارستقراطية ، ولكن النضال الخاص بهذه الطبقة العاملة المغربية داخل النضال الوطني خلق اتجاها ثانيا يريد أن يجعل من الحركة النقابية عنصرا من العناصر التي تساهم في انعتاق الشعب المغربي وتحرره وكانت لا ترى حلا للمشاكل التي يعاني منها العمال المغاربة من حيف في الاجور الا في اطار انهاء الاستعمار . ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية وما واكبها من تحولات سياسية على الصعيدين المغربي والدولي ، عرفت الحركة النقابية نفسها تغيرات سياسية وتنظيمية ظهرت مع بروز س. ج. ت. الفرنسية ، وفي شكل جديد ابتداء من سنة 1943 ، تحت اسم الاتحاد العام للتنظيمات النقابية المتحدة بالمغرب .

والمعطيات الجديدة التي ظهرت داخل الحركة النقابية لبزوغ هذا التنظيم هي سياسية وتنظيمية ونقابية .

فعلى الصعيد السياسي كانت ، خلافا لما كان عليه فرع س. ج. ت. قبل الحرب العالمية الثانية ، تسيرها اغلبية من العناصر الشيوعية ، وقد حاولت ادخال بعض التغييرات على الخطة السياسية التي كانت قد تبنتها س. ج. ت. بالمغرب سلفا ، ولكنها تغييرات في مجملها شكلية ، وهكذا بدأت تنادي بضرورة الاعتراف بحقوق الامة المغربية وبالمساواة بين الامتين المغربية والفرنسية ، كما انها كانت تدعو الى التضامن المشترك بين الشعبين المغربي والفرنسي من أجل انعتاقهما من سيطرة الراسمالية المستغلة ولكن هذه الخطة وفي نفس الوقت بقيت منافية لاستقلال المغرب ، انها كانت تعتمد على فكرة خلق وحدة جغرافية وسياسية واسعة هي الاتحاد الفرنسي ، على أساس انه داخل هذا الاتحاد ستكون العلاقات بين الامم مطبوعة بروح المساواة في ظل نظام تقدمي ، وفي هذا المضمار سيكون النضال المشترك للشعبين المغربي والفرنسي وسيلة لتحقيق هذا الهدف . وبالطبع كانت هذه الخطة السياسية مغلفة بشعارات الاممية والتضامن البروليتاري ، في الوقت الذي تنظر فيه الاشتراكية العلمية الى استقلال الشعوب كاساس لكل تضامن أممي .

وعلى الصعيد النقابي ، تخلت عن الدفاع عن سياسة التمييز في

الاجور بين العمال المغاربة والعمال الفرنسيين واصبحت ترفع شعار « أجرة واحدة لنفس العمل » ، وفي هذا الاطار قامت في سنة 1944 حتى غاية 1947 بنضالات واسعة اكسبتها انخراطات عديدة من طرف العمال المغاربة نتيجة غلاء المعيشة والمطالبة بالزيادات في الاجور . وقد تمكنت بالفعل من الحصول على زيادة مهمة في الاجور تقدر بـ 45 في المائة في سنة 1945 ، وبـ ٪ 25 في غشت 1946 ، و ٪ 10 سنة 1947 .

اما على **الصعيد التنظيمي** ، فانها شجعت دخول العمال المغاربة في العمل النقابي ، واعطتهم مسؤولية حتى على مستوى القيادة ، ولكنها في نفس الوقت استمرت بطريقة أو باخرى تكافح ضد تكوين منظمة نقابية وطنية وتعتبر هذا العمل تقسيما للطبقة العاملة .

ورغم هذا النشاط ، وكذا النتائج المحرز عليها ، فان UGSCM كانت بمثابة منظمة تسعى الى ادماج العمال المغاربة في اطار غير وطني ، وهي بعملها هذا كانت موضوعيا تقف في صف مخالف لصف حركة التحرر الوطني التي انبثقت في شكل جديد انطلاقا من سنة 1944 وهو حزب الاستقلال الذي استمر في عمله وسط الطبقة العاملة من أجل اذكاء وعي وطني وتوسيع نفوذ النقابات الوطنية السرية . وأمام النجاح الذي كانت تلقاه ، وامام وقوف سلطات الحماية بجانب المنظمة النقابية المؤطرة من طرف الفرنسيين ومن جراء استمرار الحماية في رفض الحق النقابي المطلق للمغاربة قرر حزب الاستقلال ابتداء من سنة 1947 دفع نقاباته للانخراط الجماعي داخل س. ج. ت. وما مرت سنتان حتى احرز النقابيون الوطنيون بفضل خطهم الصحيح ، المبني على اعطاء الاولوية للنضال الوطني والسياسي ، على الاغلبية داخل س. ج. ت.

وفي سنة 1951 توصل المؤتمرون الوطنيون ، في المؤتمر الرابع لـ س. ج. ت. الى فرض المصادقة على ملتمس يقرر فيه المؤتمر تكوين منظمة نقابية مغربية مفتوحة لجميع العمال ومستقلة تمام الاستقلال عن س. ج. ت. الفرنسية ، على أساس ان هذه المنظمة ستكون الاداة المثلى لمساهمة فعالة للطبقة العاملة بجانب الجماهير المغربية الاخرى في النضال من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، وكان هذا الملتمس هو اللبنة الاولى التي ستؤدي الى تكوين الاتحاد المغربي للشغل .

ميلاد الاتحاد المغربي للشغل وفترة التعاون بين حركة التحرر الوطني والحركة العمالية

ان الاتحاد المغربي للشغل جاء نتيجة مسلسلين متكاملين ، المسلسل

النقابي والمسلسل السياسي :

المسلسل النقابي : ونعني بذلك الصراع بين الاطارات النقابية الوطنية من جهة ، وبين العناصر النقابية الفرنسية ، والعناصر الشيوعية المغربية التي كانت تساندها من جهة ثانية . وهذا الصراع في عمقه صراع بين العناصر التي كانت تريد أن تجعل من الحركة النقابية المغربية اداة للانعتاق الوطني الاجتماعي ، مرتكزة على انه لا حل للمشاكل النقابية بدون استقلال المغرب ، وبين العناصر التي كانت تريد أن تجعل من الحركة النقابية مجرد وسيلة للتعاون بين الطبقة العاملة المغربية والطبقة العاملة الفرنسية، وبالتالي تعتبر انه لا حل لمشاكل العمال المغاربة بدون تحرير الطبقة العاملة الفرنسية من سيطرة راس المال واستغلاله ، وبدون تكوين الاتحاد الذي كان على المغرب ان يندمج فيه كأمة مستقلة تتمتع بنفس الحقوق التي تتمتع بها الامم الاخرى التي تنتمي الى هذا التجمع . وقد اكتسى هذا الخلاف شكل صراع من أجل تكوين منظمة نقابية مستقلة عن س. ج. ت. وبعد نضال شاق تمكن النقابيون الوطنيون المغاربة ، في سنة 1951 ، من فرض بعض منهم في قيادة اتحاد النقابات الموحدة ، وهذه العناصر هي الطيب بن بوعزة والتباري ، وفي سنة 1952 ، استفادوا من الاغلبية الوطنية داخل المؤتمر ليجعلوا هذا (التجمع) يصادق على ملتمس يقرر تكوين منظمة نقابية مغربية مستقلة عن كل تاثير أجنبي ، وقد اضطر النقابيون الفرنسيون وحلفاؤهم الشيوعيون المغاربة الى مساندة هذا المطلب ، ولكن احداث دجنبر 1952 المعروفة ، والتي تلاها حل اتحاد النقابات الموحدة بالمغرب حالت دون تنفيذ المطلب ، ولهذا لم يتكون الاتحاد المغربي للشغل الا ثلاث سنوات بعد هذا الحدث ، وسنترك ظروف سياسية دقيقة بالغ الاثر على تكوينه .

ان الاتحاد المغربي للشغل هو ايضا نتيجة مسلسل سياسي . لقد تكونت المقاومة المغربية أول ما تكونت بشكلها المسلح في المدن المغربية ، وفي سنة 1955 كانت هذه المقاومة قد عرفت توسعا جعلها تسيطر في بعض المدن على بعض الاحياء الشعبية ، وبدأ قادتها يفكرون في توسيع المعارضة للنظام الاستعماري في البادية ، وكذلك في المدن بتنظيم الطبقة العاملة على الصعيد المهني ، وجعل هذا التنظيم ، حلقة من حلقات حركة التحرر الوطني، التي كانت تتكون اذاك من حركة المقاومة وجيش التحرير الذي بدأ ينظم بعض عملياته المسلحة. ولهذا فان الاتحاد المغربي للشغل كان في الحقيقة نقطة لقاء بين هذين المسلسلين ، اذ عندما خرج النقابيون من السجن بدأوا تنظيم الخطوات الاولى من أجل تكوين الاتحاد المغربي للشغل بتنسيق تام مع عناصر المقاومة ، وفي مارس 1955 ، وفي حي شعبي كانت تراقبه المقاومة وهو حي بوشنتوف ، وقع اجتماع المؤتمر التاسيسي للاتحاد المغربي

للشغل الذي كان يضم ممثلين عن 15 تنظيم نقابي مغربي .

ولهذا نرى أن الاتحاد المغربي للشغل في الحقيقة جاء نتيجة كفاح عام قامت به الجماهير المغربية داخل حركة التحرر الوطني ، من أجل الانعتاق السياسي ، فلم يكن الاتحاد المغربي للشغل عند نشوئه منظمة تدافع فقط عن المطالب المحدودة للطبقة العاملة المغربية ولكنها تساهم كعنصر أساسي في الكفاح من أجل تحرير الشعب المغربي أو بصفة أخرى ، كانت تدافع عن حقوق العمال عن طريق مساهمتها في النضالات العامة . ومن هنا جاءت ضرورة التعاون والتنسيق والالتحام بين الحركة النقابية والحركات الاخرى داخل حركة التحرر الوطني التي كانت اذاك تمثل في يسار حزب الاستقلال وجمعية المقاومة وجيش التحرير المغربي .

وانطلاقا من هذا المؤتمر كان من الضروري بالنسبة للحركة النقابية أن تستفيد استفادة كبيرة من تعاونها مع المقاومة المغربية ، حيث أنها كانت تضم بعد بضعة شهور من نشوئها ، أي في دجنبر 1955 ، ما لا يقل عن 300.000 عضو ، في الوقت الذي كانت توجه كل مجهوداتها لتكتسب في ذلك التاريخ 100.000 عضو . وبما انه كان عليها ، مع رجوع محمد الخامس والزعماء المنفيين ، ان تكمل تنظيماتها ، قبل أن يسترجع يمين حزب الاستقلال نفوذه ، فقد بدأت في كثير من الاحيان ، وبدون سابق تحضير ، وفي ظرف وجيز ، في بناء جامعاتها ، واتحاداتها المحلية . وهكذا أنشأت وفي بضعة شهور ما لا يقل عن 15 جامعة اضافة لجامعة السكك الحديدية ، تلك الجامعة الوحيدة التي وقع تكوينها قبل الاستقلال . وكان هذا العمل في الحقيقة لا يستجيب فقط لضرورات نقابية وتنظيمية محضة ، ولكنه يدخل ضمن الصراع العام بين العناصر التقدمية والوطنية المتمثلة اذاك في بعض العناصر من قيادة حزب الاستقلال ، كالمهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد ، وعناصر المقاومة ، وهو صراع يدور من أجل السيطرة على حزب الاستقلال من الداخل ، من أجل فرض تغييرات جذرية في السياسة الاجتماعية والاقتصادية للحكومات في عهد الاستقلال ، وفي هذا الاطار ، كان الاتحاد المغربي للشغل يرفع نفس الشعارات التي كانت العناصر اليسارية ، والجمعية المغربية لاعضاء المقاومة وجيش التحرير تدافع عنها . وهذه الشعارات تتلخص في سن ديمقراطية حقة بواسطة اجتماع مجلس تأسيسي لوضع دستور للبلاد ، واصلاح زراعي جذري ، وتطهير الادارة من الخونة والمتواطئين مع الاستعمار ، وتصفية القواعد الاجنبية في المغرب ، وكذا مساندة حركة التحرير الجزائرية . وكان هذا التنسيق بين الحركة النقابية وحركة المقاومة ويسار حزب الاستقلال يتخذ أشكالا أخرى :

أولا : ارتباط تنظيمي يبرز على الخصوص في وجود عناصر المقاومة داخل التنظيم النقابي وحتى على صعيد القيادة ، نخص هنا بالذكر ، الورزازي ، الجبلي . كما أن مقر الاتحاد المغربي للشغل الحالي في مراكش قدمته المقاومة وعناصر جيش التحرير في الجنوب الى الاتحاد م. للشغل في بداية الاستقلال . ولم تقتصر هذه الارتباطات التنظيمية على شكلها النقابي ، بل استمرت داخل حزب الاستقلال ، عن طريق المجلس الوطني لهذا الحزب ، وعلى الخصوص ، داخل اللجنة الوطنية لحزب الاستقلال ، حيث وقع التنسيق في القضايا الاساسية، وكان من أعضاء هذه اللجنة الوطنية، المهدي بن بركة، عبد الرحمن اليوسفي ، عبد الرحيم بوعبيد ، عبد الله ابراهيم ، المحجوب بن الصديق .

ثانيا : تنسيق فعلي ، حيث ان الأتحاد المغربي للشغل ، منذ سنة 1957، وعلى الخصوص بعد ما ظهرت مؤامرات لتصفية جيش التحرير وحركة المقاومة ، بدأ يدافع عن استمرار وجود جيش التحرير ، وعلى ضرورة بقاء الاسلحة في حوزته ، وقد أدى هذا الدفاع الى تكوين جيش تحرير الجنوب ، الذي دخل في نضال ضد الوجود الاسباني في مناطقنا الصحراوية التي لم تفز بالاستقلال اذاك .

كما أن الاتحاد المغربي للشغل ، في هذه الفترة ، وبتنسيق مع المنظمات الوطنية الاخرى والتقدمية ، نذكر منها على الخصوص الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ، والاتحاد الوطني للقوات الشعبية ، قام بكفاحات ومظاهرات واسعة ، على الخصوص من اجل مساندة الجزائر ، كما انه نظم اضرابات على الصعيد الوطني لمناطق البواخر المخصصة لحمل الجيوش الفرنسية من المغرب الى الجزائر .

وبالمقابل فان حركة المقاومة وجيش التحرير ، وعلى الخصوص العناصر التي احتلت مناصب في السلطة ، كعمال وقواد ممتازين وقواد ، ساعدت الاتحاد المغربي للشغل على اثبات تنظيماته على الخصوص ، في البادية المغربية ، وبالضبط في اوساط العمال الزراعيين والفلاحين المغاربة ، وكذلك في صفوف عمال المناجم بالنسبة للجنوب ، ونكتفي هنا بذكر الدور الذي لعبه العامل المكناسي .

نرى اذن في مجموع هذه الفترة عملا وحدويا أدى الى صهر الحركة النقابية داخل الحركة التقدمية المغربية ، المتمثلة على الخصوص في يسار حزب الاستقلال والمقاومة المغربية وجيش التحرير . وان هذه العناصر بالضبط هي التي مكنت بفضل ضغوطها وتواجدها في الحكم ، من أن تجعل الاتحاد المغربي للشغل يقاوم المحاولات الانشقاقية الرجعية التي كانت تريد النيل من وحدة الطبقة العاملة كمحاولة جوريو مثلا سنة 1956 .

وقد أدى هذا التحالف الى انتزاع مكاسب مهمة بالنسبة لحركة النقابية، على الصعيد التنظيمي ، والصعيد المطلبي ، فجاء ظهير 1957 حول النقابات يعترف بالحق النقابي للعمال المغاربة قاطبة ويحرم الاجانب من هذا الحق . كما ان ظهائر أخرى سنة 57 و 58 و 59 جاءت لتقرر في الاتفاقيات الجماعية ، وفي الضمان الاجتماعي ، وفي السلم المتحرك للاسعار ، والاجور . وعلى سبيل المثل ، اذا أخذنا القطاع الفلاحي ، نجد ان الاتحاد المغربي للشغل في بداية الاستقلال كان يملك نفوذا واسعا في البادية المغربية لا يمثل فحسب وجود جامعة متفرعة في كل أنحاء المغرب ، ولكنه فرض على المعمرين الفرنسيين ، ولاول مرة في تاريخ المغرب ، المصادقة على اتفاقيات جماعية في صالح عمالهم المغاربة . ووجود الاتفاقيات الجماعية في القطاع الفلاحي ظاهرة فريدة من نوعها حتى في الاقطار المتقدمة ، وما كان بالامكان الوصول الى هذه النتيجة لولا التعاون والتنسيق والمساندة ، المتبادلة بين الاتحاد م. للشغل ، والفصائل الاخري الطليعية في حركة التحرر الوطني ، ومثال آخر على هذا الاشعاع هو تكوين اتحاد وحدوي سنة 1958 يضم جميع فدراليات الوظيفة العمومية ، بما فيها جامعة الفلاحة وكان يضم ما لا يقل عن 13 جامعة وكان يرأسه اذاك المذكوري .ومثال أخير هو النفوذ والاحترام اللذان كان يساهم بهما الاتحاد المغربي للشغل على الصعيد الخارجي ، والمساهمة الفعالة التي كانت للمنظمة العمالية في توجيه سياسة مغربية ، حيث ان الكاتب العام والكاتب العام بالنيابة قد شاركا على التوالي في الوفود التي كانت تمثل المغرب ، في الامم المتحدة ، ودافع على التوالي عن قضية الجزائر وقضية فلسطين . وأمام هذا الاشعاع وهذا التواجد عمد الحكم الى نهج خطتيه :

1) **الخطة الاولى** : تقسيم الحركة النقابية ، وذلك بتشجيع تكوين نقابات مضادة للاتحاد المغربي للشغل في اكتوبر 1956 عن طريق هاشم أمين، ومحمد جوريو ، وفي سنة 1957 ، تشجيع تكوين رابطة التعليم ، وفي سنة 1960 تكوين الاتحاد العام للشغالين بالمغرب . ولكن هذه المحاولات لم تمس تمثيلية الاتحاد المغربي للشغل كما ظهر ذلك جليا في الاضراب الناجح الذي قام به الاتحاد المغربي للشغل يوم 20 مارس 1960 كرد فعل ضد تكوين الاتحاد العام للشغالين ، كما ان المواجهة القاسية التي بدأت تقوم بها السلطة من أجل تصفية التنظيمات النقابية في البادية ، لم تعط اي نتيجة .

2) **الخطة الثانية** : فك الارتباط بين حركة التحرر الوطني والحركة النقابية والضغط على الاتحاد م. للشغل من أجل ان يقتصر على العمل النقابي ، وهذا الضغط يأخذ في أغلب الاحيان شكل تهديد للحركة النقابية بانتزاع بعض الحقوق التي حصلت عليها بعد الاستقلال ، والتي كانت تساعدها في التسيير النقابي ، كالاعتمادات والبرص والانقطاعات ، وهذا

الضغط كان يمارس على الخصوص في أيام الازمة والصراع بين الحكم والحركة التحريرية التي يشملها يسار حزب الاستقلال : اكتوبر 1956 ـ 1958

وقد استمرت هذه السياسة الى غاية 1961 ، حيث ان التغييرات السياسية ، المتمثلة على الخصوص في عزل العناصر التقدمية الحكومية ، وبداية التراجعات عن مبادرة سياسة الاستقلال الوطني ، أدخلت الحركة النقابية ، ملتحمة مع حركة التحرر الوطني ، في نضالات واسعة ، فكان قرار الاضراب العام المتخذ من طرف الجامعة الوطنية للموظفين ، المنضوية تحت لواء الاتحاد المغربي للشغل ، وذلك من أجل تحقيق المطالب الاساسية التالية :

- الزيادة في الاجور
- الاعتراف بحق الأضراب بالنسبة للموظفين .
- اجتماع المجلس الاعلى للوظيفة العمومية .

وكان من المقرر أن يشن هذا الاضراب في 19 يونيه 1961 . وقد وقع تحضيره في جو من الحماس في كل من نقابات البريد ، والشؤون الخارجية ، والاشغال العمومية ، ووكالات توزيع الماء والكهرباء ، والاذاعة . ولكن الوعود التي أعطاها الحكم للاستجابة لبعض المطالب النقابية دفعت بالجهاز النقابي للتدخل من أجل تأجيل الاضراب الى دجنبر 1961 ، واستغل الحكم مهلة صيف تلك السنة للدخول في مفاوضات مع الجهاز النقابي ، وبالضغط عليه ، ملوحا بانه اذا لم يقع التراجع النهائي عن اضراب الموظفين سيتخذ اجراءات صارمة ، تتلخص بالاساس في ارجاع المنقطعين النقابيين الى عملهم ، وفي اشراك برص الشغل بين الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد العام للشغالين ، الذي وقع انشاؤه سنة 1960 ، والتراجع عن المنح والتسهيلات التي كانت تعطى للنقابة . وكان على القيادة النقابية ، في الحقيقة ، اما أن تختار الاستمرار في خطة النضال من أجل تصفية رواسب الاستعمار في بلادنا واستكمال تحرره ، أو تكتفي ببعض التسهيلات التي كانت تتمتع بها النقابة وبالتالي أن تقبل الخروج من صف التضامن مع الفصائل الاخرى لحركة التحرر الوطني . وقد اختار الجهاز النقابي هذه الخطة الأخيرة وضغط بكل امكانياته ونفوذه على الجامعات من أجل توقيف الاضراب الذي كان قد شنته بعض منها ، كالبريد ، والفلاحة ، والشؤون الخارجية ، ووقع توقيف الاضراب بدون أن يتحقق أي مطلب أساسي من المطالب التي نادت بها الحركة وبدون أن تتحرك قطاعات عمالية أخرى من أجل التضامن ، بل على العكس من ذلك ، اذ كان توقيف الاضراب بداية الاعلان عن تسريحات في عدد من الادارات ، وكان هذا الصراع هو المناسبة التاريخية الاولى للظهور العلني داخل الحركة الوطنية لتيار تقدمي يناضل ضد تراجع القيادة النقابية ، وضد فك الارتباط بين حركة التحرر الوطني والحركة النقابية ، وكان على

رأس هذا التيار الشهيد عمر بنجلون الذي لعب دورا أساسيا ليس فقط على الصعيد التنظيمي ، كقائد نقابي ، ولكن أيضا على مستوى التنظير .

مرحلة الجمود وتقلص النفـوذ النقـابـي

انطلاقا من سنة 1961 دخلت الحركة النقابية بارادة قيادتها فيما سمي بسياسة **الخبـز** ، وهي سياسة تريـد الفصـل بيـن النضال السيـاسي والنضال النقابي . وحتى بالنسبة للنضال النقابي فانهـا تعتمـد علـى الاضرابات المحدودة ، وعلى الحركات الخالية مـن المطالـب السياسيـة الاساسية ، هذه السياسة تعد ، في الحقيقة ، على مستوى العمل النقابي ، استقالة للحركة النقابية من مسؤولياتها الاساسية ، ودخولا في خطة تهدف الى تحييد الطبقة العاملة المغربية وتهميشها سياسيا ، بعد أن لعبت دورا حاسما في معركة الاستقلال السياسي، وهي في نهاية التحليل سياسة تهدف الى جعل العمل السياسي عملا تحتكره البورجوازية والطبقات الحاكمة الاخرى . ولهذا فان هذه السياسة ، رغم الشعارات البراقة التي كونت دائما غلافا لها ، تخدم في بلادنا وبطريقة موضوعية النفوذ الامبريالـي والرجعـي وتتنكـر للمبادىء الاساسية التي نشأت على أساسها حركة 20 مارس 1955 .

أدت هذه السياسة في الميدان النقابي الى تخريب التنظيمات والـى تفككها والى عزل المنظمات والاطر النقابية . فالتراجع عن النضالات الواسعة يعني ضمنيا التراجع عن التنسيق والتضامن ، وبالتالي اضمحلال التنظيمات التي تسعى الى هذا التنسيق والى التضامن وتوسيع الكفاحـات ، وهـي بالاساس الجامعات والنقابات الموحدة في القطاع الخاص . وهكذا لم تضمحل فقط الجامعات التابعة للوظيفة العمومية ، التي كانت تشكل سنـة 1961 اتحادا يضم 15 نقابة ، ولكن اضمحلت جامعات أخرى لعبت دورا أساسيا في تأسيس الحركة النقابية في بلادنا كجامعات المناجم والمحروقات وكـذا جامعات النسيج والمطاحن والسكر الخ ... ولم تبق في النهاية الا التنظيمات الصغيرة الضيقة المكونة على صعيد المعامل ، والتي لا تقوم الا باضرابات عفوية محدودة خارج كل برنامج نضالي مضبوط ومحكم . وفي الاخير تحولت الحركة النقابية المغربية ، التي كانت تعطى على صعيد افريقيا كمثال للتنظيم والوعي والالتزام ، الى بيروقراطية ثقيلة تربطها روابط واهية بوحدات نقابية ضيقة قاعدية . هذه الوضعية مكنت في السنوات الاخيرة هذه البيروقراطية من المناورة ، ومن مراقبة التنظيمات ، والاستمرار في سياستها القاضيـة بكبت الديمقراطية داخل التنظيمات ، ولكنها وفي نفس الوقت اضعفتها على الصعيد الوطني ودفعتها لتقديم تنازلات أخـرى الى القـوات الرجعيـة في بلادنا . وهذه النتائج يمكننا تلمسها من خلال بعض الارقام :

اذا أخذنا الارقام الرسمية أو شبه الرسمية ، التي تعطيها البورصة نفسها عن عدد المنخرطين داخل الاتحاد المغربي للشغل ، فاننا نلاحظ تقلصا في قاعدة المنظمة النقابية ، وهو تقلص تفاقمت حدته عبر السنين .

سنة	1957	نجد	600.000 عضو
»	1959	»	650.000 عضو
»	1960	»	600.000 عضو
»	1963	»	400.000 عضو
»	1965	»	300.000 عضو
»	1970	»	200.000 عضو
»	1975	»	200.000 عضو

وفي هذا العدد الاخير ادرجنا بالطبع المنخرطين داخل جامعة الطاقة الذي يقع تنقيبهم بواسطة الاقتطاع من الاصل .

اما فيما يخص تمثيلية الاتحاد المغربي للشغل على صعيد المعامل وبالخصوص في القطاع الخاص ومن خلال الانتخابات المهنية فاننا نجد نفس الظاهرة ، أي التقلص . فاذا أخذنا كمثال ، القطاع الخاص ، في مدينة الرباط، الذي كان ينتظم في سنة 70 ــ 72 في اغلبيته داخل الاتحاد المغربي للشغل فاننا سنجد تنظيمات نقابية أخرى صورية ، هدفها التشويش على العمل النقابي ، قد تمكنت من التسرب الى بعض المعامل ، بل حصلت أكثر من ذلك في بعض المؤسسات المهمة اما على الاغلبية أو على نصف التمثيل . ونخص هنا بالذكر معمل **لاصافط ، مكتب الابحاث والمساهمات المعدنية ، ومعمل فيلروك للنسيج ، ومعمل مطاحن الساحل** . الخ ... وقد فرضت هذه الظاهرة نفسها حتى على الذين تغنوا سنين متعددة بالنفوذ الواسع للجهاز النقابي داخل الطبقة العاملة وهذا ما ظهر من خلال بعض البيانات والافتتاحيات التي صدرت أخيرا في بعض أوساط اليسار المغربي .

اما على صعيد المكاتب النقابية فان هذه السياسة التي كانت تهدف الى الحفاظ على الخبز لم تتمكن حتى من بلوغ هذا الهدف البسيط . ان فصل النضال النقابي عن النضال السياسي التقدمي ، تسبب في ضياع كثير من المكتسبات النقابية التي كانت في الحقيقة ليس فقط نتيجة النضال الخاص للطبقة العاملة ، ولكنها نتيجة النضال العام الوطني والتقدمي ضد الامبريالية والرجعية الذي قام به الشعب المغربي داخل منظماته الجماهيرية . فعلى سبيل المثال ، لا يطبق ظهير 1959 الخاص بالسلم المتحرك للاسعار ، والاجور ، كما وقعت تراجعات عديدة عن الحق النقابي ، وعدد العمال المنضوين داخل المكتب الوطني للضمان الاجتماعي لا يتعدى ثلث العمال المغاربة . أما عدد العمال الذين تمكنوا من الانخراط في الصندوق المهني للتقاعد فانه لا يزيد

على ٪ 8 . وهنا لسنا في حاجة الى التعرض الى ظاهرة يعرفها الجميع وهي الزيادة المفرطة في المعيشة والنقص في القدرة الشرائية لجماهير العمال ضمن مسلسل التفقير الذي يعاني منه الشعب المغربي .

ومن الناحية السياسية تريد سياسة الخبز أن تتحاشى السياسة ، وفي الحقيقة هناك ممارسة سياسية تطابق سياسة الخبز وهي التي تخدم المصالح الرجعية والتي تعتمد على النضال ضد الحركة التقدمية داخل التنظيمات النقابية أو خارجها . اذن هناك تحول سياسي خطير داخل الحركة النقابية المغربية . وهناك تشتت للطبقة العاملة . وهذا التشتت وهذه التفرقة هما في الحقيقة نتيجة للنهج المعادي للطبقة العاملة الذي يسير عليه الجهاز البيروقراطي ، ونتيجة مسلسل آخر ، ذلك المسلسل الذي بدا بفك الارتباط بين حركة التحرر الوطني وانتهى بتفكك التنظيمات النقابية وتلاشيها .

والنقابات الوطنية التي ترتبط بحركة التحرر الوطني ، والتي تكونت في خضم النضال ضد البيروقراطية ومن اجل ممارسة ديمقراطية داخل التنظيمات النقابية وضد الرجعية وهيمنة المصالح الامبريالية في بلادنا ، تتوفر على شروط تجاوز تجربة الجهاز البيروقراطي الفاشل . ان مصاعب التجاوز كثيرة ويجب أن لا نتجاهلها وأن لا نستصغر اهميتها ، فهي لا تنتج فقط عن تصرفات الجهاز الحاكم ، ولكن عن العناصر الدوغمائية التي تكون في الوقت الراهن واجهة سياسية ونقابية للبيروقراطية .

علينا أن نساهم مساهمة فعالة ومتفائلة ومسؤولة داخل النقابات الوطنية . يجب أن نحافظ على استقلال هذه النقابات وأن نحترم طابعها الجماهيري وأن نجعل منها أداة للنضال الطبقي في بلادنا من أجل التحرر الوطني والقضاء على استغلال الانسان لاخيه الانسان .

« الاستقلال الفلسفي » : دعوة ايديولوجية

مصطفــى المسنــاوى

---

1 ــ لا بد ، في البداية ، من تحديد معنى كلمة « ايديولوجيــا » كمــا سنستعمله في الفقرات التالية ، وذلك منعا لكل التباس قد يحصل بين المعنى الذي نقصده وغيره من المعاني والتحديدات الكثيرة التي أعطيت للكلمــة ، والتي تصل أحيانا الى حد التعارض والتضارب .

ودون الدخول في نقاش أكاديمي مطول حول تلك التحديدات ، ولا حول نقط العلاقة والتباين الموجودة بين بعضها البعض ، نكتفي بهذا التعريف : **الايديولوجيا وعي زائف (خاطيء : مغلوط) عن الواقع ، وغير مطابق له ، بسبب حدود : شخصية ، طبقية ، مجتمعية ، أو تاريخية ، مجتمعة أو كلا منهــا علــى حــدة .**

هذا مع العلم بأن زيف الوعي في الايديولوجيا يكون **غير مدرك** من طرف صاحبها (أو أصحابها) ، والا فاننا ، كما قال انجلز ذات يوم « سوف لــن نكون بازاء عملية ايديولوجية » (1)

ومن الواضح أن هذا التحديد يتعارض بشكل يكاد يكون تامــا مــع التعريف « الاستعمالي » (أو « الاجرائي ») الذي أعطاه ناصيــف نصــار (صاحب الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي ») لنفس الكلمة حين قال انهــا « نظام من أفكار اجتماعية ، يرتبط بمصلحة جماعة معينة ، ويشكل اساسا لتحديد أو تبرير فاعايتها الاجتماعية ،في مرحلة تاريخية » (ص : 52) (2) . وهو أمر يفطن له ناصيف نصار نفسه حيث يرفض تعريفا مثل الذي اخترناه قائلا انه لا يمكن الاخذ به الا من طرف « نظرة تدعي أنها قبضت على أسرار الحياة الاجتماعية وحلت رموزها أو الغازها بصورة أساسيــة نهائيــة » ، ومبررا رفضه له بانه « اذا كانت غائية الفكر الايديولوجي منحرفة عن مطلب الحقيقة في ذاتها ، فذلك لا يعني أبدا فراغ الفكر الايديولوجي من كل حقيقة موضوعية » (ص : 56) .

غير أنه من الواضح أيضا أن تعارض التعريفين لا يعود الــى مجــرد « الاختلاف » بين وجهتي نظر شخصيتين أو فرديتين ، وانما هو يتعدى ذلك

الى اختلاف وتعارض بين وجهتي نظر اجتماعيتين عامتين عن الكون والمجتمع **والانســان** ».

ولكي نأخذ فكرة ، وان أولية ، عن طبيعة التعارض المذكور ، نتنــاول الجملتين الاخيرتين اللتين استشهدنا بهما من كتاب « الاستقلال الفلسفي »، فنلاحظ أن محتواهما المضمر هو كون حقيقة الوجود ، الاجتماعي التاريخي ، لا يملكها أحد ، وانها ملك مشاع بين كل الناس ، مع كل منهم جــزء منها ، وبذلك فلا يحق لاي كان الادعاء بحصوله على معرفة « مطابقة » للواقع ، ولا حق له ــ بالتالي ــ في اتهام غيره من الناس بزيف وعيهم عن الواقع أو بعدم مطابقتــه لــه .

والفكرة التي تكمن وراء ذلك ليست جديدة تماما ، وهي القول بانعدام أي « معيار » نتمكن به من معرفة « الحقيقة » حقيقة مطابقة أو عدم مطابقة الفكر للواقع الاجتماعي التاريخي المحدد بالزمان والمكــان .

هذه الفكرة وهذا المحتوى نعتبرهمــا غيــر صائبيــن لاسباب عــدة نكتفي منها هنا ــ ما دام النقاش في المجال المعرفي البحت ــ بواحد أساسي ، هو أنها تجزيئية ، لا تنظر الى الواقع في حركيته وشموله وتاريخيته ، فــلا تتمكن ، بذلك ، من النفاذ اليه وتمييز الثابت فيه عن المتحول : وحين ننظر ــ مثلا ــ الى النظريات والمذاهب الفلسفية ، خاصة ، والاتجاهات الفكرية الانسانية ، بصفة عامة ، لا على أنها منظومات أو انساق مترابطة العناصر والاجزاء ، مستقلة ذاتيا ، بمسلماتها ومنطلقاتها وأهدافها ونتائجها ، وتشكل، من حيث هي كل ، جوابا على سؤال محدد يطرحه واقع محدد ، فاننا نصل ، بطبيعة الحال ، الى أن كلا منها معه جزء من الحقيقة ، والى تبنــي نظــرة توفيقية ــ أو تلفيقية ــ تدعو الى تجميع « أجزاء » الحقيقة هــذه وتكويــن « حقيقة » شاملة ، تكون « خاصة » بنا في البداية ، ثم « عامة » لمن شاء أخذها منــا فيمــا بعــد .

واذ نعتبر وجهة النظر هذه غير صائبة ، فاننا نواجهها بأخرى تقول ان الجزم بمطابقة أو عدم مطابقة نظرية فلسفية أو نسق فلسفي ما للواقع أمــر ممكن من جهة ، وان تقرير ذلك لا يتم ، من جهة أخرى ، بالنظر الى عنصر أو جزء من تلك النظرية أو ذاك النسق ، معزولا عن النظرية او النسق ككل ، بل استنادا الى **كل** النظرية أو النسق ، الى منطلقاتها وأهدافها ــ الواعية وغير الواعية ــ واتجاهها العام ، ثم الى **نتائجها الاجتماعية ــ التاريخية** .

وامكان الجزم بمطابقة أو عدم مطابقة وعي أو فكرة ما للواقع يرتكز في وجهة النظر هذه على معيار واضح محدد ، هو **الممارسة** الاجتماعية التاريخية البشرية ، ثم هو مدى سعي هذا الوعي (أو الفكرة) الى ، وتمكنه (وتمكنها) من ، الاسهام في تغيير المجتمع البشري نحو الافضل .

هذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، أننا ندعي « القبض على أسرار الحياة الاجتماعية التاريخية » وحل رموزها أو ألغازها « بصورة أساسية نهائية » ، بل ان الامر على العكس من ذلك تماما : فما دام معيار التحقق ـ او التثبت ـ هو الممارسة الاجتماعية ـ التاريخية ، وما دامت هذه الممارسة في سيرورة دائمة ، فانه لا يمكن الزعم أبدا بالتوصل الى حقيقة مطلقة لا يبقى للمرء ما يعمله أمامها « سوى أن يقف مكتوف اليدين ، وأن يتأمل ، فاغر الفم ، الحقيقة المطلقة التي وصل اليها» (3) : بل ان الحقيقة هي دائما وأبدا نسبية، ومشروطة بمكان وزمان ظهورها ، وبسيرورة المعرفة البشرية . وهذه المعرفة النسبية ، منظورا اليها في بعدها التاريخي ، هـي التـي دأب الناس علـى تسميتها بـ « الحقيقة » .

واذا كان لنا ، بعد ذلك ، أن نتكلم عن « حقيقة » موضوعية ما ضمن « فكر ايديولوجي » ما ، فلربما كانت هي العوامل الاجتماعية ـ التاريخية ، التي تفسر لنا أسباب وجود هذا الفكر ، والتي يجد فيها ، بدوره ، مبرراته الخاصة به . الا أن ذلك ، كما يتضح مما أسلفناه ، ليس قط هو ما قصده ناصيف نصـار .

2 ـ هذا بخصوص كلمة « ايديولوجيا » كمفهوم عام ، كتصور ، لكن : ما المقصود بكلمة ايديولوجيا في قولنا ان الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي » هي « دعوة **ايديولوجية** » ؟

يمكن القول ، وانطلاقا من ذات التحديد العام ، أن المقصود بذلك هو أن الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي » هي اما جواب وهمي (مغلوط : زائف) على اشكالية حقيقية يطرحها الواقع الاجتماعي ـ التاريخي العربي ، واما جواب صحيح على اشكالية وهمية لا يطرحها قط ذلك الواقع . وبين الطرفين توجد امكانيات جواب أخرى ينسحب عليها تحديد الايديولوجيا (كأن يركز الجواب على اشكالية فرعية ويهمل الاشكالية الام) ، الا اننا سنقتصر على الطرفين المذكورين فقط ، باعتبارهما أهم شكل يمكن أن يتجلى فيه الجواب الايديولوجـي .

وما دام الامر كذلك ، فانه سوف لن يبقى علينا سوى الكشف عـن الاشكالية التي يتحرك ضمنها ناصيف نصار في دعوته المذكورة ، وملاحظة هل هي فعلا اشكالية حقيقية أم مجرد اشكالية وهمية ، ثم ـ ان كان الجواب انها حقيقية ـ تسجيل هل الجواب عليها (وهو « الاستقلال الفلسفـي ») جواب صحيح أم زائف .

غير ان اشكالا يطرح هنا وهو : كيف نستطيع القيـام بذلـك دون السقوط فيما نأخذه على ناصيف نصار ، أي دون السقوط في « الايديولوجيا » ؟ فنحن لسنا ذواتا معزولة عن السيرورة التاريخية وانما نحن منغمرون فيها ـ

مثلما هو ناصيف نصار ـ وبذلك سيكون من الصعب أن ننسلخ كلية عن « ايديولوجيا » ما ، ونقاش الايديولوجيا للايديولوجيا لا ينتج ـ كما نعلم ـ علما ولا معرفة ، وانما « ايديولوجيا » وحسب .

وربما أمكن القول هنا ان حل ذلك يكمن ، اساسا ، في المنهج الذي ينبغي السعي لمناقشة « الدعوة » من خلاله . ولعل هذا المنهج هو منهج ينسلخ ما أمكن عن مسلمات الارضية الاجتماعية ـ الفكرية التي يستند اليها ، في ذات الوقت الذي لا يبتعد فيه عنها ولا ينظر اليها الا كـ « خارج » . وبعبارة نقول ان المنهج الكفيل بتحقيق ذلك هو منهج ينظر الى التظاهرات الفكرية والفلسفية (وحتى الادبية ، الفنية ، ... الخ) من الداخل والخارج : الداخل والخارج لا كلحظتين معزولتين أو كخطوتين تلي احداهما الاخرى ، وانما كلحظتين أو كخطوتين تندمج الواحدة منهما في الاخرى (4) .

ولان العبرة هنا ليست بالمصطلحات والمفاهيم التي تبدو سهلة الصياغة وانما في تطبيقها العيني ما أمكن ، نحدد هنا فنقول ان هذا المنهج ممكن ـ في حالتنا الخاصة هذه ، كما في الحالات المماثلة لها (أي الساعية الى نقد الفكر أو الايديولوجيا) ـ اذا ما نحن بحثنا لا في « الدعوة الايديولوجية » المذكورة ، بل في الاساس المعرفي الذي تستند اليه .

وهو أمر لا بد ، لتحقيقه ، من اتباع الخطوات الثلاث التالية :

أ) خطوة نعيد فيها بناء النص الذي جاءت فيه « الدعوة » ، بحيث يصبح مرتبا ومتماسكا منطقيا . وذلك من خلال طرح عدد معين من الاسئلة والسعي للاجابة عليها من داخل النص نفسه . وتقوم هذه الخطوة على افتراض ان « المفكر الايديولوجي » يرتب نصه تبعا لمنطق خاص به ، يشتت مكوناته الاساسية ، كما يدفع بالغايات الحقيقية لكتابته الى الخلف ، ولا يسمح لها بالبروز الا كفلتات هنا وهناك .

ب) خطوة نسعى فيها للكشف عن الثغرات والتناقضات التي يتضمنها النص ـ وهي ليست بنية فردية على أي حال ـ ، بكل ثغراته ومتناقضاته .

ج) ثم خطوة نكشف فيها عن « البنية الذهنية » التي تنتظم مجمل النص ـ وهي ليست بنية فردية على أي حال ـ ، بكل ثغراته ومتناقضاته ، والتي تضفي عليه المعنى والدلالة . (5)

ومن الممكن أن نضيف خطوة رابعة فنسعى لعقد لقاء بين هذه « البنية الذهنية » وبين فئة اجتماعية ما ، الا أننا نفضل حاليا التركيز على الخطوات الثلاث الواردة أعلاه ، على أساس أنها ستمكننا ، وان في المجال المعرفي البحت ، من اثبات « نسبية » « الدعوة » وأنها ليست جوابا **لكل** المجتمع العربي على اشكالية حقيقية . وهنا لن يصبح اللجوء الى الخطوة الرابعة الا نوعا من المزايدة التي قد تسقط المرء فيما يخشاه هو نفسه ، أي في

« الايديولوجيا » .

3 ـ ونبدأ بالخطوة الاولى ، فنطرح ثلاثة أسئلة محددة ، ونسعى لايجاد جواب عليها من داخل نص كتاب « طريق الاستقلال الفلسفي » ذاته ، وهي أسئلة يمكن ايجازها ، تحديدا ، كما يلي :

- ما المقصود بـ « الاستقلال الفلسفي » ؟
- لماذا هذا « الاستقلال الفلسفي » ؟
- كيف يتم هذا « الاستقلال » ؟

3 ، I ـ يعرف ناصيف نصار « الاستقلال الفلسفي » سلبا فيقول :

« الاستقلال الفلسفي ليس رفضا لتاريخ الفلسفة ، ولكنه رفض للتبعية المذهبية الاغترابية واستيعاب نقدي للافكار والنظريات التي تكونت تباعا فيه » (ص. II) . ثم يمزج ، في مكان آخر ، بين السلب والايجاب في التعريف ، فيضيف :

« الاستقلال الذي نقصده ليس بالطبع انطواء على الذات وانقطاعا عن الغير واكتفاء بالنفس استقلال من هذا النوع في هذا العصر يعني الانتحار ، وانما المقصود هو الاستقلال السليم الذي يقوم على الانفتاح والتفاعل الدائم والمشاركة الايجابية ، لكن انطلاقا من الذات ، والاستقلال في الفلسفة يعني عندنا تقبل النظريات الفلسفية ، أيا كان عصرها ، بالنقد المنطقي والسوسيولوجي ، وهضم عناصرها الصالحة وتحويلها في عملية ابداعية أصيلة ، انطلاقا من الوعي بدور الفعل الفلسفي في الواقع الثقافي المجتمعي المتعين في الزمان والمكان » (ص. 36) ثم يعود في مكان ثالث ، فيتوسع في التعريف ، متعرضا للاستقلال في معناه العام ، قبل المعنى الخاص لـ « الاستقلال الفلسفي » ، فيقول : « الاستقلال لا يعني الانعزال ، ولا يؤدي اليه بالضرورة . انه يتميز سلبيا برفض التبعية والخضوع والاتكالية ، ويتميز ايجابيا بالحرية والسيادة والمسؤولية . الاستقلال الحقيقي موقف وحركة ، موقف تجاه الغير ، وحركة بين الذات والغير . اذن ، العلاقة مع الغير من مقومات الاستقلال الاساسية ، اذا بطلت بطل ، فكان الانعزال ، والانعزال في الحياة اختناق وموت . ان الاستقلال الحقيقي يستلزم التفاعل ، والتفاعل يعني احتفاظ الاطراف المعنية بكيانها الخاص ، لكن على أساس مبدأ التغير الذي يعني تحول الشيء الى غير ما هو بسبب علاقته مع ما هو غيره ، انه التعبير التام عن جدلية العينية والغيرية ، ولذلك يتداخل مع فعل المشاركة وفعل الابداع . فالاستقلال يقتضي المشاركة والابداع ، والمشاركة تقتضي الاستقلال والابداع ، والابداع لا يكون دون استقلال ومشاركة. والابداع كما نفهمه هو الايجاد دون مثال معين . فاذا تقيد فعل الايجاد بمثال ، كان تقليدا . والتقليد شكل من أشكال التبعية . ومن هنا يتبين لنا أن

الاستقلال الحقيقي ، من حيث هو موقف وحركة ، يتناسب تناسبا طرديا مع المشاركة والابداع .

اذا كان هذا هو الاستقلال الحقيقي بمعناه العام ، فما هو معنى الاستقلال الفلسفي أو الاستقلال في الفلسفة ؟ الجواب على هذا السؤال يتطلب تحديد الغير الذي ينبغي أن يتم التفاعل معه ، ومن ثم الشروط الخاصة بالتفاعل معه . فالغير الذي نعنيه هو تاريخ الفكر الفلسفي بالمعنى الواسع ، أي التفكير العقلي النظامي في الوجود والمعرفة والعمل ، في اطار حضارات ثلاث هي ، الحضارة اليونانية والحضارة العربية الاسلامية والحضارة الاوروبية الحديثة والمعاصرة » (274 ـ 275) .

ومن كل هذا نستنتج أن ما يعنيه ناصيف نصار بـ « الاستقلال الفلسفي » هو موقف معين من ما يسميه بـ « تاريخ الفلسفة » ـ بمعناه العام الواسع ـ يقوم في الموقف النقدي من هذا الاخير استنادا الى الحاجات الاجتماعية ـ التاريخية الخاصة ، المحددة في الزمان .

ونكتفي الآن بتسجيل هذا الرد على سؤالنا الاول ، مؤجلين نقاشه الى ما بعد تسجيلنا الردين الاخيرين على سؤالينا المتبقيين .

3 ، 2 ـ أما عن أسباب الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي » فيمكن لنا تلمسها من خلال الفقرات التالية :

● « ان النهضة الحضارية التي تسعى المجتمعات العربية الى تحقيقها لا تكون متينة البنيان الا اذا تأسست على استقلال فلسفي ، ولا شيء يمنعها من تحقيق هذا الاستقلال ، اذا ارادت وعرفت الطريق » (ص : 13)

● « نستنتج اذن أن التفهم العميق لمشكلة الحضارة في العالم العربي المعاصر يكشف عن حاجة الانسان العربي الى فلسفة جديدة في العمل ، وعن ضرورة الوقوف موقف الاستقلال من النظريات التي أنتجها تاريخ الفلسفة في العصور القديمة والحديثة » (ص : 35) .

● « ان المحور العام في تقدير ما يعتبر به (الفيلسوف العربي) هو حاجة الحركة التاريخية الثورية التي تفعل باشكال وأنماط مختلفة في حياة جميع الشعوب العربية والتي تهدف ، ان لم يكن الى التفوق التاريخي الحضاري ، فعلى الاقل الى اكتمال الشخصية الحضارية الجديدة التي تشمل جميع الشعوب العربية والى المشاركة الفعالة في مسيرة الحضارة العالمية التي هي في طريق التكوين والظهور » (ص : 272) .

وكما يظهر فهي أسباب يمكن اجمالها في أن ما دعا ناصيف نصار للمطالبة بـ ، أو الدعوة الى ، « استقلال فلسفي » هو اشكالية قائمة في الواقع العربي اسمها : اشكالية « الحضارة » أو كيف يصبح الانسان العربي متحضرا ؟ أو ـ بحسب تعبير ناصيف نصار نفسه ـ كيف يصبح

متفوقا حضاريا ؟ وكيف يستطيع تحقيق الاكتمال لشخصيته الحضارية الجديدة ؟ وكيف يتمكن من « المشاركة الفعالة في مسيرة الحضارة العالمية التي هي في طريق التكوين والظهور » ؟ .

3 ، 3 ـ والسؤال الثالث والاخير هو : كيف يمكن تحقيق هذا « الاستقلال الفلسفي » ؟ وينقسم جواب ناصيف نصار على هذا السؤال الى شقين : شق نظري عام ، وشق عملي تطبيقي .
في الشق الاول ، يضع لتحقيق الاستقلال شروطا خمسة نوجزها فيما يلي :
أ) « رفض الانتماء الى أي مذهب فلسفي ، مهما كانت منزلته في تاريخ الفكر الانساني ، من حيث أنه غير نابع من داخل الوضعية الحضارية العربية الجديدة » (ص : 276) .
ب) « تعيين المشكلة الرئيسية وتحديد طريقة معالجتها في علاقاتها مع مشكلات رئيسية أخرى ومع المشكلات الفرعية التي تقع تحتها » (ص: 279) .
ج) « النقد . (ص : 280) .
د) « ضرورة استيعاب كل العناصر التي تقدمها كل المصادر المتصلة بالمشكلة المطروحة للبحث » (ص : 282 و 283) .
هـ) « ضرورة الاستعداد الدائم للمراجعة والنقد الذاتي » (ص : 283) .
أما في الشق الثاني ، فيقوم بتطبيق فهمه لـ « الاستقلال الفلسفي » ، مستندا الى هذه الشروط الخمسة ، على اعمال كل من يوسف كرم وزكي نجيب محمود ، في البداية ، مدينا « تبعيتهما لتاريخ الفلسفة الوسيطة والحديثة » ، وبالضبط لكل من « الارسطوطالية التوماوية » و « الوضعية المنطقية » ، ثم مستنتجا أن « التأليف الفلسفي » هو نتاج مرتبط شديد ارتباط بتاريخ الفلسفة ، وضعيف التجاوب « مع حاجات التاريخ المجتمعي والحضاري الحي » ، ولذلك ينبغي البحث عن مجال آخر « يشكل دخولنا فيه اعلانا عن ارتفاع الثقافة العربية الى مستوى العقل الفلسفي » (ص : 48) ، وليس هذا المجال شيئا آخر غير ذاك الذي عبرت فيه « الثقافة العربية الحية » عن « نزوعها » الى الفكر الفلسفي ، الا وهو ميدان « التأليف الايديولوجي الذي تكون منذ بداية عصر النهضة حتى اليوم ، والذي بلغ في أواسط هذا القرن مرتبة جيدة من الانتظام المذهبي والعمق والفعالية » (ص : 48) ، وبطبيعة الحال ، فان سبب اختيار ناصيف نصار للفكر الايديولوجي هو بالضبط ما افتقده في مجال التأليف الفلسفي ، اي « لان الفكر الايديولوجي يعبر اجمالا عن مشكلات التاريخ الاجتماعي الحي بصورة عينية مباشرة ، ولانه يعتبر في بعض الاوساط الثقافية السياسية مغنيا عن الفلسفة ، أو يعتبر هو اياها ، بشكل أو بآخر ، على نقيض ما تذهب اليه بعض المدارس

الفلسفية حيث تقول بأن الفلسفة شيء منفصل تماما عن الفكر الايديولوجي » ص ص : 254 – 255) .

وبسبب تشعب واتساع مجال التاليف الايديولوجي « العربي » يتساءل ناصيف نصار : « هل ندرس المضمون الفلسفي لكل محور من محاور الفكر العربي التحديثي ، أي القومية والليبرالية والاشتراكية ، عبر مراحل النهضة الثلاث ، ثم نعود ونركب النتائج لنحصل على الاساس الفلسفي العام للايديولوجية العربية الثورية ؟ أم ندرس كل مرحلة على حدة ونحلل معطياتها الايديولوجية كتيار واحد شامل ؟ . ثم يجيب : « والحق أن الطريقتين ممكنتان . الا اننا نرى الثانية أقرب الى التوافق مع التطور الموضوعي للفكر العربي التحديثي ، نظرا للتغيرات المجتمعية العميقة التي حصلت في العالم العربي كله بين الحربين العالميتين وبعد نكبة فلسطين الاولى ، وللتداخل الذي أشرنا اليه بين اتجاهات الفكر العربي التحديثي نفسه » (ص : 93) .

« لكن ، هنا (أيضا) تبرز صعوبات جديدة تتعلق بتصنيف الكتابات الواجب اعتبارها وطريقة تفسيرها . وفي الواقع ، لا يوجد منهج واحد موحد لحل هذه الصعوبات ، لذلك ، ولما كان هذا البحث يهدف الى أن يكون بحثا للدلالة والاعتبار ، لا بحثا محيطا كاملا ، ولما كان المحور الرئيسي الشامل حركة المجتمعات العربية هوا محور التحرر والبناء القومي ، سنقصر تحليلنا على كتابات اثنين من أبرز المفكرين العقائديين المعاصرين الذين عبروا بوضوح عن ادراكهم لضرورة الفلسفة وحاولوا أن يتفلسفوا ، بقدر ما تيسر لهم أن يفعلوا وهم في صميم معركة البعث والتحديث . هذان المفكران هما أنطون سعاده وزكي الارسوزي » (ص : 94) .

وبعد عرض لافكار هذين المفكرين ، يصل ناصيف نصار الى أنه لا بد لنا من العودة « الى المضمون الفلسفي الذي تبلور عند سعاده والأرسوزي كخلاصة لمعاناة التحرر الانساني في مشكل التحرر القومي ، لكي نستدل منه » على « المشكلة الفلسفية الرئيسية التي ينبغي لنا تركيز الجهود عليها . وحتى نتجنب في تعيين تلك المشكلة مزالق الاعتباطية والارتجال » (ص : 283) .

وهكذا يخلص من مضمون مجمل أفكارهما الى أن « الفكر القومي عند سعاده والارسوزي ، عند سعاده أكثر مما عند الارسوزي ، فكر تاريخي في منحاه وأصوله ، ولكنه بسبب طبيعته الايديولوجية الخاصة لا ينظر الى التاريخ بحسب ما تقتضيه النظرة الفلسفية الخالصة . الا أنه يستدعي ، بل يستوجب ، حصول نظرة فلسفية خالصة تعطيه ما لا يستطيع الوصول اليه بنفسه حول حقيقة الموجود التاريخي ، وحركة التاريخ ومعناه ، ومصير الانسان فيه وشروط تحقيق الحرية والعدالة وسائر القيم الكبرى . ومعنى

هذا كله أن المجال الفلسفي الذي يحملنا الاعتبار الشمولي لفلسفة الفكرة القومية عند سعاده والارسوزي على الاتجاه نحوه هو مجال الوجود التاريخي. وفي الحقيقة ، ان مجال الوجود التاريخي هو المجال الذي لا بد من الدخول فيه لتكوين فلسفة شاملة في الحياة الانسانية ، وهو المجال الذي تلتقي فيه المعقولية الاجتماعية والمعقولية الميتافيزيقية . وهكذا تدلنا المعاناة الفلسفية للتحرر الانساني في شكل التحرر القومي أن المشكلة الفلسفية الرئيسية في الحركة التاريخية الشاملة للشعوب العربية هي مشكلة الوجود التاريخي » (286 ـ 287) .

وسعيا لتكوين تلك النظرة الفلسفية التي يفتقدها ، أو التي افتقدها ، الفكر القومي العربي ، يقول ناصيف نصار :

« وفي الواقع ليس من المستحيل تصور فكر فلسفي (6) تأتلف فيه الواقعية والنقدية والنظرة الوجودية ، دون أن يكون امتدادا أو تطويرا لمذهب فلسفي سابق . أما المدخل الاقرب اليه ، فلست اراه في مقولة الانا ، أو الجوهر ، أو العلة الاولى ، والكل المطلق ، وانما اراه في مقولة الفعل أو مقولة الوجود التاريخي » (ص ص 11 ـ 12) .

4 ـ هذا ، بوجه الاجمال ، ما نخرج به اذا أعدنا بناء النص وترتيبه وفقا لجواب مختلف عناصره على أسئلة محددة طرحناها عليه . وهنا نصل الى الخطوة الثانية التي يصبح من حقنا فيها أن نتساءل عن الثغرات والتناقضات المعرفية الموجودة داخل النص ، والتي لعلها تبدو لناالآن بجلاء ووضوح اشد .

4 ، 1 ـ نبدأ ، اولا ، بكلمة أو فكرة « الاستقلال الفلسفي » ذاتها ، فنلاحظ أنها تظل غامضة وغير مؤسسة منطقيا : فاذا كانت فكرة « الاستقلال » واضحة في المجال السياسي ـ وهو ، غالبا ، المجال الذي استعارها ناصيف نصار منه ـ أو المجال الاقتصادي ، فانها ليست كذلك في الميدان الفلسفي .

ففي الميدان السياسي يمكن تحديد « الاستقلال » بالحدود والمؤسسات المصونة المحترمة من طرف الغير، وبقيادة سكان البلاد أنفسهم لبلادهم، من خلال انتخابات نزيهة ومؤسسات تمثيلية ... الخ . ويمكن ، في الميدان الاقتصادي، أيضا ، تحديد « الاستقلال » بأنه تحرير الاقتصاد الخاص ببلد أو شعب ما من جميع أنواع الخضوع والتبعية لاي اقتصاد كان ، بحيث يصبح هدفه أساسا هو تنمية الدخل الوطني ، وبحيث لا يظل خاضعا لتقلبات اقتصاد غيره من البلدان . اما في الفلسفة ، رغم مختلف التعريفات والشروط التي وضعها ناصيف نصار ، فانه ليس من السهل ارجاع فكرة فلسفية أو مذهب فلسفي ما الى واقع عيني خاص ، واثبات أن هذه الفكرة أو هذا المذهب لا يمتلك من الشمول الانساني ما يمكنه من تجاوز واقعه الخاص . فتعامل الفكر

الفلسفي بالمجردات يجعله ـ رغم ارتباط كل فلسفة وكل فيلسوف بارضية اجتماعية ـ تاريخية محددة ـ يطرح أسئلة تتجاوز أرضيته المحددة تلك ، وتكون ، من ثم ، ذات طابع انساني شامل .

وناصيف نصار نفسه يدرك هذه الحقيقة المستقاة من تاريخ الفلسفة حين يقول : « ... فنظرية افلاطون في العدالة ، ونظرية الفارابي في المدينة الفاضلة ، ونظرية روسو في العقد الاجتماعي ، ونظرية هيغل في المثالية الجدلية التاريخية ، ونظرية ديلتاي أو نظرية ماكس فيبر في نقد العقل التاريخي ، تشكل ، على سبيل المثال ، وأيا كانت في النهاية القيمة النظرية التي تتمتع بها ، محاولات لتفسير جوانب أو أبعاد في الوجود الانساني الاجتماعي التاريخي غير مقيدة تقيدا عضويا وبنيويا بوجود ومصير جماعة تاريخية محددة بعينها ، وان كانت من حيث الظهور والتكوين متأثرة بشروطها وظروفها الاجتماعية التاريخية الخاصة . وفي الحقيقة ، يعيش الفيلسوف الاجتماعي التاريخي مغامرته الفكرية تحت حكم جدلية الجزئي والكلي ، الفردي والنوعي ، الخصوصية والكونية ، ولكن موضوع تعقله يظل دائما الكائن الانساني ، أصلا وحاضرا ومصيرا » (ص : 262) .

بل انه يمضي الى ما هو أبعد من ذلك فيقول : ان « الفيلسوف الاجتماعي التاريخي ليس بالضرورة معبرا عن وجهة نظر جماعة محددة ، وتأثيره الفكري ليس محصورا في نطاق الجماعة التي ينتمي اليها أو العصر الذي يعيش فيه . انه يتحرك ويبدع ، بقدر الاستطاعة ، على مستوى الانسان الكلي من حيث هو كائن اجتماعي تاريخي ، بدون انسلاخ عن المجتمع الذي ينتمي اليه ، وبالرغم من الصعوبات الحقيقية التي يواجهها في الارتقاء الى مستواه الخاص » (ص : 261) .

واذا كان ناصيف نصار نفسه يعترف بهذه الحقيقة ، حقيقة شمول وعمومية الفكر الفلسفي ، فلماذا الدعوة الى « استقلال فلسفي » خاص ؟ ودون التوقف عند أسباب هذا التناقض الاولي ، نكتفي بتسجيله وننتقل للكشف عن ثغرة ثانية أو عن تناقض آخر .

4 ، 2 ـ كثغرة ثانية نتناول ما أسماه ناصيف نصار بـ « تبعية التاليف الفلسفي العربي لتاريخ الفلسفة العربية (الوسيطة والحديثة) » ، والذي أسس عليه قوله بان بحثنا عن « نزوع الثقافة العربية الحية » الى الفكر الفلسفي ينبغي ان يتم في « التاليف الايديولوجي » ، فنسجل عليه ما يلي :

أ) لقد أسس ناصيف نصار حكمه العام ذاك استنادا فقط الى كتابات مفكرين اثنين فقط ، هما يوسف كرم وزكي نجيب محمود ، مع اهمال تام لغيرهما من المفكرين الذين كتبوا بدورهم في الميدان الفلسفي باللغة العربية ،

ومنهم من لعب الدور الكبير في نشر الفكر الفلسفي وسط المثقفين والمتعلمين العرب ، نذكر من بينهم ، على وجه المثال لا الحصر : نجيب بلدي ، عبد الرحمان بدوي ، زكريا ابراهيم ، فؤاد زكريا ، بل ويمكن اضافة أن منهم من طرح ، مثلما يفعل صاحب الدعوة الآن مسالة البحث عن خصوصية تطبع الفكر العربي يمكن ، بل وينبغي ، تاسيس استقلال فلسفي إعتمادا عليها ، مثل عثمان امين ودعوته « الجوانية » ، ويحيى هويدي ودعوته « الشهيرة » الى « الحياد الفلسفي » .

فكل من هذين الاثنين سعى الى انشاء فلسفة « عربية مستقلة » ، يطبعها ميسم « الخصوصية العربية » ، أسماها الاول « جوانية » ، وقال انها « تحاول أن تحدد المهمة الاصيلة للوعي الانساني ، وترى أن تنمية القوى الروحية الكامنة في الانسان أهم بكثير من تنمية قواه العقلية البحتة ، وان الانسان لا يصل الى درجة « النضج » بمعناه الصحيح الا اذا اجتاز تلك التجربة الروحية الشاقة التي تمارسها النفوس الكبيرة الممتازة ، فتشعر حينئذ انها متآزرة كل التآزر ، لا مع أهل الوطن فحسب ، بل مع أفراد الانسانية المؤتلفة الواعية ، بصرف النظر عن اختلافهم في اللغات والاديان والاجناس والاوطان » (7) ، وأسماها الثاني « حيادا فلسفيا » قائلا ـ بعد تعريفه للفلسفة بانها « تعميق للحياة ، وكشف عن الاصول والمبادىء العامة التي تؤسس عليها معتقداتنا الخاصة » ـ انها فلسفة مواقف لا فلسفة مذاهب، وفلسفة وجود لا فلسفة معرفة ، وبانها تقع بين المثالية والمادية ، وبين الوجودية والماركسية (8) .

ولا يهمنا هنا التوقف عند هذا الاهمال وأسبابه ، هل هي فردية تعود الى نقص في الاطلاع أم جماعية ترتبط بمصلحة فكرية أو اجتماعية ـ اقتصادية معينة ، بل ان ما يهمنا هو فقط تسجيل أن حكم ناصيف نصار بـ « تبعية التاليف* الفلسفي العربي لتاريخ الفلسفة الغربية » ليس حكما علميا ، أي ليس تعميما لنتائج جزئية غطت كل ـ أو على الاقل معظم ـ « التاليف الفلسفي العربي » وانما هو تعميم يستند فقط الى حكم جزئي على نموذجين اثنين من نماذج ذلك التاليف ، وعليه فهو ليس بالحكم الذي يعتمد عليه .

كما يهمنا ايضا تسجيل ما يمكن تسميته بـ « العدمية التاريخية » في الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي » ، وتتجلى في اهمال ناصيف نصار للدعوات المماثلة لدعوته في العالم العربي ، والتي ظهرت في فترة الستينات ، وكأنه يعتبر بذلك دعوته أول دعوة . حقيقة ان تلك الدعوات كانت ضعيفة ومتهافتة، ولكن ربما كان اقرب الى العلمية أن يتم التعرض لها بهدف نقدها ، أو تكميلها، او تطويرها ، أو لمجرد اعلان ضعفها ورفضها جملة وتفصيلا ، لا أن يصمت عنها وكأنها لم تكن .

ب) ويمكن القول أيضا ان طرح ناصيف نصار لمسألة « الارتباط » أو « عدم الارتباط » بتاريخ الفلسفة طرح شكلي ، تغلب عليه النظرة الوضعية السكونية ، والتجزيئية الاحادية البعد ، الشيء الذي يجعل منه طرحا مغلوطا أصلا . اذ من المعروف أن كل من اسماهم هو نفسه مرتبطين بتاريخ الفلسفة لم يكونوا مجرد « ببغاوات » تردد نفس المذاهب مثلما ظهرت في أوروبا ، بل ان طرح كل منهم مطبوع بخصوصية معينة ، تتجلى ، ان نحن تعمقناها ، في الطريقة التي فهم بها المفكر العربي المذهب الذي « ارتبط » به ــ وسنجد دائما أن هذه الطريقة ليست مطابقة تماما لذات المذهب ــ ، وفي الجوانب أو الاجزاء التي ركز عليها منه ، والجوانب أو الاجزاء التي أهملها ، وتفسر ، دائما ، بالشروط التاريخية ــ الاجتماعية العينية الخاصة ، التي تختلف اشكاليتها عن اشكالية البلدان التي نشأت فيها تلك الافكار أو المذاهب أو الانساق الفلسفية ، فيكون السؤال المحوري هنا ، مثلا ، هو غيره هناك ، بل وقد تطرح الاشكالية الخاصة (وهي العربية هنا) أسئلة غير موجود جوابها في تلك الافكار أو المذاهب أو الانساق ، فيسعى المفكر العربي الى ايجاد أجوبة جديدة قد تكون كامنة في تلك المذاهب والانساق ، أو ينشيء ، استنادا الى مسلمات المذهب أو النسق أجوبة تبدو له منسجمة مع الاتجاه العام للمذهب أو النسق الذي يتبناه ، وملبية في ذات الوقت لحاجيات تاريخية ــ اجتماعية راهنة .

ان هذه المسألة التي نقررها ليست ضرورية منطقيا كما قد يبدو ، وانما هي مجرد واقعة اجتماعية ــ تاريخية ، ثبتت من خلال البحث المقارن لانتقال المذاهب والانساق من منطقة في العالم الى منطقة أخرى تختلف عنها في اشكاليتها .

نذكر هنا ، مثلا ، فهم الفلاسفة العرب ــ الاسلاميين لميتافيزيقيا ارسطو ، وكيف لم يكن هذا الارسطو **المفهوم** هو نفسه ، مائة بالمائة ، أرسطو اليوناني . ونعتذر عن الاستشهاد بأمثلة حية من فكر زكي نجيب محمود ويوسف كرم ، لان ذلك يتجاوز طاقاتنا الحالية ، من جهة ، ولانه يتطلب ، من جهة ثانية وقفة جادة لا مجرد ذكر عابر .

ومن الطريف ، حقا ، أن ناصيف نصار يعترف بهذا الذي ذكرناه ، نظريا ، في مكان آخر من كتابه ، دون أن ينتبه الى التناقض الموجود بينه وبين ما سلم به في البداية ، فيقول : « ... ، في هذا البحث ، لا يهمنا أن نعرف من اين استمد هذا المفكر أو ذاك أفكاره ، وانما يهمنا أن نعرف كيف استوعبها وبلورها واستخدمها ، لا يهمنا أن نبحث عن مدى اقتباسه بقدر ما يهمنا أن نكشف منهج تفكيره ، ومدى تماسك هذا التفكير وتجاوبه مع المرحلة التاريخية التي نشأ فيها ووضع من أجلها » (ص : 92).

وللشديد الاسف فاننا لا نجد أثرا أو تطبيقا في النص لهاتين الفكرتين اللتين يمكن اعتبارهما من أصوب ما ورد فيه .

وفعلا ، كما أورد صاحب الدعوة ضمنيا في الفقرة الاخيرة ، فان بحثنا في ارتباط هذا المفكر أو ذاك بغيره من المفكرين المنتمين الى نفس أو غير زمانه ، أو الى بلاد غير بلاده ، لا يتم للتعرف على مصادر أفكاره ، وانما لمعرفة « **كيف** » فهمها .

وهذا التركيز على معرفة الكيف أساسي للتعرف على « الخصوصية » العينية لبنية ذهنية ما خاصة بفئة اجتماعية معينة أو لبنية فكرية خاصة بهذا البلد أو ذاك . ولا داعي هنا لقول ان التعرف على تلك « الخصوصية » ليس هدفا في ذاته ، وانما هو « وسيلة » تساعدنا في التعرف على الخصوصية العينية لذات الواقع الاجتماعي ـ التاريخي الذي انتج تلك البنية .

واذا فهمنا هذه الخصوصية ، فاننا سنتمكن حينها من امتلاك مسافة معينة تجاه واقعنا الخاص ، تساعدنا على النظر اليه بموضوعية ما أمكن ، فتمكننا ، بذلك ، من تحديد الاجوبة « الحقيقية » ـ الاجوبة « العلمية » في مقابل الاجوبة « الايديولوجية » ـ على الاشكالية « الحقيقية » التي يطرحها علينا ذلك الواقع الخاص ، فنتمكن في آخر المطاف ، من التحول الى كائنات فعالة حقا ومؤثرة في التاريخ ، وغير منفعلة بمجرى أحداثه ووقائعه .

وهنا يمكن القول ان محاولة ناصيف نصار كانت ستكون أجدى وأثمر لو أنها لم تقتصر على مجرد الوصف السطحي والتقرير لما دعاه « ارتباط التأليف الفلسفي العربي بتاريخ الفلسفة العربية » ، وتعدت ذلك الى اظهار « خصوصية » هذا الارتباط ، من جهة ، ثم مبرراته في الواقع الاجتماعي التاريخي العيني الخاص ، من جهة ثانية . فنتمكن ـ ان نحن خلصنا الى ضرورة وجود هذا « الاستقلال » ـ من تحديده وضبط آفاقه وشروطه ضبطا وتحديدا مطابقين حقا للواقع .

ج) نضيف أيضا أن ناصيف نصار ، رغم قوله بضرورة الاعتماد على « التأليف الايديولوجي » العربي لاجل استخراج « الميل الفلسفي العربي » الحقيقي المفقود في « التأليف الفلسفي » ، فانه لا يتوخى الموضوعية في تطبيق فكرته تلك ، ويقتصر تناوله فقط على « التأليف الايديولوجي القومي » ، ممثلا في كل من سعاده والارسوزي ، وذلك بحجة أن هناك صعوبات « تتعلق بتصنيف الكتابات الواجب اعتبارها وطريقة تفسيرها » ، وبحجة أن « المحور الرئيسي الشامل لحركة المجتمعات العربية هو « محور التحرر والبناء القومي » (ص : 94) .

ولا نتوقف هنا عند ما ذكره من « صعوبات » ـ فهي مسألة تختص به وبموضوع بحثه ، وان لم تكن « الصعوبات » يوما مبررا للافتئات على

الحقيقة أو التجني عليها ـ ، ولا عند تركيزه محور نضال المجتمعات العربية في « التحرر والبناء القومي » ـ وهو أمر سنعود اليه ونناقش حقيقته في فقرة لاحقة ـ ، بل نشير فقط الى النتائج التي خرج بها من دراسته لفكر كل من سعاده والارسوزي ، والتي لخصها هو نفسه في الفقرة التالية :

« ان حركة النهضة العربية تبحث عن فلسفة حياة جديدة ، عن نظرة جديدة الى الانسان والعالم ، من خلال ما تقتضيه الحركة القومية . لذا يشكل استقراء الدلالة الكبرى في مضمون الفكر القومي المدخل الرئيسي الى أعماق حركة النهضة والى جدلية الاستقلال الفلسفي . ان حركة النهضة قد عبرت عن أعماقها حتى الآن على المستوى الايديولوجي ، وهي تحتاج الى التعبير عن أبعادها على المستوى الفلسفي ، اذ أن التعبير الايديولوجي قد أظهر انها حركة تاريخية ثورية ، أي ناشئة في التاريخ ومغيرة فيه ، ولكنه لم يظهر أن الانسان نفسه كائن تاريخي . من خلال مضامين فلسفة الفكرة القومية عند سعاده والارسوزي ، أدركت النهضة أن الانسان الحقيقي كائن حي بكل ما في الحياة من طاقة ، مادي وروحي ، عاقل وحر ، مصارع ومبدع ، فرد وجماعة، ممزق بين الوجود النسبي والوجود المطلق ، متوتر بين التفوق والبطولة وبين الانحطاط التفاهة ، لكنها لم تدرك كل أبعاد العلاقات الجدلية المعقدة بين هذه المقولات ، ولم تدرك المقولة الجامعة لها ، وانما اتجهت نحوها . وهذا هو معنى احتياجها الى التعبير عن ابعادها على المستوى الفلسفي . وفي التجاوب مع هذا الاحتياج ، يحقق الفيلسوف العربي مهمته التاريخية الحضارية » (ص ص 287 ـ 288) .

فالملاحظ أن هذه النتائج والخلاصات التي خرج بها ناصيف نصار من دراسته غير مؤسسة علميا ، وينطبق عليها ما سبق أن ذكرناه في الفقرة أ ، أي أنه انطلق من نموذجين ـ ليسا المعبرين الوحيدين عن « الفكر القومي » بله الفكر العربي ـ فحسب ، ليعمم أحكامه على كل الفكر العربي . وبذلك فهو لم يكن متجردا كل التجرد حين تحليله ، بل واقعا ، بدوره ، تحت تأثير ايديولوجي خاص ، هو تأثير « الفكرة القومية » ، الذي جعله يغفل كتابات « ايديولوجية » لمفكرين عرب مشهورين ذات طابع سلفي عام أو ليبرالي أو اشتراكي ، وهي تيارات لا يستطيع أي كان انكار انها كانت أهم الصيغ التي عبر بها الفكر العربي عن نفسه ، وأن هذا الفكر لم يظل محصورا في صيغة واحدة منها .

كما يمكن القول ان تلك الخلاصات لا تتضمن أية « خصوصية » عربية ، وانه يمكن اعتبارها عامة وشاملة لكل الناس في كل زمان ومكان ، ثم اننا لا نلمح أي ارتباط بينها ـ كنتائج ـ وبين النصوص المعتمد عليها ـ كمقدمات ـ ، أي انها تظل مجرد وجهة نظر شخصية ، أو تأويل شخصي

لناصيف نصار ، للوجود العربي الاجتماعي والتاريخي .

ج) ونختتم هذه الملاحظات بالخلاف التالي : لقد برر ناصيف نصار اعتماده على « التأليف » الايديولوجي القومي » كطريق نحو « الاستقلال الفلسفي » المنشود بأنه ـ أي التأليف ـ « مؤسس على قاعدة فلسفية واضحة متماسكة » (9) ، تنطلق من حاجات الواقع العربي وتجيب على هذه الحاجات انطلاقا من هذا الواقع . لكننا نتساءل : هل كانت أجوبة سعادة والارسوزي مستندة على الواقع العربي أم على غيره ؟

والمبرر ، أو بالاحرى الضرورة التي تدفعنا الى طرح هذا السؤال . ملاحظتنا ان دعوة أنطون سعادة ـ مثلا ـ (وهي « القومية الاجتماعية ») قد نمت وتطورت في نفس الوقت الذي ظهرت وتنامت فيه الاتجاهات الفاشية في أوروبا ، وأن الحزب القومي الاجتماعي تأسس سنة 1932 ، أي بين صعود موسوليني الى السلطة سنة 1924 ، وصعود هتلر اليها سنة 1933 . ثم تسجيلنا ـ وهذا أهم ما في الامر ـ للتقارب الموجود بين الدعوة القومية ـ الاجتماعية ومضمون الدعوتين الفاشية والنازية .

ألم يعبر أنطون سعاده ، لمرات عديدة عن اعجابه بالنازية والفاشية وعداوته الشديدة للديمقراطية ؟ فقال ، مثلا ، : « أما في المانيا الاشتراكية القومية وايطاليا الفاشية حيث ابتدأ تنظيم المجتمع في الدولة ، فقد زالت البطالة وحدث في المانيا نقص في اليد العاملة » ، و « ان الالمان لم يحاربوا وينتصروا على أعدائهم الكثر الاغنى ماديا ، بتفوق استعداداتهم الحربية في الآلات العديدة فقط ، بل بقوة عزائمهم المشحوذة بحمية العقيدة الاجتماعية التي أوجدت لهم نظاما في الداخل يحسن حياة الشعب ويرفع حياة العامل ويؤمن متوسط الحال » (10) و « ... الديمكراتية التي خبرتها الشعوب المتمدنة حتى اليوم لم تتمكن من حل الاضاليل ، الاجتماعية ـ الاقتصادية التي نشأت مع تقدم عهد الآلة وارتقاء التخصص في الاعمال وتحديدها » (11) . ثم الا يمكن اعتبار الفكر القومي الاجتماعي ، تبعا لذلك ، لا « ابتكارا » ـ كما يلذ لسعادة أن يقول ، أو « ابداعا » بلغة ناصيف نصار المفضلة ـ خاصا بالفكر السوري أو العربي ، بل تفكيرا أيديولوجيا ، بدوره ، في الواقع العربي ، يأخذ أجوبته على الواقع لا من ذات الواقع وانما من واقع آخر مغاير له ؟ وبذلك ينعدم أي معنى للبحث عن « خصوصية » ما للفكر العربي في « الفكر القومي الاجتماعي » العربي وحده ؟

5 ـ ويمكن ، حقيقة ، الكشف عن ثغرات أخرى في نص « الاستقلال الفلسفي » ، الا أننا نكتفي بما سلف في الفقرتين السالفتين ، على أساس أنه يعبر بجلاء عن التناقض الرئيسي المنتظم للنص ، والذي ليس تناقضا الا بالنسبة لملاحظ يقف خارج « البنية الذهنية » المنتظمة له . وبذلك

يصبح علينا أن نوجد ونحدد هذه « البنية » التي توحد تلك التناقضات والثغرات وتضفي عليها الدلالة والمعنى ، وهنا نصبح ، عمليا ، في الخطوة الثالثة والاخيرة .

ان ناصيف نصار يرى فعلا أن ثمة « مشكلات ناشئة في تربة الحياة العملية التي تحياها الشعوب العربية ، كمشكلات التحرر القومي والثورة والتنشئة الاجتماعية والسلطة السياسية والهوية التاريخية والتكافل الاجتماعي والعلمانية والاستقلال الاقتصادي والحرية الفردية » ، (ص : 9 ـ 10) وبذلك يبرر اختياره اسعاده والارسوزي بأن المحور الرئيسي الشامل لحركة المجتمعات العربية هو محور « التحرر والبناء القومي » . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : الم يناضل الشعب العربي ـ ولا زال يناضل ـ من أجل الديمقراطية والاشتراكية أيضا ؟ ثم هل من معنى للدعوة الى التحرر والبناء القومي دون ديموقراطية ولا اشتراكية في عصر الاستعمار الجديد والهيمنة الامبريالية على العالم ؟

كما يبرر صاحب الدعوة دعوته الى « الاستقلال الفلسفي » بأن « النهضة الحضارية التي تسعى المجتمعات العربية الى تحقيقها لا تكون متينة البنيان الا اذا تأسست على استقلال فلسفي » (ص : 13) ، موردا في كثير من أجزاء النص كلمات من نوع « التفوق التاريخي الحضاري » ، « اكتمال الشخصية الحضارية الجديدة » ، « المشاركة في مسيرة الحضارة العالمية التي هي في طريق التكوين والظهور » (ص : 272) . وهنا أيضا نتساءل هل هدف الشعوب العربية ـ منذ « النهضة » الى الآن ـ هو أن تصبح « متحضرة » ، أم هو ، فحسب ، أن تتحرر من الهيمنة الامبريالية وان تبني مجتمعا انسانيا حقا عادلا بلا استغلال يضمن العيش الكريم لكل مواطنيه ؟

ومن السؤالين معا يبدو اننا دخلنا الى لب « البنية الذهنية » التي تنتظم دعوة ناصيف نصار ، والتي ليست بالبنية العلمية أو الموضوعية حتما ، التي يتحقق فيها ذلك القدر الممكن اجتماعيا وتاريخيا من التطابق بين الواقع كما هو بالفعل والفكر المعبر عنه ، وانما هي ـ مثلها في ذلك مثل ما تنتقده ـ مجرد بنية ايديولوجية ، الهوة فيها بين الفكر والواقع سحيقة ومن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، عبورها .

ان اشكالية الواقع العربي بالنسبة لهذه البنية الذهنية هي اشكالية « الحضارة والتحضر » ، والجواب عليها ، بصفة عامة ، هو : البناء القومي والتكافل الاجتماعي والبحث عن الهوية التاريخية ، ثم هو ، بالنسبة لحالتنا الخاصة هذه : « الاستقلال الفلسفي » . واذا كان واضحا أن هذه البنية الذهنية هي بنية الفكر القومي العربي ـ وبالتحديد الفكر القومي الاجتماعي ـ فانه من الواضح أيضا اخفاق هذه الدعوة في تغيير الواقع العربي لصالح

الجماهير العربية الكادحة المضطهدة ، ونجاحها فقط في خنق كل ما هو ديمقراطي واشتراكي وشعبي حقا ، ومن ثم ، يتضح طابعها الايديولوجي البعيد عن كل علمية وموضوعية .

لقد كانت الدعوة الى « استقلال فلسفي » عربي مصاحبة منذ بداياتها للفكرة القومية ، فهذا عثما نأمين ، مثلا ، ينهي مقاله المذكور آنفا مشيدا بالناصرية ، ومقارنا اياها بـ « نداءات الى الامة الالمانية » لفيشته ، فيقول « وما أحسبني بحاجة الى الافاضة في الحديث عن الفكرة الاخرى التي أطلقها في أيامنا هذه صاحب « فلسفة الثورة » في نداءاته العديدة الى الامة العربية ، كلتا الفكرتين ـ الفيشتية والناصرية ـ استطاعت ، في مدى قصير ، ان تحقق ما لم تستطعه دول كبيرة بجيوشها المعبأة وفرقها الضاربة : استطاعت الفكرة ، بذاتها وبمحض طاقاتها الجوانية ، أن تغير امام اعيننا مجرى التاريخ » (I2) ، ثم هذا صاحب كتاب « حياد فلسفي » يستهله ، في صفحته الاولى ، بجملة لعبد الناصر يقول فيها : « اننا لم ننهمك في النظريات بحثا عن حياتنا ، وانما انهمكنا في حياتنا ذاتها بحثا عن النظريات » (I3) . الا أن تسجيل هذه المصاحبة أو الارتباط لا يكفي وحده لاظهار الحدود الاجتماعية والتاريخية لهذه الدعوة ، ولا السبب في كونها ، على عكس ما تطمح اليه ، نسبية وقاصرة عن الاحاطة بحركة الواقع . لذلك سيكون علينا ان نتساءل عن السبب في ذلك الارتباط .

ولا نذهب بعيدا لاجل الاجابة ، فهذا ناصيف نصار نفسه يقول في لقاء أجرته معه مجلة « دراسات عربية » البيروتية : « وعليه لا تعني **المطالبة** بفلسفة عربية مستقلة سوى **المطالبة** بأن يتكون في الثقافة العربية ، وفي اطار الوضعية الحضارية الجديدة التي تكتنفها وتحددها ، أي في اطار المعطيات القائمة لجدلية الخصوصية والعالمية ، تراث فلسفي متميز **بخصائص معينة** ، على غرار ما نجد في الثقافة اليونانية القديمة ، أو في الثقافات الالمانية والانجليزية والفرنسية في العصور الحديثة . وانها في اعتقادي مطالبة **مشروعة ومشرفة** للثقافة العربية » (I4) ـ التشديد منا ـ

وبذلك فالسبب الكامن خلف الدعوة الى « الاستقلال الفلسفي » سبب يرتبط بـ « المشروعية » و « التشريف » . واذا تساءلنا : هي مشروعة من طرف من ومشرفة أمام من ؟ فسنكتشف انها كذلك أمام « الآخر » ، أمام « الحضارة » الغربية . أي أن ذلك « الاستقلال الفلسفي » سيمكننا من حيازة فلسفة « خاصة » بنا ، **نتساوى** بها مع « الآخر » فنصبح مساهمين في « الحضارة العالمية التي هي في طريق التكون والظهور » .

واذا عدنا الى الواقع الاجتماعي ـ التاريخي العربي وتساءلنا هل هذه الرغبة في التشريف والتساوي عامة شاملة لكل جماهير الشعب أم غير

شاملة لها ؟ فاننا سنجد انها تظل محصورة في نطاق نخبوي ضيق ، نطاق النخبة التي تروم العصرنة والتحديث فلا ترى ذلك الا في بناء دولة قوية على النمط البورجوازي مع الاخذ بأسوأ ما في هذا الاخير ومع استبعاد الاساس الفعلي لكل عصرنة وتحديث حقيقيين وهو جماهير الشعب الكادح وممارسة كل أنواع الحجر والضغوط والقمع عليه .

صحيح أن الدعوة للقومية العربية ارتبطت بالبورجوازية الصغيرة ذات الاصول الريفية والعمالية المدينية أو الحرفية ، ولم ترتبط بالبورجوازية أو البورجوازية المتوسطة التي جعلت من بلدانها ، وبشكل مباشر مفضوح ، مزارع لمختلف الامبرياليات ، دون تفكير حقيقي في بناء شخصية وطنية أو قومية مستقلة واثقة من نفسها بعيدة عن جميع أنواع الاستيلابات ـ ومع ذلك فان تصور البورجوازية الصغيرة للتقدم والتحديث لا يختلف في العمق عن تصور البورجوازيتين الاخيرتين له ، اذ أنه لا يتم عندها الا باستبعاد من يهمه هذا التحديث والتقدم أولا وأخيرا ، وهو الشعب نفسه ، عن جميع مواقع الرأى والتقرير والبت والمسؤولية ، معطية لمصالحها الخاصة طبعا شموليا كونيا ، تحكم من خلاله وتسيطر على باقي الفئات والطبقات .

بل ويمكن الذهاب في هذا الامر بعيدا وقول أن الخلاف بين البورجوازية الصغيرة والبورجوازيتين الاخريتين ليس خلافا جوهريا ـ بين طبقة أو طبقات لا انسانية لا شعبية وطبقة تدافع عن الشعب خلال تصور انساني عام ـ ، وانما هو فقط خلاف حول من يؤسس ويدير دولة على النمط البورجوازي الغربي بشكل أحسن من غيره .

الا أن الشيء الذي تعجز البورجوازيات الثلاث معا عن ادراكه وفهمه هو أن أي استقلال فعلي في العالم الثالث ـ والعالم العربي من ضمنه ـ لا يمكن أن يقوم الا استنادا الى الشعب ، وبالشعب ومنه واليه . وكل ما عدا ذلك سوف لن يؤدي الا الى دولة تابعة تحت اسماء براقة ولامعة ، مثلما علمنا التاريخ ولا يزال من خلال التجارب العديدة ، الحية منها والميتة .

6 ـ واذا ابتعدنا عن مجال البنية الذهنية هذه ، وعلاقتها بفئة اجتماعية ما ـ وهو أمر مفيد ، على أي حال ، في اثبات نسبية الدعوة ـ الى المجال المعرفي البحت ، فان بالامكان ايجاد ثغرة رئيسية في فكرة « الاستقلال الفلسفي » ، تقوم في أنها تتحدد افقيا لا عموديا ، أي تتحدد اقليميا جغرافيا ، لا تاريخيا ، في حين أن التحديد العمودي هو الاصح والاقرب الى العملية .

ان فكرة « الاستقلال الفلسفي » لا تختلف ، في جوهرها ، عن فكرة « الاصالة » بمفهومها السلفي المتحجر ، ذلك المفهوم الذي يختزل الشخصية القومية في شكل ثابت لا يتغير ولا يتجدد ، أي خارج التاريخ . وعوض الفروق أو الاختلافات الحقيقية بين الجماعات البشرية يضع ويثبت فروقا وهمية .

ان « الاصالة » في الحقيقة ليست هي تلك « الخصوصية » التي تضع حاجزا بين هذا الشعب أو ذاك ، وانما هي ما يوحد الانسان ـ من حيث هو انسان ـ ضد كل أعدائه المشتركين . بحيث يمكن القول ان الاصيل فعلا في الانسان ليس هو انتماؤه الى بلد معين وانما هو نضاله من أجل تحقيق انسانيته الحقيقية ، بعيدا عن كل استغلال بشري وكل ضغط طبيعية . وتكون « الخصوصية » على هذا الاساس هي الشكل الخاص الذي خاض به شعب ما ذلك النضال ضد الطبيعة وضد مستغليه . وحتى اذا طرحنا مسألة « المعاصرة » بدورها ـ وليس « الحضارة » بلغة ناصيف نصار ـ ، فيمكن القول أيضا ان المعاصرة الحقيقية ليست هي السعي الى مجاراة العصر في أرقى ما وصل اليه على الصعيد التقني ، وانما هي السعي الى مجاراته على صعيد أرقى ما حققه بالنسبة لصالح الانسان في كل مكان ، وتحديدا لصالح أغلبية شعوب العالم المضطهدة والمحرومة من أدنى مقومات الوجود . وبديهي أن طرح هذه المسألة الاخيرة يستند الى ملاحظة أن « المعاصرة التقنية » في أرقى بلدان الغرب لم تنجح سوى في تعزيز الفروقات بين البشر وفي توسيع دائرة استيلاب الانسان تجاه أشياء الطبيعة بل وحتى تجاه الناس المحيطين بـه .

ونفس ما قلناه عن الاصالة والخصوصية والمعاصرة نقوله عن «الاستقلال الفلسفي» ، فالاستقلال الفلسفي الحقيقي ليس اقتطاعا لجزء من تاريخ الفلسفة يختم عليه بـ « صنع في الوطن العربي » ، وانما هو استقلال على صعيد الفلسفة ككل عن كل ما من شأنه ان يقف حاجزا دون تحقيق الانسان لانسانيته . استقلال عن كل الافكار والمذاهب والنظريات والانساق الفلسفية التي تعمل على بقاء الانسان خاضعا للاستغلال الاجتماعي والضرورة الطبيعية ، مكرسة في ذات الوقت الطابع النسبي لخضوعه ذاك ومعطية اياه طابعا مطلقا خارج كل زمان ومكان .

وان المهم بالنسبة لنا الان ليس هو البحث عن « خصوصية فلسفية » عربية ، وذلك لانه لم يحن الاوان بعد لذلك ، لانه ، كما قال فؤاد زكريا في احدى مقالاته القديمة ، « قبل أن تكون هناك « فلسفة قومية » ، ينبغي أن تكون هناك « فلسفة » أولا » . فنحن لا زلنا نسير في هذه المرحلة الاخيرة « ولا نستطيع أن نقول اننا قد سرنا فيها بعد بما فيه الكفاية » (15) . بالاضافة الى أن الفيلسوف لا يسعى « الى الكشف أولا عن الخصائص القومية لبلاده لكي يبني مذهبا فلسفيا منطبقا عليها . وانما يمارس الفيلسوف تفكيره، وتأتي أجيال تالية من الشراح تكشف خصائص مشتركة بينه وبين غيره من بني وطنه ، فتكون تلك الخصائص هي الروح القومية في الفلسفة » (15) . وان بحث ناصيف نصار عن الخصوصية في مكان هي غير موجودة فيه أصلا

قد قاده الى اعتبار « الفكرة القومية » ذاتها فكرة « سكونية » ثابتة ترتبط بالماضي أكثر مما ترتبط بالحاضر ـ على حد تعبير ف. زكريا ـ ، ويتجلى ذلك مثلا حين تناوله لفكر زكي الارسوزي ، وسعيه لدراسة الشخصية العربية من خلال لغتها : انه يتفق ، ضمنيا ، على ما جاء به الارسوزي من أن العبقرية العربية كامنة في اللسان العربي ، هذا اللسان الذي لا زال مرتبطا بالواقع من خلال أصوله الطبيعية ، وذلك حين يقول ـ ن. نصار ـ ان حل الارسوزي لنشوء اللسان العربي ، أو اللغة على وجه الاجمال ، هو « الحل الواقعي الطبيعي » ، وهو حل يقف ، بطبيعة الحال ، الى جانب القول بـ « توقيف » اللغة ـ لا اعتباطيتها ـ فيربط نشوءها بأصل غيبي بعيد ، وفي هذا تثبيت جلي لفكرة « القومية العربية » وحصر لها في أبعاد ميتافيزيقية غير محركة وخارج المجتمع والتاريخ (16) .

7 ـ ان كل ذلك ناتج ، كما ذكرنا ، من أن الاشكالية التي ينطلق منها ناصيف نصار ـ والفكر القومي المتحجر بصفة عامة ـ هي اشكالية غير مطابقة للواقع في عمومه وشموليته (اشكاليـة الحضـارة والمسـاواة بـ « الآخر ») ، ومن ثم طابعها النسبي وعجزها عن النفاذ الى محركات الواقع الحقيقية والدفع بها الى ما فيه صالح الجماهير العربية المضطهدة والمسحوقة. وهو أمر ينطبق ، كما اسلفنا أيضا ، على فكرة « الاستقلال الفلسفي » ذاتها التي تهمنا هنا أكثر من غيرها .

وبطبيعة الحال ، فان اعتبار الاشكالية تلك زائفة يحتم علينا طـرح الاشكالية الحقيقية للواقع العربي . وهنا يمكن القول ، باختصار ، ان تلك الاشكالية هي اشكالية « تحقيق انسانية الانسان العربي » ، ويكمن حلها الفعلي في بناء مجتمع ديمقراطي اشتراكي عادل متحرر من كل أشكال الهيمنة والاستيلاب والتبعية للامبرياليات المختلفة وأذنابها المحليين تحقق فيه الجماهير الشعبية العربية انسانيتها الحقة من خلال تحكمهـا في مصيرهـا نفسها بنفسها بعيدا عن كل وصاية واستعمار أو استبداد وطغيان ، ومن خلال تركيز جهودها المشتركة لتحويل الطبيعة والسيطرة عليها بما فيـه صالـح الانسان في كل مكان من العالم .

واذا كان لنا ، بعد ذلك ، أن نتحدث عن الشعـار الفلسفـي الملائـم للاشكالية المذكورة في هذه المرحلة من تاريخ الوطن العربي ، فلربما كـان هو « نشر الفكر الفلسفي على أوسع نطاق ممكن » ـ في بلاد لا زال العقل فيها محاربا من طرف مختلف الدعوات اللاعقلانية ، القديمة منها والحديثة ـ وبعد ذلك ، بعد ذلك فقط ، انما سيكون بمقدورنا أن نتحدث يوما عن « فلسفة عربية » وعن خصائصها والمميزات .

يـونـيـو 1978

هوامش :

1) ماركس ، انجلز « المراسلات » . دار التقدم ، موسكو ، 1976 (بالفرنسية) (ص. 477) ـ (رسالة انجلز الى ف. مهرنغ : 14 يوليوز 1893) .

2) ناصيف نصار : « طريق الاستقلال الفلسفي » ، دار الطليعة ، بيروت ، 1975 ـ وسنكتفي فيما يلي بالاشارة الى رقم صفحات الكتاب فقط .

3) ف. انجلز : « **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** » ، المنشورات الاجتماعية ، باريس ، 1966 (بالفرنسية) .

4) من الواضح أن المقصود بالطريقة الاولى المرفوضة هنا هو « التجريبية » ، وما عنيناه بالطريقة الثانية هو « الاثنوغرافية » . اما الطريقة المقترحة فمن الواضح ايضا ، انه يمكن دعوتها جدلية . (انظر بخصوص النقطتين الاوليتين : عبد الله العروي : « **الايديولوجيا العربية المعاصرة** » ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1970 (وخاصة الصفحات 30 ... 33 -) .

5) استعرنا هذه الخطوات ، في خطها العام ، من المنهج البنيوي التكويني ، كما فهمه وطبقه لوسيان غولدمان في دراسة التظاهرات الفكرية والابداعية ، على صعيد الادب كما على صعيد الفلسفة (انظر بهذا الخصوص ، ل. غولدمان : « **الماركسية والعلوم الانسانية** » ، غاليمار ، باريس ، 1970)

6) المقصود هو الفكر الفلسفي العربي « المستقل » .

7) « **الجوانية : اصل عقيدة وفلسفة وثورة** » ، مقال منشور بمجلة « حوار » ، العدد 13 ، نوفمبر ـ ديسمبر 1964 ، بيروت .

8) يحيى هويدي ، **حياد فلسفي** ، المكتبة الثقافية (83) ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، 1963 .

9) مجلة « **دراسات عربية** » ، بيروت ، عدد 5 ، السنة 14 ، مارس 1978 .

10) انطون سعادة ، « شروح في العقيدة » (ص 17 ـ 18) ، ماخوذ عن كتاب « **الحزب القومي الاجتماعي : تحليل وتقييم** » للبيب زويا ، ترجمة ومناقشة ونقد جوزيف شويري ، دار ابن خلدون ، 1973 . (ص 45) .

11) المصدر السابق (ص. 168) .

12) عثمان امين ، م. س ، (ص 23) .

13) يحيى هويدي م. س.

14) دراسات عربية ، العدد 5 ، السنة 14 ، مارس 1978 (ص. 40) .

15) فؤاد زكريا ، « **القومية والعالمية في الفكر الفلسفي** » ، مقال منشور بمجلة « الفكر المعاصر » القاهرة ، العدد 17 ، نوفمبر 1966 . وقد اعيد نشره مع مقالات اخرى في كتاب عنوانه : « آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة » ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1975 (ص ص : 229 ـ 240) .

16) نود ، بهذه المناسبة ، الاشارة الى ضعف الحصيلة المعرفية الفلسفية لناصيف نصار ، اذ نجده يعتمد ، في مناقشة مسالة اعتباطية او توقيفية العلامة اللغوية على « اقراطيلوس » افلاطون ، و « الاحكام في اصول الاحكام » للآمدي ، متجاهلا كل التراث الحديث في هذا المجال ، وكل الدراسات اللسنية المعاصرة المتقدمة حول ذات الموضوع.

بيروت ، وبيروت مضادة

ارشاد حسن

مدخل ان النص الذي نعتمده في هذا البحث هو رواية (بيروت 75) لغادة السمان ، ونقترح على القارىء الموضوعات التالية في معرض مناقشته :

1 ـ غادة السمان في مواجهة بيروت .
2 ـ الشخصيات في الرواية : الموقع ، والموقف الطبقي .
3 ـ الموقف الروائي : من الادانة الى الانحياز
4 ـ تخطيط فني لعالم وجودي في أبعاد واقعية .
5 ـ ارادة القتل ، وقتل الارادة .

1 ـ غادة السمان في مواجهة بيروت

في رواية غادة السمان (بيروت 75) (1) معالجة يتكامل فيها الخاص بالعام : بيروت كعالم ، كواقع حضاري يعكس ممارسة اجتماعية في ظرف تاريخي محدد . وبيروت كبعد تاريخي لازمة بنيات وتركيب المجتمع العربي ، وبالنتيجة لأزمة الطبقات المستفيدة من هذا المجتمع بالاستغلال أو بالقمع أو بفرض الامر الواقع أو بالتخلف أو بشروط محتملة غير هذه

الخاص والعام متداخلان . يتقاربان ويبتعدان من منظور الكاتبة وقد حركت شخصياتها في اتجاهات شتى ، متداخلة ومتعارضة للتعبير عن موقف سنرى أبعاده السياسية والايديولوجية . انما هناك تكامل لا ينفصم ، فبيروت طورا هي ابعد طرف في اللامبالاة السياسية تجاه الاعتداءات الاسرائيلية (الضغط من الخارج) وهي في طور آخر مستشفى رهيب لمجانين أصابهم التخبط وسيطر عليهم الجشع المادي والهلع المعنوي (الضغط من الداخل) وهي في اطوار أخرى الوجه المتخلف لنمط العلاقات الطبقية الرأسمالية التي تفرض بدورها قيما متخلفة نابعة من شروط نفس النمط ، والسائدة بهذا القدر أو ذاك في الظروف المحددة التي تسيطر فيها البورجوازية الهجينة على زمام الامور سيطرة غير مشروطة الا بتبعيتها للنظم الامبريالية.

وقد أرادت غادة السمان من وراء ربط الخاص بالعام ، اعطاء صورة عن وضع تقريبي يتداخل فيه الحضاري مع المتخلف ، والبورجوازي الراسمالي مع الشعبي ولو بصورة عامة وغير دقيقة في التفاصيل . الديالكتيك هنا يلعب دور ابراز هوية معينة مشخصة ، من خلال ابراز نقيضها والدفع به الى مجال المدارة حتى يقرر بدوره نهاية ما للأحداث والمواقف والشخصيات . وعلى هذا النحو قامت غادة بتركيب عناصر الوضع من أظهر قضاياه ، هي على وجه التحديد ، القضايا العامة التي يعكسها المجتمع الطبقي في تناحراته (التفاوت، الاستغلال) دون أن يعني هذا أنها جسدت هذه القضايا بصورة كافية ، أو أعطتها حلولا مقبولة أو قريبة من المقبول طبقيا وسياسيا على وجه العموم .

لكن المعنى الهام لهذا الصنيع على مستوى الرواية ، كاطار ايديولوجي للابداع الفني ، هو الاهتمام أولا باستيعاب التناقضات الاجتماعية معرفيا ، واختيار العناصر المعبرة عنها دون اخلال بالرئيسي فيما يمكن أن تعبر عنه ، ثم ـ وهذا ثانيا ـ القدرة المنظمة الواعية ،بغض النظر عن صحتها من الوجهة السياسية أو الفكرية ، على بلورة رؤية الكاتب (الكاتبة هنا) من هذه التناقضات ذاتها ومن الوضع بالاجمال . مما يعني أن رؤية التناقضات في المجتمع هو بدرجة ما موقف من الصراع ، الذي هو موقف من العالم طبقيا ، وها هنا يخدم الابداع مرة أخرى قضية واقعية في الصميم ، ويخدمها على نحو سيجرنا مع رواية (بيروت 75) الى الاقرار باهمية الوعي الطبقي ـ السياسي في صياغة الادب والفعل به في مجال الصراع الايديولوجي كوجه من وجوه الصراع الطبقي .

أن رواية (بيروت 75) على هذا الاساس ومن منظورها الطبقي تتعامل مع صورة مألوفة للمجتمع ، سائدة بحكم واقع تاريخي معين ، تعاملا نقديا ، الصورة المألوفة هي بيروت في الحضارة والتخلف في الاضطهاد والرفاه ، في الجنون والمقامرة . والواقع التاريخي المعين بالذات هو هيمنة الكومبرادور وتسلطه القهري ضمن الشروط التي يعرضها لهذه الهيمنة : القمع والاستغلال . وسيكون التعامل النقدي هو ما اقترحته غادة السمان ، بناء على تحليل واقعي فني ، من أجوبة سياسية أو غيرها ، لفك عناصر الازمة أو لتعقيدها ، سيان .

ان الانطلاق من الخاص كان لغرض واحد هو الاستنتاج، كما أن الوصول الى العام كان بدوره يخدم هدفا واحدا : التقرير . لقد عبرت غادة عن الاول بوصفه يقدم لوحة عن الوضع (بيروت) في حركة من الصراع والتناقض ، ذهابا من المصالح ، وايابا الى الممارسة . كما عبرت عن الثاني بوصفه خلاصة سياسية ، أو حكم قيمة مشبعا بالاتهام والادانة . وقد تعاملت غادة ، من خلال هذا الطرح ، مع (بيروت) خضوعا لموقفها الثابت منها ، أي بالاستناد الى تفسير تكون لديها من خلال المعايشة اليومية ، ولم يكن

الشكل الادبي (الرواية) الا لحصر هذا التفسير في مقولات يعبر عنها الاشخاص وهم في حركة مستمرة من التناقض والممارسة ، وجعله (أي التفسير) يأخذ صفة مؤشر ، دلالته في حكمه الخاص ، نستطيع بواسطته ان نميز بين ما هو ايجابي فنقبله ، وبين ما هو سلبي فنرفضه ، أو هكذا أرادت غادة السمان أن توحي نصا ومعالجة للقارىء العادي . وسنحاول فيما يلي أن نقترح خطوطا عريضة للتعامل مع فصول الرواية نظريا .

أ ـ ان (بيروت 75) هي أول رواية تنتجها غادة السمان من موقع معاناتها لخصوصية الوضع « الحضاري » الذي يتمتع به لبنان وموقعه في خريطة الوطن العربي ، (فبيروت) في الرواية ، عدا صفاتها الضمنية ، هي قبلة أشخاص دفعتهم تصوراتهم الطبقية الى نهج أسلوب ذاتي (بالاستناد الى رؤية ايديولوجية مغلوطة) يصبحون بها في الوهم (أو هكذااعتقدوا) على جانب كبير من الشهرة والثراء . ان (بيروت) بهذا ، هدف طبقي ومصلحة ذاتية . ولقد كانت غادة السمان واعية بذلك غاية الوعي عندما نقلت (فرح) من دمشق الى بيروت وألقت به في دوامة الحيرة والبحث ، مدارهما الشهرة والثراء ، دون أن تسمح له بالوصول الى مبتغاه الا على نحو عكسي : الجنون، أو من حيث يصير الجنون محصلة منطقية لتطلعات البورجوازي الصغير . كما أنها كانت واعية أيضا عندما جرت (ياسمينة) الى القبول بجعل (بيروت) **مكانا** لتفسيراتها الذاتية . ومن ثم فجرت فيها كل دواعي البحث عن منطق تبريري وصولا الى الشهرة والثراء أيضا ، كتجاوز لحرمانها الطبقي الذي عانت وتعاني منه . ولكن غادة من جديد ، وكما فعلت (بفرح) لم تسمح (لياسمينة) بالسير طويلا في هذا السبيل ، ففرضت عليها موقفا اجاز لها فقط تحركا محدودا في الوهم ، ينتهي بها مباشرة الى القتل . ولذلك كان القتل كما كان الجنون بالنسبة لفرح ، خلاصة مركزة ومنطقية معا تجيب على دوافع وخصائص ذهنيتها الطبقية البورجوازية الصغيرة .

الا أن (فرح وياسمينة) في الاخير ليسا الا رؤية منسجمة لمشكل واحد في الاصل : نهاية الطريق البورجوازي الصغير نظريا وعمليا . وسواء تفطنت غادة لهذا الاستنتاج أم لا ، فان ما عالجت به وضعية (فرح) وكذا (ياسمينة) لا يخرج عن هذا التفسير .

ب ـ في (بيروت 75) وجهة نظر سياسية ، محتواها تاريخي وزواياها حضارية . لقد أرادت غادة أن تقول بعبارة واحدة : ان بيروت مستشفى مجانين ، وحتى تضبط صياغة هذا القول الايديولوجي ، عمدت الى اقامة رقابة صارمة على تحركات الاشخاص وعوالمهم : ذهب (فرح) كما ذهبت (ياسمينة) ـ وقد أشرنا الى ذلك ـ في الطريق البورجوازي الصغير ، مقودان الى الافلاس غاية . وسيذهب (مصطفى ـ نيابة عن أبيه بومصطفى) الى الانتماء الطبقي

السياسي كاختيار منه ، وفيه جواب على شروط ظروفه المادية المزرية (صياد معدم) . وهو ذهاب ديمقراطي تقدمي بقي غامضا أو وجوديا . وانتهى (طعان) و (الملا) كل من موقعه الخاص في التعامل مع ظروف حياته ، الى موقف عدمي أو شبيه بالعدمي ، وذلك بانتحار أبي الملا الغامض ، وتورط طعان في جريمة قتل ارادية ، تحسبا منه لما كان ينتظره من قتل بطريقة عشائرية لم يشارك في اقرارها ، مرفوضة في وعيه ، ولكنهامفروضة عليه بحكم ترسبها في البنية الطبقية القبلية التي ينحدر منها ....الى آخره .

ان هذه الرقابة المخططة هي وجهة نظر في الصراع وأطرافه ومحيطه : المصالح + التناقض + بيروت ، واذا وجهة نظر فيما هي عليه بيروت كنموذج مصغر للمجتمع الطبقي من أزمة وشروط انتاج الازمة ، وبالطبع فغادة السمان لا تقترح حلولا معينة جاهزة . ان ذلك لا يرد في الرواية الا في علاقة بممارسة الشخصية وتطلعاتها في الاخير ، وكل مظاهر الادانة التي نلمسها فيها (قتل ، انتحار ..) أو المصادقة (انحياز ، تعاطف..) ما هي الا علامات على طريق ايجاد حلول شاملة للتصورات الايديولوجية ، صوابا أو خطأ ، التي يتبناها اشخاص لا تتفق غادة معهم على طول الخط .

من الواضح أن الكاتبة التزمت برؤية محددة في التعامل مع نماذجها ولكنها في الغالب ، رغم أنها تعاطفت ولو بصورة عامة مع (مصطفى) لانه تبنى اختيارا نضاليا ، ركزت على مفهومات وجودية غاية في التجريد والفوقية. والرواية من هنا فيها طرح واقعي تم اجهاضه برغبة كبيرة في التعامل الوجودي الفلسفي مع شخصيات وتصورات ايديولوجية ومصالح طبقية موجودة حقيقة في المجتمع اللبناني أو غيره وجودا تاريخيا .

ج ـ ان رواية (بيروت 75) كما يبدو تصلح لان تكون مدخلا جزئيا « لدراسة » الحرب الاهلية في لبنان ، وذلك لان غادة أوحت في آخرها بتفجرات غير معلومة (2) أركام متعاظم من الاحداث والصراعات والاتجاهات المتعارضة، كان هذا بصورة نظرية وسياسية ولذلك انطبق على تخطيطه الفني في آخر الرواية أيضا عندما ركزت الكاتبة على « نوع » من الكوابيس تتداخل فيها صور الفانتازيا بالهلوسة ، وصور الواقع بتأملات خيالية عاشها (فرح) في لحظة من الجنون التام ، كما عاشتها بيروت على ارضية من الصراع الاجتماعي. ولذلك لم يكن من الغريب أن تتابع غادة منوالها في الابداع ، فتصدر رواية (3) عنوانها ـ على الاقل ـ على ارتباط وثيق بختام (بيروت 75) .

ان التاكيد على هذا الارتباط، يعني في رايي أن الكاتبة انطلقت في المعالجة الاولى من أرضية واقعية ، لتنتهي في الرواية الثانية الى حلبة حقيقية ، دارت فيها حرب أهلية مدمرة ، والترابط من الناحية النظرية والسياسية حاصل بين الروايتين في النتائج . وهكذا يصبح جنون (فرح) وفي التحليل الاخير ،

جنون الطرف الانعزالي في المغامرة بالدعاية الطائفية العنصرية والحرب للنيل

من الثورة الفلسطينية وحليفها الموضوعي الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، كما أن انتماء (مصطفى) بوعي طبقي ، ولو أنه بقي غامضا وفيه جانب ظاهر من الافتعال ، يصبح هو نفسه ، وفي اتجاه آخر ، انتماء الجماهير اللبنانية الى النضال السياسي والطبقي ضد الاستغلال والقهر ، وفي اعتقادي أن معروف سعد (شهيد نضال عمال الصيد اللبنانيين) هو بدرجة ما مصطفى السماك في الشروط المادية الموضوعية ـ على الاقل ـ التي حركتهما في النضال الوطني.

لقد تنبأت غادة السمان بجنون الحرب الاهلية وقدمت شواهد غاية في الدلالة على أهوالها ، فكان أن استخلصت بدقة من واقع بيروت اساليب الحكم على لبنان من حيث هو مستشفى للمجانين . والاطلاق هنا ـ بحكم السياق الذي جاء فيه ـ يخص بالذات مكان فئات أو طبقات أو معبرين عنها ، انخرطوا في الصراع من زاوية المصالح وحوافزها الذاتية .

د ـ هذه بصفة عامة ومختصرة هي الخطوط النظرية العريضة التي تحكمت ـ برأينا ـ في صياغة (بيروت 75) ولعله من الضروري ، تمهيدا للخلاصات التي نود الوصول اليها ، أن نعمل على مقاربتها بمشاهد النص ومواقف الاشخاص والظروف التي تحكمت في نشاطهم الاجتماعي ، وفي الاخير، بالمصير الفردي / الجماعي ـ وهو يجيء كاقتراح فني ونظري من غادة ـ الذي كان غاية بحثهم ومبرر صراعهم ونهاية طبيعية لاسلوب تفكيرهم الطبقي . وسنعمد بناء على هذا الى طرح السؤال التالي : ما موقع الاشخاص في الرواية، وكيف تحركوا بناء على خصوصية تفكيرهم الذاتي في الحياة ؟ ثم ـ وهذا سؤال فرعي نلحقه بالاول ـ ما النهاية التي عجلت بمصيرهم ، وهل هناك فرز حقيقي ، من طرف غادة لموقف معين يمكن أن يكون دلالة على بحث جاد لمخرج الصراع ؟ .

2 ـ الشخصيات في الرواية : الموقع ، والموقف الطبقي

أولا . قبل الجواب عن السؤالين اللذين طرحناهما قبل قليل ، سنعمد الى تبيان المسار العام الذي انتهجته الرواية فكريا وفنيا من زاوية البحث عن مبررات الصراع أولا ، ثم حلوله الممكنة ثانيا . ونستطيع أن نميز منذ البدء أربعة خطوط رئيسية قامت عليها أرضية فكرية نعتبرها منذ البدء ايضا رؤية سياسية وايديولوجية عبرت بواسطتها (غادة) عن اهتمامها المرحلي بقضايا الصراع الاجتماعي في لبنان . ان الرواية بهذا المعنى تعيش اللحظة التاريخية في خضم الصراع وتحاول أن تتفهمها ومنه موقفا انحيازيا، لا نستطيع أن نتبين قيمته الذاتية، المعنوية والفكرية، الا بعرضه على الوجه الاكمل. ونحن

بهذا نفترض أن غادة بأورت وجهة نظر معينة وحاولت أن تفصل الاحداث والتطورات وحركة الاشخاص والقضايا التي عاشوها ، وفقا لزواياها . وذلك عمل مشروع فنيا في حدود الاستيعاب الواقعي لطبيعة الوضع الاجتماعي والتعبير عنه نقديا ، ذلك ما فعلته غادة ومن المفيد أن نرى كيف .

الخط الاول : فرح من دمشق الى الجنون

ان فرح في الرواية شخصية محورية لا تفهم باقي الاحداث فيها الا بدوره. فهو اولا عقلية بورجوازية صغيرة ، وطرف مركزي في اقامة الحجة التاريخية والسياسية على افلاس فكره عندما تعامل مباشرة بهذا الفكر مع وسط فيه اغراءات شتى ، لعل ابرزها هو امكانية الحصول على ما يقضي على الحرمان الذاتي والطبقي الذي عاش فيه لزمن طويل ، بطرق سهلة وقصيرة وخاطئة ، انه بمعنى آخر يمثل ما يمكن أن تفضي اليه الوصولية من افلاس معنوي واجتماعي ، كما يمثل حاقة ضعيفة لارتباط النموذج البورجوازي الصغير الوجردي بوسيط ووسط كومبرادوري ، تبيح فيه السمسرة لنفسها أسلوب تشويه الذات الانسانية وجعلها بضاعة خاضعة لسوق العرض والطلب ، وسوف نرى أن هذه الوجوه واضحة في الرواية بدرجة كافية . ولعل غادة ركزت عليها عمدا لتدين هذا الشكل من الممارسة بمختلف ارتباطاته ادانة صحيحة من بعض جوانبها .

ينتقل فرح من دمشق الى بيروت ، وفي نيته أن يعود « ثريا ومشهورا » لتجاوز الحرمان الطبقي . فالثراء / الشهرة في بيروت معادل ، يكاد أن يكون موضوعيا من وجهة البورجوازي الصغير وحساباته ، لفقر وحرمان دمشق ، أو بالتخصيص لفقره وحرمانه هو . والخاص بهذا المعنى هو الذات وقد علت طموحها برجاء محتمل في الشهرة والاثراء السريع ، والعام بهذا المعنى أيضا هو بيروت ، وهو عالم من المواصفات ترتبط في ذهن فرح بقيم أخلاقية وسلوكية ، انها بعبارة أخرى الموضوع الذي ستنطبق عليه ذات فرح ، دون أن يكون لهذا الانطباق معنى النجاح بالضرورة . فالتضاد قائم ، وهو الذي سيقرر نهاية فرح ، كما سيدفع به استخلاص حكم غير مشروط على بيروت انطلاقا من فشله الذاتي في تحقيق ما كان يامله من شهرة وثراء . وعندما يجد نفسه غارقا في بيروت وهو يحمل رسالة شخصية الى ابن عمه الثري (نيشان) ـ يتحسسها بين الوقت والآخر حتى لا يفقد ارتباطه المصيري بها ـ يتنبه الى أنه ردد مع نفسه وهو في مدخل بيروت كلمات (دانتي) الرهيبة « يا من تدخل الى هنا ، تخل عن كل أمل .. » . لقد افترض الجحيم منذ البداية ولكنه أراد أن يتجاوزه مدفوعا برغبته في الشهرة بالنجاح ، فكان أن جن من فرط هذا النجاح ذاته ، وذلك على نحو عكسي بالطبع .

من هنا اذا يبدأ مسلسل ضياعه وفشله القبلي : انه وحيد وضائع (4)

ومندهش (5) اندهاشا أخلاقيا وجنسيا ، وواقع في أحبولة الغربة ، لا يهمه فقط أن يعالج وضعيته هذه ، بل يهمه أكثر من ذلك أن يجد (نيشان) ، أي أن يرتبط بأقصى سرعة ممكنة بهدفه الذاتي المحتمل . وعندما يعجزه ذلك في مرحلة أولى ، يتحول الى مشاهد خاص يبلور انتقادات سياسية للوضع الذي عليه بيروت كمكان تاريخي يعج باللهو والصراع وتطغى عليه اللامبالاة ، وهو مكان تاريخي لممارسة البورجوازية دون أن تهتم غادة بابراز الجانب الجماهيري الآخر والنقيض . ولذلك راح يعنف لامبالاة « الشارع » اللبناني في وقت اقتحمت أجواءه غارة اسرائيلية منظمة (6) وجد نفسه معها يردد في حسرة عميقة قوله « مجانين ... » الى آخره ،،، وهو هنا لم يتخلص بعد من احساسه الوطني الذي اكسبته خبرة العدوان الاسرائيلي اياه عندما كان مواطنا « قنوعا » بحرمانه الطبقي في دمشق ، وسوف يندثر هذا الاحساس حالما يجد نفسه مندمجا في تطلعاته الذاتية وقد عثر في « نيشان » على خلاصه وجذونه معا . فمعاناة فرح في المرحلة الاولى خليط من الوحدة والضياع والاحساس بضيق المكان وأشياء أخرى على صلة وثيقة ببحثه المستمر عن غاية محددة ، يجد في الوصول اليها موانع مادية (7) ، وهي موانع تعكس بالدرجة الاولى قدرته على التحمل في سبيل الشهرة كما تعكس اصراره على المضي دون كلل الى ما علل نفسه به (8) . وقدرته في هذا المجال تستند الى تصور ايديولوجي مشوه بمثابة حافز منشط يجعله يعلل نفسه فترة بعد أخرى ـ طالما أن اليأس يعني الفشل في الوصول الى مسعاه ـ بسند معنوي خفي ، أي يوجد في لا وعيه حاملا اياه على متابعة خط البحث عن (نيشان) كخط يوازي البحث عن ذاته .

ان العثور على (نيشان ـ الوسط الكومبرادوري) يرد في الرواية مقرونا بمعاناة وجودية (9) أي برحلة لهدف مفترض ولكنها عبثية ، ذلك لان الجذون ، التشوه النفسي ، الاضطراب المعنوي ، كل ذلك قطع عليها خط الرجعة ، وأجهض لها ـ من الطرف الآخر ـ حكم الوصول النهائي . فظل فرح محروما نفسيا وهو في بحبوحة طبقية ظاهرة ماديا ، ومقموعا وهو أشهر ما يكون ، وفقيرا وهو على نحو من الثراء كبير . ومعنى هذا انه وقع في فخ وسيط كومبرادوري لا يقيم وزنا للاعتبارات الانسانية ، بل ان كل ما يهمه هو السمسرة الناجزة والاقطاع الرخيص (10) . تلك شروط مملاة ، ولكنها على كل حال ضريبة مفروضة على الذهنية الطبقية البورجوازية الصغيرة وهي في أشد حالاتها اضطرابا وتهورا . لقد تحالف فرح بذلك مع « الشيطان » الكومبرادوري (نيشان) وتحول الى قزم مجنون وكان عليه (11) من هذه النقطة أن يبدأ في التراجع الاعمى حفاظا على قدر ضئيل من الاستمرار بقي له من الرحلة الخائبة . أغراه المال فوجد نفسه محكوما به ، وتطلع الى الجنس

فوقع في الشذوذ (12) وطلب الشهرة فانشطر على ذاته (13) وبمعنى ما ـ حسب ما يقول هو عن نفسه ـ تحولت فيه رجولة دمشق الى أنوثة بيروت . وهو بذلك يصادق على خيبته ويهيء المقدمات الضرورية ليتخلص من عذابه الرفيع .

في هذه الاجواء تبدا تراجعات فرح(14) دون ان يعي أنه بها سيقع في مطبةالعودة الى نقطة الانطلاق. انه يتراجع من غير أن يحرز أي مكسب ملموس من تجربة الاحباط المعنوية، وكأنه لم يستفد بمعنى آخر الا في قمة السقوطالذاتيالمرتبطعلى نحو شديد الدلالة بمأزق عالمه الجديد ، وهو لذلك تراجع يحتل فيه الانشطار الذاتي في الشخصية مركز التوجيه (15) تاركا اياه يستخلص ما لم يعه من قبل : « ما أجمل هذه المدينة (يقصد بيروت) من بعيد ... » (ص 84) وهو استخلاص مأساوي يحكم على تجربته بالعقم والبوار وعلى آماله بالتحطم واللاجدوى ، وهو برأينا (أي الاستخلاص) موقف البورجوازي الصغير ايديولوجيا وفكريا من الهزيمة الذاتية والفشل يقضه دون قيد ولا شرط .

نلاحظ في هذا الخط ، أن صعود البورجوازي الصغير (القروي أو المديني) ينطلق من شروط الواقع المادي بما فيه من حرمان وضغوطات معنوية . وقد اتجه أول الامر ـ مدفوعا بالشهرة والاثراء ـ الى تبرير كافة العوائق التي سوف تقف في وجهه ، بل والى تخطيها العملي واضعا نصب عينيه هدفا مأمولا ومفترضا ، أي واقعا بحكم التصورات المسبقة عليه في دائرة طبقية أخرى غير تلك التي انطلق منها . ففرح بهذا المعنى اراد ان يتجاوز وضع البورجوازي الصغير المحروم بالارتباط رأسا بالنموذج الكومبرادوري ومواصفاته في السلوك والممارسة دون أن يكون لديه من المؤهلات الموضوعية والذاتية ما يجعله يصل اليه أو يستفيد منه أو يتقبله فيندمج فيه . لقد أراد بعبارة أخرى أن يختصر الحرمان الطبقي بجنون واقعي في التسلق والوصولية وانتهاز ما يمكن انتهازه دون اعتبار لنتائجه الفورية أو المؤجلة ، وكل ما يمكن أن نحاكمه في هذا المجال هو الوعي الطبقي ـ السياسي ذاته الذي جعله يركن الى مواصفات بورجوازية في الثراء والشهرة دون أن يستطيع الحكم عليها كمصالح أو يستفيد منها كواقع ، وبالطبع فان وعيه الطبقي هذا، المتخلف والتبريري، متاثر بهذا القدر أو ذاك بالايديولوجية العامة التي تعرضها الطبقات السائدة في المجتمع للاستهلاك والتوجيه . ولذلك ففرح واقع من حيث يدري او لا في أحبولة التوجيه الطبقي البورجوازي ، ويسير فيه سيرا تصاعديا وقد يتعرج مع تعرجاته دون أن يملك القدرة على تجاوزه أو حتى محاكمته .

ومن المفروض أن غادة السمان عندما عرضت هذا الخط ـ والهزيمة والاحباط فيه ظاهرتان متلازمتان ـ أرادت أن تدين الذهنية الطبقية البورجوازية

الصغيرة بالاستناد الى الوقائع ، من غير ان تستطيع اقتراح بديل موضوعي لهذه الادانة المهمة ، وفي رأينا أن شروط الادانة كافية من الناحية النظرية والتاريخية أيضا ، ولكنها ناقصة ايديولوجيا . ذلك لان اسسها في النص ظلت وجودية من الوجهة الفلسفية .

كما ان غادة السمان عندما عرضت هذا الخط أرادت ان تعبر عن واقع طبقة لها جسم كبير في العالم العربي (البورجوازية الصغيرة) وأرادت أن تعبر عنها من زاويتين :

1 ـ زاوية الحرمان الموضوعي الذي تتعرض له ، حسب الظروف الملموسة الخاصة بكل مجتمع ، اقتصاديا بالاساس وسياسيا واجتماعيا بالدرجة الثانية ، وذلك لكون غالبية فئات هذه الطبقة مشمولة بالاستقلال والقمع اللذين تمارسهما الطبقات السائدة في المجتمع (الكومبرادور ، أنظمة بورجوازية الدولة ...) .

2 ـ من زاوية المعالجة الذاتية لخصائص هذه الطبقة على وجه العموم : التذبذب ، المساومة ، رفض التنظيم والانتظام ، التفسخ .. وهذه معالجة ايديولوجية انقادية ، ولكنها ، في الغالب ، لم توفق في تسديد «نقد بالكلمات» لتلك الخصائص ، أو ان غادة فعلت ذلك ـ جزئيا ـ بالخضوع للممارسة من وجهة فلسفية ظاهرة : الغربة ، الضياع ، الوحدة ، الجنون .. والسؤال هو هل ان بيروت كمكان تاريخي وميدان صراع طبقي هي التى تدفع البورجوازي الصغير الى الضياع والغربة .. أم أن شروط وعيه الطبقي ومصالحه الذاتية (الشروط المادية الاجتماعية) هي التي تعمل على ذلك ؟ . ان الجواب واضح من تحايلنا . وهو في الاخير لا يتعارض مع المصير الذي انتهى اليه فرح ، ولكنه وبالحق ، يقف على النقيض مما حاولت أن تلمح اليه غادة غير ما مرة في سياق معالجتها لفرح ، وكل ما يجب أن ننتبه اليه هو أن غادة كانت مدفوعة بموقف قبلي ازاء وضعية البورجوازي الصغير ، وهي لم تفعل لذلك ـ عدا أنها لم تترك له مجالا في الرواية لنمو اهتماماته وأسلوب ممارسته بصورة كافية ـ سوى أن عجلت بدفعه الى مواجهة صعبة : العودة الى دمشق ، أو الاستمرار في الفشل الذاتي الذي يدفع فيه حياته وعقله . والمواجهة من أصلها صعبة ، معقدة واحادية ، فلا العودة من الحلول المنطقية لمثل هذا المأزق ، ولا الاستمرار الفاشل كذلك . ان الحل بعبارة أخرى لن يكون الا وفق الممارسة بالوعي والوعي بالممارسة ، فهل كان على فرح أن يجرب أسلوب النقد الذاتي لحل تناقضاته والتخلص من ورطته ؟ يجب أن نقول : نعم ، ولكن بناء على الاهمية المعلومة لذلك وضرورته ، وبناء أيضا على ما يدفع به الى ذلك (التصور الواقعي لحياته المادية والشروط الموضوعية المحيطة) . ان خط فرح لا يمكن أن يفهم بعمق الا في ارتباط مع ياسمينة وطعان .

ياسمينة = الحرمـان من دوافـع القتـل

بدءا ، يجب أن نسجل أن ياسمينة ذهبت في خط فرح . فهناك على نحو ما بعض التماثل الظاهر بينهما على امتداد خط المنطلق / الهدف (أنظر الشكل رقم 3 في آخر البحث) . جاءت من دمشق الى بيروت طلبا « للشهرة والثراء » (16) بعد أن أذلها الحرمان على جميع المستويات ومارست حيث ارتضت كل أشكال التصعيد جنسا وحرية وحبا ، ولكنها مارست أيضا تحت ضغط وعي مشوه اختلطت فيه منذ البداية طموحات مستحيلة برغبات قصيرة متوردة بأحلام عريضة ، وكان من الطبيعي لذلك أن تنتهي الى ما انتهى اليه فرح بطريقتها الخاصة ، لكنها قبل أن تصل الى درجة السقوط فالموت المجاني كضحية للتصور الوهمي والعرف الاجتماعي (= الشرف) . جربت التمتع بكامل انطلاقها (17) فوقعت من ثم في قبضة البورجوازي (نمر) وهـو الذي طور فيها احساسها بالرغبة في الحياة على نحو لم تعرفه من قبل ، فكان أن غرر بها آخر الامر ، فاستحالت فرقتها عنه أو فرقته عنها ، سيان ، الى تحسر وغم ، ثم الى عامل من العوامل التي مهدت لقتلها قتلا بائسا على يد أخيها العاطل (الذي انتقم منها بدوره طلبا لمركز اجتماعي لم يكن بمستطاعه أن يحصل عليه الا على جثة أخته وذلك بافتعال « فضيحة » اخلاقية تمس « شرف » البورجوازي (نمر) و « كرامته ») . لقد مر فرح بهذا الطور صحبة الكومبرادوري (نيشان) وانتهى به المطاف الى حيث انتهى بها ، مع فـرق في الطبيعة واتفاق في الجوهر (الجنون = القتل) . من هنا نستطيع أن نلمس وجوه التماثل الدال الذي اقامته غادة بين فرح وياسمينة ، كما نستطيع أن نستخلص منه ما يلي :

1 ـ القادمان من دمشق الى بيروت طلبا للشهرة والثراء ، والمحرومان طبقيا ، والخاضعان بحكم الذهنية والافكار والتصورات والمواقف للايديولوجية السائدة وقد اتحدت بها الطموحات البورجوازية الصغيرة ، يقعان معا في فخ الحلول البورجوازية لمصيرهما ، فيتسلقان سلم الشهرة سريعا ومؤقتا ، ثم ينحدران سقوطا مفجعا ، الى حيث ينتهي الامر بأحدهما الى الجنون ، ويفقد الثاني حياته . هذه رحلة خائبة والسلام !

2 ـ ان غادة تحكم بمنطق واحد على وصولية البورجوازي الصغير ، ولذلك تضطر الى وضع التماثل المشار اليه، في الجزئيات والمواقف الاساسية مستغلة بذلك جميع ما يلزم : الذهنية ، والتكوين ، وتنـاظـر الاحـداث ، واللغة بدلالاتها الايحائية ، والتداعي ، والاصل الطبقي ... الـى آخـره . انها تضع التماثل بعبارة أخرى على مستوى التحرك من المنطلق الى الهدف. وبذلك كان حكمها حكما عاما لا يتطلب منها سوى الوضـوح السياسـي ـ الايديولوجي في الغرض الذي تريد أن توحي به . وقد اتبعت الكاتبة التاكتيك

التالي : استدرجت في الاول فرح وياسمينة الى جحيم بيروت بعد أن جملت لهما منطق الشهرة ، ثم ربطتهما بوسط سمسار سخر هذه الشهرة لمراكمة ثرواته المادية (نيشان) أو لتلبية رغباته الذاتية (نمر) . وهنا زرعت فيهما بذور التفسخ المعنوي ، وانطلق تراجعهما يوحي بالانهيار حتى أوقعهما في مصيدة واحدة : الجنون / القتل .

ففرح ضحية نيشان + الشهرة + طموحاته الذاتية + وعيه المتخلف . وياسمينة ضحية نمر + الشهرة + طموحاتها الذاتية ووعيها المتخلف ، ولذلك كان تاكتيك غادة في التعامل مع حركتهما ومصيرهما تاكتيكا لا يقبل بالمفاجأة ، بل بعرض النمو في ذات الشخصية صعودا بها الى القمة فنزولا بها الى الحضيض ، انه تاكتيك الابداع الفني وقد ارتكز على موقف ايديولوجي يبحث عن المعنى في الممارسة العملية (بغض النظر عن صحته) .

3 ـ لقد جاء التماثل على نحوين : ماديا ومعنويا ، ارتبط الاول من جهة بالموقع الذي انطلقا منه (= دمشق) والموقع الذي أصبحا فيه (= بيروت) وكذا في الشروط المادية التي غيرتهما (= المال) وصولا الى النتيجة (= الفشل بالعودة لفرح ـ والفشل بالحب لياسمينة) . وارتبط الثاني بالموقف الذي دفعهما الى البحث (الحرمان الطبقي والمعاناة الذاتية) وبالموقف الذي استخلصاه من الممارسة (= السعادة المرحلية) وانتهاء بالاحباط النفسي الذي طوقهما ، فانشطر به فرح على ذاته وتعمقت الخيبة في دواخل ياسمينة من حيث أرادت تجاوز الكبت الجنسي . وهكذا مر النحو المادي من نيشان الكومبرادوري ونمر البورجوازي الى الجنون أو القتل . ومر النحو المعنوي من الطموح والمجازفة به في لعبة خاسرة طبقيا ، الى الانحلال والمرض (عصابيا كان أم نفسيا) . ان التماثل بهذه الصورة يقدم في الرواية شهادة اثبات ضد المنطق البورجوازي التبريري ، ولذلك تدينه غادة من خلال الوقائع ادانة فعلية ، دون أن تغفل الاشارة الى حلقة مهمة فيه : العدمية .

« طعان » : التخريج العشائري للجريمة

لم نشر لحد الآن الى أن « الطاكسي » هو الآلة التي نقلت شخصيات الرواية كلها تقريبا ، أو الشخصيات الرئيسية فيها على الاصح ، من دمشق أو الطريق الى بيروت ، أي ان الطاكسي عند غادة هو أداة العبور العصرية الى مكان البورجوازية وأجوائها . وهو بهذا المعنى همزة وصل بين عالمين متناقضين على مستوى الصراع ، كما يمكن ان يكون علامة ارتباط تاريخي بين واقعين (دمشق بيروت) كان للاستعمار القديم فيه دور فك ارتباطهما، كما كان للاستعمار الجديد ـ الامبريالية دور تعميق هذا الفك واعطائه صيغة الاستقلال القومي ، من خلال فئات أو طبقات اجتماعية كانت لها

مصلحة محددة فيه بحكم ارتباطها العضوي به على مستوى المصالح والعلاقات وفي هذا « الطاكسي » بالذات حيثما نلتقي « بطعان » كشخصية لها دور محدود في الرواية . ونحن نلتقي به وهو في أشد حالات الانفعال والذعر تهيجا واصطخابا (18) . كما أننا نلتقي به وفي ذهنه صورة ـ مختلفة بالطبع عن الصور التي حملها فرح وياسمينة ـ ولكنها تجعل من بيروت (وهذا هو المركز الموحد) هدفا أمنيا هروبيا من متابعة العشيرة وعلاقاتها الثأرية القمعية . فهو اذا فر بجلده من قضية لم يكن بمقدوره أن يتجنبها ولو الى حين الا بالهروب واللجوء الايديولوجي الى حيث الاستقرار النفسي . ان طعان يحمل في ذهنه صورة بورجوازية أمنية عن بيروت كبديل للصورة العشائرية الاضطهادية . فحين لجوئه هو حين الخلاص الذاتي من قيم مجتمع يقمع الفرد دون أن يستطيع هذا الفرد حماية نفسه منه . وهذا وجه لقائه مع فرح وياسمينة ، كلهم لاجئون بمعنى ما ـ مع اختلاف في مبررات ودوافع اللجوء ، وكلهم يطمحون الى تجاوز واقعهم الذاتي (الحرمان أو الاضطهاد) وكلهم يقعون في فخ الهزيمة الذاتية مع تفاوت في مضاعفاتها بالنسبة لكل واحد منهم . لقد دعم (طعان) على طريقته الخاصة خط الدفاع البورجوازي الصغير عن المكاسب المادية والتسلق ولكنه مارس دفاعه، من حيث التفاصيل، في استقلال عن باقي الاشخاص، أي أنه كان يجابه مصيرا فرديا لم يكن له من الناحية العملية أي دور للتحكم فيه . كل ما في الامر أنه وقع بغير ارادته في المخطط المرسوم لتصفيته عشائريا (19) وقوعا وجوديا لا حول له فيه ولا قوة . ذلك ما أرادت أن تقوله غادة وأكدت عليه من خلال التفاصيل فأبانت من جهة كيف أن « طعان » التزم مع نفسه أن يعيش كبورجوازي صغير (20) ولكنه يفاجأ من جهة أخرى بقرار قتله أخذا بالثأر (21) فيضطر أن يهرب من هذا المصير شعوريا ولكنه يقع فيه من حيث لا يدري ، اذ يحمل نفسه ـ وهو المطارد عمليا ونظريا ، على قتل ضحية أخرى دون أن تكون هذه الضحية قد انتوت به شرا (22) . وقد استخلصت غادة من هذا الحادث رأيا وجوديا عبرت عنه بقولها : « لقد نجحوا في النتيجة بقتله بطريقة ما ، ارادوا قتله لاجل رجل لم ير وجهه قط ودفعوه ليقتتل بنفسه رجلا لم ير وجهه قط .. (ص 81) . اللا أدرية الفلسفية هنا تبحث عن سند واقعي من خلال نموذج نذر نفسه للحياة كبورجوازي، فلا تصطدم الا بالتخريج العشائري الثأري، وهو تخريج يرتكز بالاصل على العلاقات القبلية المتحكمة في سلوك العشيرة وتصرفاتها . وطعان هذا هو فرح الذي جاءه الجنون من الشهرة فانتهى الى السقوط، كما أنه هو ياسمينة التي جاءها القتل من « التحرر » الجنسي فانتهت الى الفشل . الخط البورجوازي الصغير من منطلقاته وطموحه ، خط لا يفضي بالضرورة ـ كما هو واضح من خلال النص الروائي (بيروت 75) الا الى الهزيمة التاريخية ، ومجدوع تكوينه لا يصمد أمام الافلاس النوعي المترسب في بنيته .

الخط الثاني = نمر ونيشان - أو قانون العرض والطلب :

لقد رأينا أن نيشان كان هدفا لفرح باعتباره وسيطا في عملية الحصول على الثروة / الشهرة ، وباعتباره أيضا في لا وعي فرح مرادفا لبيروت ، كما أن نمر كان بالنسبة لياسمينة هدفا آخر ربطت به مصيرها لزمن ، ثم فرط فيها فكان ذلك - بصورة غير مباشرة - من ممهدات القتل الذي مورس عليها ، والاختلاف بين الهدفين (نيشان / نمر) بالنسبة للشخصيتين الرئيسيتين في الرواية (فرح / ياسمينة) اختلاف في الأجواء والعلاقة فقط ، ففي الحين الذي يبدو فيه ارتباط فرح بنيشان كمحصلة لتوصية جاءت معه من دمشق وكافح ضد الغربة والوحدة من أجل تثبيتها والتمكن منها . في هذا الحين يظهر ارتباط ياسمينة بنمر كثمرة لبحثها الخاص المنفرد - الوسيط فيه هو طموحها - عن الحرية والمال والشهرة . فهنا تنطبق الذات على الموضوع تحت تأثير حوافز نفسية ورغبات شخصية ودوافع مادية . وهناك ، أى في الحالة الاولى ، تبدو الذات مدفوعة للانطباق على موضوعها بممهدات سابقة ، ولكنها ليست كل شيء فيه ، فالحوافز والرغبات الشخصية والواقع المادى تلعب بدورها جميعا لعبة التعجيل بهذا الانطباق ، وعلينا أن نلاحظ أن فرح وياسمينة مرا معا - في طريقهما الى الغاية المادية (= الشهرة ...) . بمحطة لا تصل فقط بين رغباتهما والواقع المادي الذي تحقق لهما منها ، بل وبالمصير الفردي الذي انتهى اليه كل واحد منهما ، فبمقدار ما كان الوسط الكرمبرادورى الذي تسلق اليه فرح معجلا بشهرته وجنونه ، بمقدار أيضا ما كان الوسط البورجوازي الذى فجرت فيه ياسمينة كل رغباتها المادية والمعنوية، معجلا بنهايتها الدرامية ، ولذلك يجب أن نقول أن هذين الوسطين كانا بمثابة خط فاصل في صراع فرح وياسمينة ضد حياتهما ومستقبلهما ، ولذلك أيضا جسدا في الواقع خط احتواء الهموم البورجوازية الصغيرة بمنطق تجاري بحت الجانب المالي فيه هو الاساس ، كما جسدا في نفس الوقت خط القضاء على هذه الهموم والاسراع باظهار افلاسها المحقق .

هذا على مستوى ارتباط الشخصية بالوسط ايديولوجيا . أما على المستوى الطبقي فلم يكن يهم نيشان الا الاغتناء على حساب صوت (مطرب الرجولة = فرح) والمزايدة به في سوق العرض والطلب (تدويل صوته ووجهه كنجم وفحل قروي (23) ولم يكن أسلوب العناية به (24) الا من أجل هذا الهدف بالذات لا دخل فيه للاعتبارات الانسانية . فالمنطق التجاري الصرف اذا هو الذى يحدد قيمة فرح عند نيشان كما أن المنطق التجاري هو الذي يحكم علاقتهما وهي بالضبط علاقة خضوع لسيطرة (أنظر الشكل رقم 6 في آخر البحث) . فالخط الكومبرادوري في التعامل هنا هو الذي يوجه ممارسة البورجوازى الصغير ويتحكم في سيرها تحكما مطلقا .

كما أن نمر لم يكن يرى في ياسمينة سوى جسدها البض (25) بما فيه / له من قيمة . انه في لذته محض انعكاس لثمن بضاعة مطروحة في السوق (26) قابلة للمضاربة وامضاء الصفقات . ويجب أن نقول أن ياسمينة كانت ترى عكس هذا على طول الخط ، لقد كانت أولا بأول مشدوهة بالبذخ البورجوازي وترف معاملاته وواقعة بحكم تصورها المشوه عنه في فخ مواصفات اخلاقية تورد لها ذلك بما فيه الكفاية (27) . بل راحت تضع المقارنات بينها وبين ذلك العالم مستخلصة مفارقة عجيبة ومعبرة في آن : « انه ليس فقيرا مثلي (تقصد نمر) لقد ولد وفي فمه دفتر شيكات . وولدت وفي فمـي كمبيالـة مستحقة .. » (ص . 13) وهنا المعنى فيما ستحمله هذه المفارقة من امنيات تحققت في ظرف وجيز بحكم انغماس ياسمينة في طلابها بالحاح ، ولكنهـا تحققت أيضا فكان في تحققها ما سيذهب بها الى الفشل التام آجلا أم عاجلا

ان نيشان ونمر من خلال هذا التحليل عالمان بورجوازيان قاما بدور تنشيط خيالات فرح وياسمينة وضاربا بهما في السوق البيروتية ، ثم عندما لزم الامر ، وازومه ارتبط بفشلهما . أعرضا عنهما وتحركا باتجاه البحث عـن مشاريع أخرى ، واذا كنا نعرف من خلال الرواية أن نمر تزوج من طبقتـه (ابنة الارستقراطي السلموني بك) وترك ياسمينة للضجر والوحدة (28) فان نيشان تحسر لجنون فرح لانعكاس جنون هذا الاخير على مشروعات الاول وسرعان ما أجفل فيما بعد عنه وتركه يهيم بجنونه دون أن يعتبر ان ذلك يدخل ضمن مسؤولياته الاخلاقية والادبية تجاهه . ان البورجوازية آخـر المطاف لا يهمها من أمر الانسان الا قوة عمله ومدى ما تدره من أرباح .

يمكن أن نقول الآن ان غادة السمان كانت واعية بالموقع الطبقي الذي وضعت فيه نمر ونيشان ، وكانت مدفوعة ـ بحكم موقفهـا الايديولوجـي والسياسي من طبيعة تكوينهما ـ الى حصر مهمتها في ترتيب أوضاع الشهرة وتجاوز الحرمان لفرح وياسمينة والاستفادة من ذاك على الوجه الاكمل ماديا ومعنويا والى قطع الطريق في الاخير على تحولهما الى اختيار آخر يعوض ما يقومان به (نمر ونيشان) من سمسرة ووساطة ، ولذلك سهل على غادة آخر الامر ادانة العقلية التجارية ومنطقها العددي لما تقوم به من دور تخريبي في المجتمـع وتشويهي في النفس الانسانية . ولكن هذه الادانة ستظل ناقصة ما لم تع أن الشروط التي جعلت من فرح وياسمينة أول الامر يقتربان مـن محيـط الكومبرادور البورجوازي والتلبس بأزيائه البراقة دون أن يكون لهمـا مـن الاستعداد الذاتي والقناعة المصلحية في الاستغلال ما يجعلهما قادرين علـى ذلك ، هي الاساس . لقد جاءت نقيصتهما الاساسية من قصـور وعيهمـا وتشوهه . وفي حدوده تمت كافة التسويات : الجنون والقتل ، مقابل المضاربة والسمسرة والاستغلال .

ان غادة السمان بالضبط ـ اذا وسعنا اطار المعالجة قليلا ـ تدين حركة خط سياسي طبقي وواقع طبقة سائدة في بعض المجتمعات العربية على مستوى السلطة السياسية وتتحكم في الخيرات الوطنية اقتصاديا ، وتشرع للقمع والارهاب اجتماعيا وفكريا .. وهي طبقة ما انفكت تعمق ارتباطاتها بالامبريالية فضلا عن أنها تدين لها بالدعم (عسكري ، مالي ..) المرغوب فيه لاستمرار نفوذها وتوطده .

الخط الثالث : فاضل بك السلموني ـ خرافة الارستقراطية :

لا يمثل فاضل بك السلموني أي دور فعلى في الرواية ، فهو فيها وعلى نطاق محدود لابراز واقع طبقة أو فئة طبقية سليلة اقطاع محلي قام نفوذها على التملك العقاري والتمليك الخاص بطرق اللصوصية والعنف ، ومن هنا جاء دوره المحدود هذا اما لترضيح طرح فكري تمثله هذه الطبقة أو الفئة على صعيد المجتمع البيروتي ـ اللبناني ، أو لتدعيم الموقف الكومبرادوري البورجوازي الذي مر بنا في الخط الثاني . وربما كانت أهميته بالنسبة للمهمة الثانية أكثر وضوحا وتبلورا ، بينما بقي الدور الاول هامشيا .

فنحن لا نلتقي به الا حين تعقدت الاحداث وتشابكت خطوطها ، أي بعد أن وصل فرح من جهة الى م اكان يطمح اليه من شهرة وثروة فبدأ ينحدر كما طلع (= السرعة والمفاجأة) . وبعد أن بلغت العلاقة بين ياسمينة ونمر من جهة أخرى درجة من الاضطراب ، اضطرت الاولى معها أن تبت في مسألة الالتجاء الى أخيها لحماية نفسها من الضياع والفقر ، فكان أن قدم لها حماية ضد الاستمرار الطبيعي في الوجود (= أي قتلها) ، وقبل هذا كان نمر ـ كما المحنا الى ذلك في ثنايا العرض ـ يحاول حل التناقض الناشيء عن استمراره مع ياسمينة وعن مسألة زواجه الجديد على الطريقة البورجوازية بحيث يكون في مأمن من « الفضيحة » (29) ، وزواجه الجديد هنا بالذات كان من ابنة فاضل بك السلموني .

في معرض هذه الاحداث يتدخل السلموني ليلعب دوره الخاص المحدود في الرواية . وهو يقوم بذلك على نحوين :

1 ـ في التبشير بالفكر الخرافي والتأكيد على جانب المصلحة الذاتية ضمن الاهتمامات العامة للارستقراطية التي يظهر أنه يعبر باسمه الخاص عنها . واذا كان قد تحرك في القضية الاولى بناء على اعتقاده الايديولوجي في « البصارة » والرؤية الغيبية لمستقبله ومستقبل مصالحه ، فقد تحرك في القضية الثانية بناء على جشعه لحماية ذلك المستقبل بالملموس والتشديد على وقايته بدرجة كافية . لذلك نراه ـ على مستوى الاحداث في الرواية ـ في الجانب الاول وقد خرج من قصره (في حي اليرزة الارستقراطي ببيروت)

قاصدا بيت « البصارة » (فايزة) في الرملة البيضاء للتشاور معها في أمر زواج ابنته (نائلة) بالبورجوازي نمر السكيني (= اسم عائلي) (30) كما للتشاور معها أيضا في مسألة اقرار قانون التقاعد (31) . وهو في كل هذا على جانب كبير من الاطمئنان والثقة لا يدعانه يخلو الى نفسه الا ويتذكر ما تمثله « فايزة » (= الخرافة والغيب) بالنسبة اليه من دعامة معنوية وتطهير سيكولوجي ، كما نراه في الجانب الثاني ـ على مستوى الاحداث في الرواية ايضا ـ وقد ارتاح ارتياح كبير لاصدار قانون التقاعد (= حماية المستقبل) وانطلق يزفه لصديقه وشريكه البورجوازي أبي نمر في حديث تليفوني خاص ، وفي الحالتين معا فان الذي يحدد قيمة الممارسة هو تصوره الايديولوجي النابع من الارضية الطبقية التي يقف عليها . ان فايزة / الخرافة هنا هي المستقبل الآمن هناك ، والخوف في الحالتين معا هو الذي يعطي الشرعية للسلوك الارستقراطي ويجعله سلوكا تبريريا للصعوبات الناشئة عن عدم القدرة على تحديد آفاق المستقبل ولا في الثقة بالحاضر . ان هذا السلوك المتشيع للفكر الخرافي الغيبي واليقظ تجاه المصالح المادية يجيب بعبارة أخرى على ضرورات خط فكري ارستقراطي لا يستطيع تجاوز ضيق أفقه ولا عجزه الذي يدخل ـ كعنصر ـ في صلب تكوينه .

2 ـ أما النحو الثاني فهو في معالجة المسألة الوطنية اللبنانية وقضية العدوان الاسرائيلي . ولا شك أن السلموني يلعب هنا نفس الدور الذي لعبه هناك . انه أبدا ينطلق من فكره الارستقراطي ، ولذلك كانت مواجهته للفلاح الجنوبي الذي اعترض طريقه وهو ذاهب الى بيت فايزة البصارة وحمله مسؤولية تضرره من العدوان الاسرائيلي وما ينتج عنه من اتلاف وضحايا وخسائر (32) كانت مواجهته ـ كما نقول ـ هي اثارة قضية سياسية معقدة ـ تحويرا وتمييعا للقضية المركزية : الاستغلال والخيانة ـ ترتبط بالوجود الثوري الفلسطيني في لبنان وعلى أرض الجنوب خاصة (33) لم يعمل على اثارتها تاريخيا بمنطق عنصري كثيف الا الانعزاليون واليمينيون والفاشيون الصغار (34) . فالاثارة طبقية والمواجهة يمينية واحتجاج الفلاح الديمقراطي لا يخرج ـ في اطاره العام ـ عن فضح اللعبة البورجوازية التي تقف من مسألة حماية الجماهير وتسليحها اصد العدوان الصهيوني موقف المتفرج أو المتواطىء . تلك مسألة يجب أن نشدد عليها لان غادة لم تلتقط هذا الموقف الا لكي تدين واقع الطبقات السائدة في لبنان واظهار تخاذلها المكشوف تجاه الاحداث والتطورات .

اذا أردنا أن نربط بين خط الارستقراطية في الممارسة والاهداف ، وبين ما مر بنا من خطوط تكاد تكون متوازية نجد :

1 ـ ان فاضل بك السلموني على المستوى الفكري والايديولوجي يرتبط

اشد الارتباط بواقع الطبقات الاخرى (البورجوازية / الكومبرادور) السائدة في لبنان والتي تجعل من بيروت مركز نشاطها الاقتصادي وممارستها الاجتماعية . فالسلموني ليس الا امتدادا موضوعيا وطبقيا لنمر ونيشان .

2 ـ ان السلموني في الرواية يقبل بالتصاهر مع « نمر السكيني » وهو تصاهر تاريخي يقوم على قاعدة من المصالح المشتركة أو يشرع لها على المدى الاستراتيجي . وسواء جاء هذا التصاهر في صيغة انهاء الصراعات العشائرية أو لوضع قاعدة مادية للنمو البورجوازي، فان التحالف / التصاهر لا يخرج هنا عن نطاقيه السياسي / الاقتصادي . وسوف نرى فيما بعد أن السلموني لا يكتفي بدلالاته هذه فقط ، بل يتجاوزها الى التعبير عن واقع الطبقة الحاكمة في لبنان وعن ـ وهذا هو الاساس النظري ـ ايديولوجيتها وقضايا ممارستها بشكل عام . ولذلك نستطيع ان نقول: «ان خط الارستقراطية ـ على أرضية الرواية ـ هو على التوالي خط الخيانة والتحريض اليميني ضد الوجود الفلسطيني الثوري ، والتحالف الطبقي الرجعي المنظم ، والاستغلال المادي لقوة الفلاح وعمله .

الخـط الـرابـع = الانسحـاق والانحيـاز

كان بو مصطفى هو الراكب الخامس والاخير الذي انضم الى ركاب « الطاكسي » في مسيرتهم نحو بيروت . وقد تعمدت غادة السمان أن تربطنا به وهو في حالة من الحزن عميقة (35) كانعكاس لمعاناته الاجتماعية الطويلة (36) وكتعبير منه عن الانسحاق الطبقي الذي يعيشه ويستنزف قدراته المادية (37) فيظهر على أسرته ويدفعه الى رهن أفرادها والتضحية بهم في معركة تكاد تكون خاسرة ضده . وبو مصطفى في النص ليس الا ارضية سيظهر فوقها وعلى مسرح الاحداث شخصية متممة لابعادها ولو في اتجاه آخر . انه شخصية مصطفى الابن .

لقد أوحت غادة بتلازم بعدين مترابطين في الشخصية الطبقية : بومصطفى وابنه كبعد جديد له .. ففي الوقت الذي نعيش مع الاول على امتداد فصول الرواية وهو يكافح ضد مصير مجهول (على نقيض ما عالجت به وضعية السلموني ـ نمر ـ نيشان مثلا) نلتقي مع الثاني وقد انخرط فعليا في البحث عن هذا المصير ذاته ، وفي الوقت الذي يذهب هذا البحث ببومصطفى الى الموت لانه ضيع فيه العنصر الاساسي (الوعي بالانتماء الطبقي وضرورة التنظيم السياسي) نرى مصطفى وقد حدد لبحثه اطارا منظما سيظل في الرواية غامضا ولكنه مفهوم من بعض قرائنه الدالة (38) وكان أن قاده الى الانحياز .

ان البحث هنا بمستوييه وبوصفه مهمة مفروضة تاريخيا بحكم التفاوت

لا يفهم الا في الاطار الطبقي وخصوصيته ، وقد عبر عنه بومصطفى وابنه تعبيرا اقترن بكفاحهما المتواصل من أجل حياة تتوفر لهما فيها (الاسرة بالنتيجة) من السعادة والراحة ما يغنيهما عن الكدح الابدي ، ولذلك يحسن من الناحية المنهجية أن نميز بين هذين الوجهين تمهيدا لوضع تكاملهما على قاعدته الصحيحة .

1 - ان غادة السمان تتعامل مع بومصطفى في شروطه المادية الملموسة - كصياد بيروتي في حكم المعدم - من منطلق كونه لا يمثل الا الخلفية التي ستدفع مصطفى (ابنه) دفعا متناميا الى العمل اليدوي وربطه مباشرة بمهنته هو . وهذا جانب فقط سنراه فيما بعد . أما الجانب الثاني فهو ما مثله بومصطفى نفسه بوصفه نموذجا للكادح الذي تألبت عليه جميع صروف الدهر، لا يكل في طلب الحياة السعيدة رغم أن منالها يظل مطمحا بعيدا عنه بما لا يقاس . وحتى تطور جانبه هذا ، تعمل الكاتبة على ربط مصيره بالبحر وبما يسمح به البحر من امكانية للاسترزاق . انه بمعنى ما ضحية حياته في ظل هذه الشروط . لقد نذر نفسه قسرا - بحكم التقسيم الاجتماعي البورجوازي للعمل في المجتمع الطبقي - للعمل كسماك بائس مسلول من أجل حماية مستقبل الاسرة (39) بالرغم مما يلحقه به هذا العمل من مضار نفسية وجسمية من جهة ، ولبعض أفراد عائلته من جهة أخرى (لقد مات ابنه علي في عملية الصيد بالذات) .

ان هذا الوضع ليس الا صورة وحيدة الجانب لقضية بومصطفى ، وستظل الجوانب الاخرى مرتبطة بالشروط المحددة التي يجري فيها هذا العمل كالاستغلال وبدائية أدوات العمل نفسها وصعوبة مقاومة أهوال البحر وتجنب مخاطره . وقد استخلص ابنه مصطفى من هذا الوضع - وهو يومئذ حديث العهد به - خلاصة منطقية صاغها بقوله : « كل شيء ضدنا : البحر والدولة » (ص. 29) . وانها لنهاية ذات معنى تلك التي سيفقد فيها بومصطفى حياته الى الابد (40) وستقضي من ثم على حلمه العريض في العثور على « المصباح السحري » (41) وبذلك انتهى كدحه دراميا وفتح طريق الاستمرار في العمل لابنه مصطفى .

من الواضح ان بومصطفى كما يظهر من الرواية لم يستطع تجاوز وضعه الذاتي ولا شروط حياته الاجتماعية ، وذلك لان وعيه الجنيني بالاستغلال ظل متخلفا عن طبيعة هذا الاستغلال ذاته ونتائجه وكذا عن قوانينه الرأسمالية. وكان من الطبيعي لذلك أن يرسف فيه حتى العظم ، فلا يخرج منه الا ميتا بعد أن أصابه السل وهدد الفقر حياة أسرته بل وفرض من ثم على أحد أفرادها موتا قسريا (علي) ثم دفع الثاني (مصطفى) الى السير ببطء وفي معاناة شديدة في نفس الخط العام للانسحاق الطبقي. ان العمل الذي تدرب به بومصطفى على

الموت ـ اذا جاز لنا القول ـ كان ينقصه الوعي الطبقي السياسي للنضال ضده وقد تعمدت غادة السمان ـ على ما نعتقد ـ أن تقف ببومصطفى هنا حتى تحول مهمة فهم ذلك والتشريع له نظريا والانخراط فيه عمليا لابنه مصطفى الذي يتطور بدوره من نهاية أبيه . الا أن الشوط الذي قطعه بومصطفى هو في حد ذاته لوحة كاشفة للواقع الذي يرسف فيه الصياد اللبناني تحت طائلة الاستغلال . ولكنه واقع ساكن ذاتيا يحتاج الى محرك نضالي ، أي وعي طبقي بالاستغلال ووعي سياسي بأسلوب التنظيم للقضاء عليه . ولم يكن من الممكن أن يتم ذلك الا من الخارج وبانضياف عوامل جديدة . ولهذا جاءت غادة السمان بمصطفى ، أي بالوعي ، وأدخلته الى عالم المعاناة من بـاب الممارسة الفعلية ، فخبر أحوال الاستغلال وانطلق للـرد عليـه بالتنظيـم والنضال . ان بومصطفى بهذا التفسير هو الشوط الديمقراطي في الكفاح ضد الاستغلال البورجوازي الذي يمثله نمر ومن هـم على شاكلتـه . وسيكـون مصطفى ابنه هو الشوط الثاني ، التقدمي ، الذي حرك مخاوف البورجوازية ودفعها للمواجهة بناء عليه (42) .

(2) انتقل مصطفى من عالمه الخاص الى عالـم الصيادين بحركـة مفاجئة ، الا أنها واضحة في دلالاتها بحكم ما مارسه الفقر على أسرته مـن ضغوطات ، وانتقاله هذا يفصل بين مرحلتين في حياته : من الدراسة الـى العمل (43) من الوعي الى الممارسة ، من الشعر الى اختبار المعانـاة (44) وبانتقاله طلق عالمه الرومانسي الى الابد وانخرط في الكفاح الديمقراطي من أجل لقمة متعبة .. هذا هو الخط العام في الظاهر ، لكن هذا الانتقال ـ فـي العمق ـ هو بمثابة اتصال المثقف التقدمي بالممارسة العملية ووقوفه علـى متاعبها ، ليس فقط لان البحر ـ كعالم وأهوال ومصاعب ـ هو الضد المنطقي لحياة الدراسة الوادعة ، بل لان البحر هو ميدان ممارسة ما كان ليتحمـل وجوده فيه الا بالخضوع للظروف الموضوعية المعلومة التي دفعته وأوكلت اليه مهمة متابعة خط سير والده المسلول ، ومن هنا يجب أن نقول ان مصطفى لم يبدأ في العمل من الصفر ، بل بالاستناد الى ركام والده من الخبرة والمعاناة، ولكنه استناد حصل فيه الوعي الديمقراطي على درجة كافية من فهم الاستغلال، فقرر أن يتصدى له بما لم يسبق لوالده طوال حياته أن وصل اليه أو أحس به حتى. وفي ظل هذا الأطار حيثما يكتسي مصطفى في نص غادة السمان بعدا جديدا، فعدا التعاطف الذي تبديه تجاهه وبالاضافة الى تقربها من اختياراته الفكرية ، فانها تترك له مجالا واسعا للنمو والتطور وتمشي معه صعودا حتى تدفعه الى التنظيم السياسي وتقترح عليه النضال بما يتفق في الجوهر ومعاناته الطبقية، ولذلك حصل انحياز غادة نحو مصطفى ـ دون غيره من الشخصيات ـ فـي الوقت الذي حصل انحيازه نحو الممارسة ، وهو اتفاق لا نظن أنه يخرج عن

فهم غادة السمان لدور هذه الشخصية بالذات بما حملته من مؤهلات ذاتية (الوعي ، الثقافة ..) وموضوعية (المعاناة وغيرها..) في التعبير عن موقفها تجاه الواقع الاجتماعي للحركة الجماهيرية اللبنانية .

ومن هذا المنظور كذلك اضطرت غادة أن تعرفنا بمصطفى وهو يتابع رحلة أبيه في غير ما انقطاع عن تراثه الكفاحي وعذابه الاجتماعي . وتلك متابعة لا تعني أي شيء آخر خارج دلالاتها التاريخية ، وبالذات كونها متابعة الجماهير (بصورة عامة) لنضالها الديمقراطي انطلاقا من وعيها بالاستغلال والشروط المحددة التي يعرضها للانسحاق .

وكانت احدى الصعوبات التي اعترضت غادة من الناحية الفنية والموضوعية تتمثل في كيفية جعل مصطفى يقبل بهذه المتابعة ويتخلص بسرعة من عالمه الذاتي الذي لم يعش أطواره الرومانسية بعد أو بما فيه الكفاية ، فدفعته من ثم ـ في المرحلة الاولى ـ الى التحسر والاحساس بنوع من الضيق الكئيب تورط فيه مشدودا بكامل رهافته المعنوية (45) ثم أجبرته فيما بعد على وعي ضمير هذا الضيق (= التعارض بين الطموحات الذاتية والواقع المادي الجديد) والتفكير من زاوية أضراره المادية (46) . ولكنه ظل يشعر دوما بتناقض ظاهر يجعله مفعما بالاضطراب والتردد (47) فينعكس هذا التناقض حتى على مستوى مشاهداته اليومية من خلال العمل أو غيره ، فتراه من جهة ـ وهو في قبضة أهوال البحر ـ يناجي القمر أو يتحسر لموت سمكة أو شبيها .. الى آخره . أو تراه من جهة أخرى يستخلص من ذلك كله بعض الآراء الفلسفية المثالية (هندية وآسيوية ...) ، أو هو على النقيض من هذا وذاك يصل الى خلاصة مفادها أن لعبة الحياة ككل هي التي تغذيه « الصياد والسمكة ، الموت هو وحده الصياد الذي لا يرحم والذي يتساوى في شبكته القاتل والقتيل .. » (ص 36) ، الا أن مصطفى كما أرادت له غادة يخرج من هذا التناقض بضرورة المواجهة ومنها الى التنظيم ، وسيجد في واقع الصيادين أرضية خصبة لتنمية وعيهم بالاستغلال والدفع بهم الى مواجهة البورجوازية التي تمارسه عليهم بصورة بشعة (48) كما سيجد فيها بالنسبة اليه شخصيا ، مجالا واسعا للممارسة النضالية (49) . ومن معاناته على هذه الجبهة الى معاناته على جبهة الفقر المدقع على صعيد الاسرة ـ فضلا عن الحرمان الجنسي (50) ـ يندفع مصطفى الى التنظيم ويوجه به حياته وعمله .

هذه هي الخلاصة المنطقية التي انتهت اليها غادة ، ولا بد أن نلاحظ أن بلوغ مصطفى الى هذا المستوى ترافق مع عاملين :

الاول = موت أبيه .. والنضال من هنا ليس بديلا لهذا الموت ، ولكنه استمرار لمعاناة الصياد اللبناني المعدم الذي جسده بومصطفى الاب .

الثاني = ظروف عمله اليومي ، القاسي والمحبط . وهو الذي كان وراءه يدفعه الى معادلة النضال / التنظيم أو بالعكس والحسم فيها حسما يقوده بالضرورة الى مواجهة البورجوازية .

لقد ميزنا في هذا الخط بين وجهين متكاملين ، وسطرنا ما لكل وجه من خصوصية كما لكل منهما من علاقات متداخلة . وبذلك رأينا كيف أن رحلة بومصطفى في الحياة كانت تضع الممهدات الاولية لبروز مرادف موضوعي له يتابع خط سيره في النضال على مستوى جديد من الوعي السياسي . كما ان دخول مصطفى الى حلبة الصراع مدفوعا بعاملي الحرمان والخصاصة ، كان من أجل تثمين هذا الصراع ذاته وجعله صراعا موجها ضد الاعداء الطبقيين من كل لون وجنس ، تتحكم فيه الممارسة ويوجهه الوعي . ولذلك كان الخط الذي سار فيه بومصطفى وابنه كبعد نضالي له ، خط الممارسة الديمقراطية التقدمية في الحياة الجماهيرية ضد سيطرة البورجوازية وأسلوب احتكارها الاستغلالي وهذا الخط في اعتقادنا ، بما له من قيمة موضوعية في النص ، يختلف اختلافا جذريا عن باقي الخطوط الاخرى والتي كانت غالبا ما تدور في الفلك البورجوازي أو تقترب منه ، ولكنها لم تستطع أبدا الافلات من قبضة الاوهام الخادعة التي تزين المصير الفردي فتحبسه من ثم ـ ضديا ـ في شرنقة المجهـول ، ولا ينتهي بالضرورة التاريخية الا الى الافلاس .

ثـانـيـــا :

نستطيع الآن أن نجيب بكل وضوح عن السؤالين الذين طرحناهما في مستهل النقطة الثانية من هذا العرض .

1 ـ لقد عارضت غادة السمان في نصها بيـن موقفيـن يتعارضـان في الصراع ، ثم حددت بناء على هذا التمييز موقفها المبدئي المناصر لطرف ضد طرف آخر . واذا تساءلنا عن التحركات العامة لهذين الموقفين وجدنا أن الرؤية العامة التي وحدت بين الخط البورجوازي اجمالا (وينضوي تحته : فرح ، ياسمينة ، طعان ، نيشان ، نمر ، السلموني) هي على التوالي : الوصولية بالجنون والانتهازية بالقتل والعدمية بالمصير المجهول والسمسرة بالشذوذ والاستغلال بالفضيحة والخرافة بالخيانة والتعامل . كما نجد من الرؤية العامة التي وحدت بين الخط الديمقراطي اجمالا (ويعبر عنها بومصطفى ، مصطفى ، أبو الملا جزئيا ..) هي على التوالي : الانسحاق بالموت القسري ، والمعاناة بالتنظيـم والنضـال .

خطان يتقاسمان الرواية ويستقطبان مواقف باقي الشخصيات الثانوية الاخرى . وقد لمسنا ـ ضمن اشارات عامة ـ أن الذي يباعـد بينهمـا هـو الاستغلال ويقابله النضال من الجهة الاخرى ، ولا يمكن ان تحصل المقاربة أو التسوية بينهما على أي نحو كان ، لان هناك هـوة لا يمكن أن تـردم

الا بانتصار طرف على الآخر . ونحن اذن بصدد عملية محددة للصراع الطبقي تجري على أرض لبنان ، محورها بيروت ، أعطتها غادة السمان بعدا تناحريا حادا ، فأرادت أن تقول على وجه العموم ان البورجوازية الكومبرادورية ماضية في استغلالها وأنها تحشد لذلك ما يتفتق عنه ذهنها من رؤى ومصالح وأهداف طبقية . كما ان الجماهير تواصل كفاحها الديمقراطي وستجد خلاصها بالوعي والتنظيم .

ب ـ أما في مجال الانحياز الذي عبرت عنه غادة ، فقد كان من الواضح على امتداد الرواية أنها تخلق من الجو الذي عاش فيه بومصطفى السماك منطلقا للنضال . وعندما لم يكن بمقدور هذا الأخير وعي مجريات الصراع أو التحرك فيه بوعي ، عندئذ تدخلت غادة فحملت مصطفى الابن مسؤولية فعل ذلك ، ولهذا قادته الى الممارسة أولا ، فالمعاناة ثانيا ، فالنضال المنظم في الاخير .

هذا معنى الانحياز . وقد كان بمعنى آخر عندما لجأت غادة من الناحية الفنية الى قتل كافة أبطال الرواية بدون استثناء ، اما معنويا أو ماديا ، الا مصطفى هذا الذي جعلت منه محور بحثها عن الاستمرار والتطور . لقد كان مصطفى بعبارة أخرى ، هو مخرج الصراع الطبقي على أرض بيروت .

3 ـ الموقف الروائي :
من الادانة الى الانحياز

من خلال هذه الخطوط يمكن أن نصل بطريقة واضحة وسهلة الى المواقف العامة التي عبرت بواسطتها غادة عن تصورها السياسي / الايديولوجي العام للواقع البيروتي في صراعه ومظاهر تفاعلاته . ويجب أن نقول أول الأمر أن التعبير عن الموقف في الرواية مسألة ذات خصوصية عالية تشترط قدرا ضروريا من الوضوح الفكري من جهة ، كما تفرض أن يكون هذا الوضوح موازيا أو متوازيا مع تقنياته الفنية والشكلية . أي أن المسألة كماتنطرح في الابداع بالخصوص لا تصبح مسألة استيعاب الواقع وتجسيده في صور مادية ـ أدبية ملموسة ، بل يجعله فوق ذلك واقعا متحركا يعمل فيه الادب دوره ابداعا ، أي يخلقه وفق فهم الكاتب له . ان الكاتب المبدع ببساطة يعطي من عندياته موقفه وتصوره الايديولوجي / الطبقي ولكنه يأخذ من الواقع حقيقته . وهذا هو معنى البحث عن الحقيقة من الواقع كموضوعة نظن أن غادة السمان حاولت أن تقترب منها في كثير من المشاهد والاحداث .

اذا حاولنا أن ننطلق من هذا التدخل النظري الوجيز ، سنجد أن غادة في روايتها (بيروت 75) كانت تفتش من الناحية التقنية عن مبررات اصدار أحكامها واتخاذ مواقفها مما يمثله الواقع في حركته وصراعه من تناقضات

واتجاهات ، فهي قد عمدت برؤيتها الايديولوجية الى محاكمة الواقع الطبقي الذي عليه بيروت ، أي لبنان (بيروت نسخة مصغرة وممركزة منه) بما فيه من خطوط سياسية ومواقف طبقية يبلورها الصراع الطبقي وتتحكم بالنتيجة في مختلف المصالح المتعارضة أصلا . ان مواقف غادة ليست متكاملة نظريا وليست شاملة سياسيا ، وهي لم تأخذ بمنهاج البحث العلمي الطبقي ولم تتعمق في فهم الظاهرة الاقتصادية اللبنانية وما تمثله بالنسبة لحركة أشخاصها وتطوراتهم ، الا انها دخلت بالرؤية الفنية على مستوى الابداع الى مدار التناقضات وحاولت أن تبين الاتجاهات المتعارضة حينا والمتحالفة أحيانا ، فانتهت من ثم ـ بناء على ما تسمح به الرواية من امكانيات التحليل والاستخلاص ـ الى المواقف الآتية (ينوب عنها في ترجمتها أشخاص واقعون بحكم اجواء الرواية في قلب التطورات الاجتماعية ـ أنظر الشكل رقم 9 في آخر البحث) :

● **الاحتلال الاسرائيلي** : وذلك من خلال رصد انعكاسات « الشارع » اللبناني وردود فعله على الغارات الجوية الاسرائيلية. وقد كان فرح بالخصوص هو الذي عبر عن جانب من موقفها ، فأدانت من خلاله لا مبالاة الوسط البورجوازي أو الاوساط الواقعة في دائرة هيمنته الايديولوجية والسياسية .. لكن فرح لم يعبر بكامل الدقة والوضوح عما تعنيه هي من هذه اللامبالاة ، لان المجال الذي تحرك فيه تحكمت فيه بالاضافة الى موقف غادة من موضوعة الاحتلال الاسرائيلي ، موقفه هو من هذا الاحتلال وانعكاسات لامبالاة « الشارع » اللبناني على احساسه الوطني الذي كان بدوره يتجه وجهة ستقضي على طابعه المميز ليجد نفسه في التحليل الاخير ـ بحكم نجاحه في الوصول الى أهدافه المادية الطبقية ـ مندمجا في نفس اللامبالاة ومستقطبا داخل دائرتها السياسية . فالنقطة الفاصلة بين موقف فرح وموقف غادة دقيقة للغاية . وبعبارة أخرى لقد استغلت غادة في فرح احساسه الوطني المبكر ما قبل اندماجه في الوسط البورجوازي ولكنها تخلت عن استعماله لهذه الغاية على امتداد الرواية لانه لم يعد يرتبط بما تراه لموقفها المبدئي من أهمية ، بأية صلة موضوعية ، ولكن هذا لا يعني أن غادة فرطت الى هذا الحد في نموذجها المحوري (فرح) بل راحت توظفه للتعبير عن قضايا أخرى أبرزها : أ ـ التعبير عن بعض الطروحات الفلسفية الوجودية . ب ـ الطرح الشامل لموقف غادة من بيروت . وكذلك كان الامر بالنسبة لياسمينة مع اختلافات جزئية لنفس الهدف وبنفس التكنيك الروائي .

الا أن الامر سيكون مختلفا جدا مع الفلاح الجنوبي الذي تصدى للسلموني صارخا في وجهه بالخيانة والتعامل . فالمنطلق هنا عند غادة رغم أن دوره محدود ، تتحكم فيه اعتبارات أخرى ، أي موقف الفلاح من الاحتلال بما يلحقه

من أضرار على حياته وعمله من جهة ، وموقفه أيضا من الاستغلال البورجوازي، بالاضافة الى رأي غادة في وجوب تعميم موقف البورجوازية ، كموقف خياني ، ليس من الاحتلال فقط بل ومن الوجود الفلسطيني على أرض لبنان أساسا واظهاره بمظهر المحرض اليميني الرجعي والمتواطيء ضمنيا مع اسرائيل كظاهرة استعمارية امبريالية من جهة أخرى . ولذلك يمكن القول أن غادة استغلت من الناحية الفنية راويتين في قضية واحدة : الفلاح والبورجوازية . فدفعت الاول لان يلعب دور منبه اجتماعي ، وورطت الثانية موضوعيا في الخيانة . أما القضية الواحدة فهي فلسطين في الجوهر ، والغارة الاسرائيلية أو الاحتلال في المظهر .

اذا أخذنا الآن فرح / ياسمينة ، الفلاح / البورجوازية كعناصر تؤلف في الرواية موقف غادة في شموليته السياسية والايديولوجية وجدناه : 1 : يأخذ اللامبالاة كظاهرة ويصب عليها نقدا عنيفا بلوره فرح في حينه بقوله : مجانين . وكان يقصد الجمهور اللبناني بمختلف شرائحه المتواجدة لحظة الغارة . كما يصب عليها نقدا فنيا ذكيا تمثل في مشهد القراد والقرد ، والمفارقة هنا ظاهرة على كل حال . 2 : يدين البورجوازية عمليا من خلال آرائها الواضحة والصريحة في مسألة الوجود الفلسطيني ، وتناقض هذا الوجود مع الظاهرة الامبريالية ـ اسرائيل . 3 : يعكس من جهة تذبذبات البورجوازي الصغير حول مسألة مركزية توضحت دلالاتها في النص من خلال غارة جوية وهي اسرائيل بالذات ، كما يطرح الموقف الجماهيري من جهة أخرى حول نفس الموضوع ويربطه بفضح البورجوازية وأسلوب تحريضها المضاد للثورة (= فلسطين) . ويجب الاقرار بأن التفسير الاخير بقي غامضا في النص ولكن معناه يفهم من السياق الروائي .

اخلاقية البورجوازي الصغير : وقد ألمحنا الى موقف غادة من هذه المسألة غير ما مرة على امتداد هذا العرض . ولذلك نستطيع أن نستخلص ما يأتي : 1 : تدين غادة وصولية البورجوازي الصغير من الناحية العملية بالجنون . وهذا موقف ندافع به من الناحية الفنية عن فهمها لتشوه الوعي الطبقي (فرح ، ياسمينة) وذهابه نحو الافلاس ، كما للحيرة الوجودية (طعان) التي تقوده الى العدمية . 2 : تفضح سمسرة البورجوازية الكومبرادورية وتقيم الدليل على أسلوب تجارتها الاستغلالية ، بل ان غادة تذهب في هذا الفضح حد التشهير بانحرافاتها الذاتية والسلوكية (شذوذ نيشان ـ انتهازية نمر) وفي رأينا أن رواية (بيروت 75) بهذا القدر أو ذاك ، رواية فضح لمواقع وممارسات هذه الطبقة اقتصاديا واجتماعيا وايديولوجيا وسياسيا ، وبديهي أن الامر يتعلق هنا بفضح من الطراز الادبي مجاله الابداع الفني وخصوصيته (الرواية في مجال دراستنا) .

والحال أن هذا الفضح وتلك الادانة كليهما وردا غالبا في ثوب تنكري هو الوجودية فلسفيا . ولذلك ركزت غادة على الغربة والضياع وقادت من تورط فيها الى الجنون والقتل ، كما ركزت على الميوعة والعبث فاظهرت من غرق فيهما بمظهر اللامبالاة . ونحن نعتبر أن الطرح الوجودي عدا مثاليته الذاتية ، لا يستطيع توجيه نقد صائب ، فني في مجال الرواية ، لما هي عليه البورجوازية الكومبرادورية من أحوال ، كما لا يستطيع فهم خلفيات الذهنية الطبقية البورجوازية الصغيرة وتفسيرها تفسيرا موضوعيا .

الغيبية والفكر الخرافي : وابرز من عبر عن هذا المنزع هو فاضل بك السلموني . فهو بالاضافة الى ما يمثله على صعيد الممارسة الاجتماعية من محافظة ورجعية ، يقدم هنا شواهد ضافية ـ باعتقاد غادة ـ على تخلف وعيه الذاتي الارستقراطي في علاقته بالبصارة فايزة كطرف غيبي ، وكذا في ارتباطه المصلحي (بنرجس السكيني) كحليف طبقي . وقد اندفعت غادة تحط من قيمة السلموني فجعلته تافها ومتطيرا ، لتعبر بواسطته عن مسلك طبقة اجتماعية ، بلغ بها الانحطاط الذاتي على مستوى الفكر والسلوك درجة واضحة جدا. وكما حاولت غادة أن تربط بين هذا التصور وخلفيته الايديولوجية في الممارسة ، حاولت كذلك أن تضع بعض الاشارات التي تدلل على تقاربه أو التقائه ببعض ممارسات الطبقة الحاكمة في لبنان . فأوحت للقارىء بأن فايزة البصارة ، فضلا عن دورها بالنسبة للسلموني كشخص ، هي أيضا وسيط بين ممثلي البورجوازية في السلطة وبين مستقبلهم الذاتي ـ الطبقي . ويظهر ذلك بالخصوص من خلال الاسترجاع الذاتي الذي يقوم به السلموني مستنكرا به رؤيته « العابرة » لاحد الوزراء وهو يغادر دار البصارة فايزة ، بل ان غادة دللت بالذات على أن السلموني نفسه يوم كان وزيرا ـ في تاريخ ما ـ كان شديد الارتباط بذلك . الا ان رؤية غادة في هذا الموقف بوجه الاجمال يشوبها نوع من الافتعال الفني ، ونحن لا نقبلها هنا الا بوصفها نعتا لصفة طبقية تعكس بمعنى ما ـ دون ما حاجة للدخول هنا في التفاصيل ـ الموقف الايديولوجي لبورجوازية هجينة . وقد وصلت غادة في الختام الى : 1 : تسخيف الارستقراطية بالغيب ، وتغييب البورجوازية في ايديولوجيتها الفجة . 2 : التلميح الى البعد الخرافي اللاتاريخي (وهو في الممارسة ضد العلم والعقلانية والتقدم الاجتماعي) بعض فئات الطبقة الحاكمة في لبنان .

الانسحاق الطبقي = وهو الموضوع الذي ركزت عليه غادة وطورت فيه جانبا كبيرا من تصورها للمسألة الاجتماعية في لبنان من خلال بيروت ، وقد رأينا من قبل كيف أن الكاتبة وضعت التعارض في المصالح الطبقية نقطة انطلاقها في بحث هذه المسألة . وكانت على امتداد الرواية تهتم كبير اهتمام بجعل مصطفى بالخصوص هو الناطق الرسمي بلسان الصيادين اللبنانيين

لعرض قضيتين : الاولى تدور حول الاستغلال الذي يتعرضون له من طرف البورجوازية الكومبرادورية والثانية ـ وهي نتيجة منطقية ـ تتمثل في معاناتهم الدائمة وبروز هذه المعاناة في مستويين متلازمين : الذات والاسرة . وحين أنفردت الكاتبة بمصطفى لتركز من خلاله مجموع هذه القضايا وليكون بلسانها معبرا عنها ، طورت فيه الجانب الذاتي ودفعته بالوعي الى النضال فالتنظيم كشرط تراه غادة أساسيا في المواجهة الطبقية . الا أن مصطفى ايضا لم يكن بمستطاعه أن يتجاوز عالمه ألوجودي الا انطلاقا من وعيه بالشروط المادية المزرية التي يرسف فيها وعيا طبقيا . ونحن نستنتج هذا من النص رغم أن الكاتبة لم تستطع الكشف عن أبعاده الموضوعية . ولذلك برز الافتعال من الناحية الفنية في ربط الاحداث بعضها بالبعض الآخر كما في تتبع حركة الاشخاص ـ مصطفى بالخصوص ـ والدفع بهم الى ما رجحت غادة أنه خطأ الانتماء أو الوعي أو النضال . ـ الا أن الجانب الموضوعي في الرواية هو عالم الصيادين بالذات وقد ركزت غادة من خلاله على : 1 : جانب الاستغلال المادي المفروض عليهم في الواقع اللبناني . 2 : المشاكل المادية الملموسة التي يعانون منها . 3 : امكانية المواجهة بالوعي الطبقي والنضال الديمقراطي . 4 : ضرورة التنظيم السياسي .

ان الانسحاق الطبقي في رواية غادة موضوعة تاريخية تفرض الوعي وتتطلب النضال . وهذا هو المعنى الهام لانشغالها بالتركيز عليه . وربما كان القصور الذي شاب هذا التركيز من نواقص الوضوح السياسي .

هذه هي باختصار شديد المواقف العامة التي رأت غادة أن تمثل بها لمحاور الصراع الطبقي في لبنان ، وأن تدين أو تنحاز ، من خلالها الى طرف دون طرف آخر في هذا الصراع ، وقبل أن نمر الى مناقشتها ، يحسن أن نبحث في الاسس الفنية التي قامت عليها .

4 ـ تخطيط فني لعالم وجودي في أبعاد واقعية

أشرنا في بداية هذا العرض الى تكامل الخاص والعام في رواية (بيروت 75) ونحن نفترض أن منطق الاحداث والمعالجة فيها ، هما اللذان أوحيا ذلك على المستوى الفني . فغادة السمان كانت منذ البدء بازاء حركتين : حركة بيروت كأرضية للصراع الطبقي ، تعج بالمتناقضات ويجري فيها الاستغلال على نحو ظاهر ، ثم حركة الاشخاص الذين مارسوا هذا الصراع بالخضوع لمصالحهم ووفق تبرير ايديولوجي يقفون به من الاحداث موقف المعارضة أو المناصرة . ولم تلبث غادة أن دفعت في المعالجة بالحركتين الى التداخل في أبعاده الممكنة . وعن هذا التداخل نتجت مجموعة من المواقف اشرنا اليها أعلاه . ولقد كان التبرير الفني لهذا التداخل منطلقا من أسلوبين : السرد

والمونولوج . ويجوز القول أن رواية غادة ركزت عليهما بشـدة ، فاستفادت من الامكانية الذاتية للسرد في فرش أرضية للاحداث والتطورات التاريخية والزمنية ، وكذا في استنطاق الاشخاص بما فرضته عليهم أدوار مرسومـة للصراع والتناقض . أما المونولوج فقد عبر عـن الاهتمامـات الخاصـة ، وبالاجمال عن العالم الداخلي والدوافع النفسية العميقة المتحكمة في نوازعه . ونحن نعني مقدما أن المزاوجة بين السرد والمونولوج كعمليتين مترابطتين لا يبدو اجتهادا خاصا في باب ما عالجت به غادة أدوار شخصياتهـا ونمـط سلوكهم وواقع حياتهم ، بل ان الامر لا يخرج عن التكنيك التقليدي الـذي غالبا ما يجعلهما رديفين في المعالجة الروائية التي تجعل من الحدث محور بنائها ومن التسلسل المنطقي في ذات الشخصية وتطورها غاية أدائها . الا ان الامر الهام في (بيروت 75) هو استغلال غادة لدورهما التقليدي هذا وتوظيفه توظيفا جدليا ـ فنيا في الخلوص الى ما أرادت أن تؤكد به موقفها العام من كل شخصية على حدة ومن لبنان على وجه العموم . ولذلك جاء الاستغلال هذا في النص مكثفا من جهة (المونولوج بالخصوص) ومتناميا من جهة أخرى ، أي لا يمكن تتبع احدهما في السياق العام للاحداث الا بالآخر .

واذا كنا نعتقد ان التصميم القبلي لعناصر الرواية ومجالها التاريخي وأحداثها الواقعية أو المفترضة هو الذي أبرز الدور المتكامل للمونولوج والسرد فاننا نعتقد أن الارتكاز عليهما بشكل رئيسي ، جعل الرواية ـ في المعالجة الفنية ـ تبدو قصيرة النفس وغير مستكملة لجوانب البحـث في معظـم الشخصيات التي نلتقي بها ، مما جعلها تلهث وراء النهايات السريعة المفتعلة التي تقتضي بدورها حاولا مستعجلة وربما كما اتفق ، أي في تعارض أحيانا مع منطق التطور الذاتي ـ التاريخي على مستوى الشخصية والحدث . الا أن غادة حتى تخفف من جوانب النقص هذه ، التجأت في ارتباط مع فهمها لدور اللغة وقدرتها على تكثيف الدلالات الرمزية في البناء الفني للرواية وما يرتبط به ، الى ادخالها (أي اللغة) كعنصر فاعل في فرض تحولات عميقة على مسار بعض الشخصيات وكذا في اقتناص اللحظات المعبرة في حياتهم ، ومن ثـم استعمات غادة السمان مدلولات الرعد والامطار والغربة والضياع ، وجعلت من ذلك نقط تحول أو بداية ، في المفهوم العام الذي تعطيه لكل حدث أو موقف . وهكذا جعات أول الامر من الضياع أو ما يعادله في الدلالة لغويا واجتماعيا ، مقدمة البحث على منفذ للاستقرار الذاتي (فرح ، ياسمينة) كمـا جعلت مـن المعاناة الاجتماعية والحرمان .. الخ . على نفس النهج أسلوب تفكير في البحث عن السعادة أو ما يقوم مقامها ، ثم انتقلت في مرحلة اعلى من المعالجة الفنية الى فرض مفهوم الرعد والامطار على شخصياتها فحولت بمدلولهما الرمـزي مسار حياتهم وقادتهم من ثم الى نهايات مختلفة . ان هذا الصنيع يبين من

جهة أن غادة السمان كانت تعي مقدما أن اللغة ، عدا صياغتها للاحداث تقوم بدور موجه ، أي لها ذاتيا كأداة قدرة فنية على ايهام القاريء العادي بالمقدمات العامة للتحولات التي ستجري على ارضية الرواية . كما أنه يبين من جهة أخرى مقدار ما تليه غادة من عناية ذكية للتعبير باللغة عن موقفها هي من الاحداث في ارتباط مع فهمها لما يجب أن تقوم به الشخصية من أدوار وصولا الى ذلك . ومما ساعد اللغة على القيام بهذا الدور الموجه ، الدلالي ، هو التركيز الذي حفلت به الرواية . ان مجموع الشخصيات فيها تنفذ في لحظات حركتها مخططات فكرية أعدت للفعل بها (أي عن طريق مضمونها السياسي) في الواقع العام الذي عالجته غادة . ان فرح مثلا لا يفهم دوره في الرواية من خلال ماضيه ـ رغم أن ايحاءات المونولوج في هذا المضمار كانت بليغة ـ بل من خلال الحاضر الذي يوجد فيه وجودا ذاتيا فاعلا ومنفعلا ، انه يقوم بحركات مدروسة لها ضوابط فنية لكي يعبر من خلالها وبتركيز شديد عن احباطه المعنوي كمحور أرادت أن تحلل به غادة على شخصية البورجوازية الصغير . وكذلك الامر مع باقي الشخصيات . فالتركيز من هذه الناحية لا يمس الجوانب الظاهرة في الرواية (المكان، الزمان، المواقف، الارضية الفكرية ..) فقط ، بل يمس أيضا معنى الوجود الشخصي لمفهوم النماذج في الرواية وكذا حركة ذهاب واياب هذه النماذج بين النظرية والممارسة .

ان الذي جعل التركيز يأخذ هذه الصفة يرتبط أساسا بمفهومي الزمان والمكان في الرواية . فالزمان فيها محدود من الناحية الموضوعية وذاتي ، أي ليس مستقلا عن فهم الشخصية الروائية له ، ونحن نلمسه بهاتين الصفتين في معظم اللوحات . ففرح مثلا لا يفكر في مصيره (المستقبل الزمني) الا من خلال نيشان ، وياسمينة بالذات ـ التي ظلت لفترة طويلة متنكرة لظروف وجودها في بيروت ـ لم تفهم معنى الزمان الا في علاقة بفشلها مع نمر .. الخ . أما المكان فهو ثابت وظرفي . فبيروت أو دمشق أو غيرهما من العوالم هي مواقع لصراع مستمر لا يرتبط بوجود الشخصية أو عدمها ولكن بالشروط المادية التي تعكس وتحدد فيه القوى الطبقية . واما ظرفيته فلا تفهم في الرواية الا في ارتباط مع تطورات الاشخاص ومواقفهم . ولقد سبق أن ادركنا أن بيروت في جميع الاحوال لم تكن ـ بحكم التخطيط الفني والتصور الفكري لها ـ الا قبلة تاريخية للاشخاص الذين دفعتهم أوهامهم (مصالح مشوهة طبقيا) اليها ، ولكنهم سرعان ما تخلوا عنها وتاهوا في سراديب مصيرهم الفردي .

الا أن التركيز بصوره هذه لم يعمق كما كان منتظرا المضمون الاجتماعي الواقعي للرواية . بل جعله يبدو في كثير من خطوطه سطحيا . وذلك لان التطورات العامة ـ من خلال الاشخاص ومواقفهم ـ بدت محشورة في بناء

ضيق وتتفاعل في جو من المحدودية والقسر . وهذا ما يفسر بوضوح لماذا دفعت غادة بمصطفى مثلا الى الانتماء بصورة مرتجلة ودون سابق توجيه ، فضلا عن أن السياق العام الذي جاء فيه هذا الانتماء يميل الى الافتعال ، كما يفسر أيضا لماذا اقتادت غادة السمان مختلف ابطالها الذاتيين الى مواقف وجودية في الغالب جاءت اما قتلا أو جنونا أو انتحارا ، ولكنهـا في جميـع الاحوال ظلت تفتقد الى التبريرات الفنية الكافية .

ان غادة السمان وقد وعت ضرورة التركيز فنيا ، لم تستوعب بالمقابل شروط الحفاظ له على قوته الفكرية ، أو لم تستطع أن تمثل له ايديولوجيا فأرغمها ذلك على تبني أقرب الحلول اليها منطقية وأبعدها في الواقـع عـن منطق الاحداث موضوعيا . والعلة في ذلك كامنة في اسلوب التوظيف الفنـي للقضايا الفكرية . وقد انتهى الامر بالكاتبة من خلال ذلك وفي اتجاهات أخرى الى مـا يلـي :

1 ـ اقحام أسلوب الفانتازيا في التعبير عن جنون فرح من وراء الكوابيس حتى تجسد المعنى العميق لتشرهه وعيا وطبقة ، مع أن فرح لم يكن يحتاج ـ رغم دوره المهيمن في الرواية ـ الى هذا الوسيط الفني بغية اظهـار موقعـه الحقيقي في المجتمع والممارسة .

2 : الاهتمام بالثانوي على حساب الرئيسي . فمصطفى الذي يبدو أن الكاتبة أرادت أن تدعم به موقفها الديمقراطي من التطورات السياسية في لبنان لم يشغل في حيز الرواية سوى مساحة قليلة لم تكشف عن حلقـات فكـره وممارسته الا بالقدر الذي استفادت منه غادة في ربطه بالتنظيم . بينما استبد فرح بمعظم التطورات التي جعلت منه ضحية تطلعاته الذاتية . فالثانوي من الناحية الفكرية (فرح) أصبح رئيسيا من الناحية الفنية وتطور مـن هـذه الزاوية على حساب مصطفى الرئيسي فكريا . والمسألة هنا ليست مسألـة ترتيب أو افضليات ، أي أنها ليست تقنية أساسا ، بل ان الفهم السياسي هو الذي يحدد بأية كيفية تعاملت غادة مع هذا التفاوت . وقد سبق أن أوضحنا أن الكاتبة كانت تتبنى رؤية فكرية عامة من التطورات اللبنانية ولكنها لـم تستطع ـ بصورة كافية ـ القيام بترجمتها في الممارسة الفنية ، في الابداع .

3 : دور الحلول السريعة في الابقاء على نمط الشخصية دون استيفاء تام لجوانب التطور في حياتها ومختلف القضايا التي عايشتها ، وربما كان ذلك عائدا ، بدرجة ما ، الى السرعة التي انجزت بها الرواية . ولكـن تفسيره الحقيقي لا يستقيم الا بمعرفة الخلفية التي تحكمت فيه . وسنحاول فيما يلي أن نكشف عن هذه الخلفية في تدخل وجيز .

5 ـ ارادة الـقـتـل ، وقـتـل الارادة

الف . تعاملت غادة مع نماذج روايتها من زاويتين : 1 : الزاوية الاولى

ظهرت في الانتقال بهم من وعي الخاص (الذات) الى التحكم في العام (الموضوع) وذلك صعودا بهم ـ من خلال مسيرة تظهر فيها المعاناة الاجتماعية كخصيصة لازمة ـ في مدارج التطور الى ما رأت الكاتبة أن باستطاعته أن يفسر استمرارهم أو فشلهم ، فضلا عن اظهار مكونات شخصيتهم وطموح فكرهم وخبايا مصالحهم . وهذه زاوية عمودية رسمت في الرواية مثلثا قاعدته الى الاسفل ما يكاد النموذج الروائي يصعد الى قمته حتى يبدأ في الانحدار . ولعل أبرز من عبر عن هذه الزاوية : فرح وياسمينة .

2 : اما الزاوية الثانية فقدت بدت من خلال الحكم على النماذج حكما تتفاوت أهميته السياسية والايديولوجية بتفاوت قيمتها (أي النماذج) مما يعني أن القتل أو الجنون أو غيرهما من الاحكام ، تتضمن مبدئيا مواقف من الصراع الاجتماعي الذي توضح في الرواية من خلال الممارسات والاهداف والمصالح . لقد طرحت غادة السمان في (بيروت 75) أرضية لتحدد بها أطراف النزاع ولتدخل من ثم بدورها كطرف فيه جاعلة من انحيازها الى جهة فيه ـ مصطفى كخط ديمقراطي تقدمي في مواجهة البورجوازية الكومبرادورية ـ علامة مميزة على دورها في التعامل مع باقي الاطراف التي كانت أو جاءت على النقيض من تصورها . ولذلك لا يمكن التغافل في هذا المجال عن المكان الطبقي الذي انطلقت منه الكاتبة ودعمت به ممارستها الابداعية في انتقاد أو توجيه نماذجها. انها بحكم ذلك تدافع عن قيم ايديولوجية ، تتعارض مع القيم الفاسدة في المجتمع الطبقي اللبناني ، ولكن هذه القيم بما فيها من محتوى ديمقراطي تقدمي (فضح الاستغلال ، مناصرة التحرر الاجتماعي ، تثمين النضال ..) ظلت خاضعة للتصور البورجوازي الصغير الذي لم يفلح غالبا في توجيهها وجهة دفاعية صحيحة . لقد استبدت النزعة الوجودية فلسفيا بجو الصراع في الرواية وتأثرت بها ردود الافعال المختلفة ، وكان من المنطقي جدا أن يكون ذلك من دواعي البحث عن الحلول السريعة ، فردية وأحادية في المقام الاول ، التي تعترض أسلوب فهم مخارج الصراع .

والحال ، أن غادة السمان اختارت طريقا سهلا للدفاع عن قيمها تلك ، ولم يكن بوسع التنظير الوجودي الا أن يزيده اندفاعا في السهولة ويتمثل ذلك بصورة واضحة في :

بـاء : مفهوم الجنون الذي يأتي بالنسبة للشخصية الرئيسية فرح كمحصلة لدورانه في اطار مغلق . فنقد الوصولية في ذات فرح لا يتم الا من خلال : ابراز جانبي الضياع والغربة في تطور حياته . والقيمة الاساسية التي حاولت الكاتبة أن تستخلصها من هذا النقد بقيت مجردة ولا تدال بصورة كافية على الشروط الفعلية التي جعلت من الوصولية مصيدة البورجوازي الصغير .

كما أن مقتل ياسمينة لا يفهم بدوره الا في سياق بحثها المتواصل عما لا يمكن تحقيقه الا بجعل التصور الايديولوجي الطبقي الزائف لديها ينقلب جذريا ضد مفهومها للمصير الفردي . ان طلب الشهرة عند الكاتبة هو معادل موضوعي – اخذا بالحسبان مجمل الشروط التي تطورت فيها ياسمينة – للقتل . بينما لا يمكن أن يكون هذا التخريج واقعيا سوى نتيجة واحدة فقط لما كانت تأمله ياسمينة من الحاحها في طلبها ذاك . وهي نتيجة احتمالية وسيئة على كل حال . الا أن الطريق الى القتل هنا هو بمعنى ما الطريق الوجودي الى العدم . واذا تبقى القيمة التي أرادت أن تزكيها الكاتبة غير مكتملة .

ومع أن التعامل مع وضعية مصطفى كاستمرار نضالي لابيه كان محكوما بالتعاطف الشخصي معه كما أوضحنا في حينه ، الا أن وضعيته لا تختلف الا في النتيجة مع غيرها من الأوضاع . فهو قد تطور في الممارسة بالوعي والنضال وذهب من ثم الى التنظيم ، ولكن حركاته هذه بقيت سريعة في النص وضعيفة في الدلالة المتوخاة ، وفوق هذا وذاك فيها شحنة رومانسية من قبيل التغطية الشعرية لتحوله من وعي ذاته الى وعي العالم المحيط به .

جيم : الا أن غادة وقد اندفعت بقناعة تامة (من خلال هذه الحلول) في ممارسة عنفها الفني (على المصالح الطبقية المختلفة عبر ممثليها البارزين) كانت في الطرح العام . تريد الوصول الى المعنى الشامل الذي قامت عليه الرواية ، وهو ما عبر عنه فرح نيابة ، واتخذ صفة اتهام مباشر سياسي / ايديولوجي للمجتمع اللبناني – بيروت في النص . فالقول ان بيروت « مستشفى مجانين » هو ما يفسر بجلاء لماذا استمرت غادة تأخذ بأسباب الصراع على امتداد الرواية دون أن يغيب عنها الوصول الى نتائجه . وفي الحين الذي اقترحت فيه نتائج أولية تخص مصائر اشخاصها فادانت « ايديولوجياتهم » من حيث هي تصورات زائفة له ، اقترحت على غرار ذلك – ولكن بشمولية أكبر – نتيجة ختامية وشافية باعتقادها لمصير المجتمع اللبناني . وقد لا يغني هذا عن القول : ان مصطفى في الرواية هو التطور ، وأن بيروت « مثل احشاء وحش جهنمي يتأهب للانقضاض » (ص 108) كانت فاتحة الحرب الاهلية من خلال تحليل مجريات الصراع الطبقي .

وباختصار : 1 : واجهت غادة السمان بيروت من منظور طبقي ، سياسي أيديولوجي . 2 : وبحثت فنيا وفكريا في مختلف مواقع الصراع ومواقفه . 3 : فأدانت البورجوازية وانحازت جهة الاختيارات الديمقراطية التقدمية . 4 : وكان ذلك بمثابة تخطيط فني لعالم وجودي في أبعاد واقعية . 5 : انتهى بها الى قتل ارادة البورجوازية الصغيرة في صنع مصيرها الفردي من منطلق أوهامها الذاتية . كما الى وضع بيروت / لبنان على طريق الحرب الاهلية

بالاستناد الى طبيعة الصراع الجاري فيها . وبعبارة أخرى : ان (بيروت 75) هي ـ انسجاماً مع تحليلنا ـ معالجة وجودية في الغالب لاسباب صراع واقعي.

مـارس 1978

اشـــارات :

1 ـ منشورات غادة السمان ، الطبعة 2 1977 ، بيروت .
2 ـ « .. وخلف اللافتة اطلت بيروت في الفجر مثل احشاء وحش جهنمي يتأهب للانقضاض .. » (108) ..
3 ـ كـوابيـس بيـروت ..
4 ـ « آه كم انا ضائع ووحيد .. » (17)
5 ـ « لم ير طيلة حياته عددا من السيقان العارية كالتي شاهدها في نصف الساعة الاخيرة (...) منذ وصل بيروت وهو يتسكع مسكونا ، بالدهشة » .
6 ـ « لم يبد على الناس رعب او ضيق ، بعضهم رفع بنظره الى السماء وبعضهم لم يكلف نفسه عناء ذلك (...) انهم يخترقون جدار الصوت معلنين عن وجودهم العدواني المتحدي .. » (18) .
7 ـ « شيء ما في وجهي يدعو الناس لاضطهادي .. » (19) .
8 ـ « ذهب ، ذهب وانا احب الذهب والمال ، المال يعني الحرية ، المال يعني الوقت ، المال يعني الثراء وشراء الكتب والاسطوانات والسفر وعدم الانحناء ، والمال يعني النساء الجميلات ذوات الايدي الناعمة ولكن اين نيشان ؟؟ .. » (43) .
9 ـ « وكان متعبا متعبا كانما غسلت الايدي دماغه وعذبته طيلة شهر بالغربة والوحشة والحرمان وجعلته يتقزم داخل نفسه ضئيلا مثل صرصار نصف مداس .. » (83)
10 ـ « اذن ، تريد الشهرة والمال . يقول والدك في رسالته ان صوتك جميل . هل تعرف ثمن الشهرة ؟ هل انت على استعداد لدفعه ؟، الطاعة اولا ، الطاعة المطلقة لي .. » (44) .
11 ـ « واحسست بانني لم اعد املك نفسي ، لقد بعتها والى الابد الى الشيطان .. » (65)
12 ـ « انه لا يستطيع أن يقول لها انه لا جدوى من المحاولة . فقبلها كانت في الفراش امرأة أخرى ، وقبلها اخرى .. وفشل معهن جميعا سبع نساء في اسبوع واحد .. » (63) . « ونيشان كان لحمه الكثيف المترهل يرتعش حبا وهو يقول : النساء لا يقدرن على منحي هذه المتعة ايها الرجل الرائع .. » (65) .
13 ـ « ينفجر باكيا ضاحكا وهو يسمع لقبه مطرب الرجولة .. » (63)
14 ـ « اهرب .. اهرب واترك كل شيء وعد الى قريتك .. »
15 ـ « فقد القدرة على الصلاة وعلى مضاجعة النساء ، لم يعد يعرف النوم ، صار ايضا يسمع اصواتا كثيرة في داخله ويجد نفسه يرد عليها بصوت عال .. » (82)
16 ـ تعبت من العمل استاذة في مدارس الراهبات . سئمت ، سئمت الايام تمشي ثقيلة كجسد مخدر على طاولة العمليات . وانا لا افعل شيئا سوى التدريس والضجر وكتابة الشعر .. بيروت تنتظرني بكل بريقها ، بكل امكانية الحرية فيها ، بكل امكانية الحب فيها ، بكل امكانيات الشهرة . وقلبي طائر جائع للتحليق .. » (9)
17 ـ « لقد ايقظت الشمس جسدها .. وصوت اصطخاب الامواج ورائحه . الملح واهتزاز اليخت في قلب البحر والويسكي الذي لم تذقه من قبل .. » (13)
18 ـ « ارتمى على مقعده وهو يرتجف « لقد نجوت منهم هذه المرة ، لقد استطعت الافلات من مراقبتهم ، وضاعت رصاصاتهم في الهواء (ثم) شعر طمان بحاجة الى البكاء .. » (1)
19 ـ « هناك من سيقتلني ، هناك رصاصة تم اطلاقها حين اتخذوا في الحدود قرارا بقتلي اخذا بالثار » (59) .
20 ـ « كان يتحرق للعودة الى لبنان ومزاولة العمل ، قرر ان يفتح في بعلبك صيدلية « الحنان » » (60) .
21 ـ لقد قتل ابن عمك « مرعب » احد افراد عشيرة الخرطلية اخذا بالثار لعمك ، والقتيل كان يحمل شهادة جامعية . ولذا قررت عشيرة الخرطلية اخذا بالثار ان يكون القتيل من

عشيرتنا اول شاب يفوز بشهادة جامعية، وتصادف أن كان هذا الشاب هو أنت .. » (60)

22 ـ « المحامي : وضعك سيء جدا ، لقد قتلت رجلا لم تعرفه دون مبرر .
طعان : قتلتـه دفاعا عن النفـس .
المحامي : لـم يكن يحمل سـلاحـا .
طعان : قتلته لانه منهم يريد الاستدلال على مخبأي لقتلي
المحامي : ولكنه كان سائحا أجنبيا غريبا لعله ضل الطريق وحاول ان يسالك عن الدرب
طعان : مستحيـل .
المحامي : اثناء احتضاره في المستشفى قال انه حاول سؤالك عن الدرب فرددت عليـه برصـاصـة .. » (63) .

23 ـ « ينفجر باكيا ضاحكا (أي فرح) وهو يسمع لقبه : مطرب الرجولة ، لقد اطلقه نيشان تحت هذا الشعار ، جسد فحل ، وشعر كث عند فتحة العنق ، وصوت فلاحي اجش بعيد عن التكلف والتخنث .. وسقطت فتيات بيروت في الفخ .. صار هذا الرجل يقبر فيهن كل الجوع الممكن الى عصور الرجال الاقوياء .. » (63) .

64 ـ « يتذكر أن عليه أن يذهب الى الحلاق لشراء « بيروت » من اجل عقده الجديد لبرنامجه التليفزيوني ثم الخياط ، ثم الغذاء في مطعم اللوكلوس الفخم مع نيشان ، ثم اقراصه المهدئة لينام استعدادا لسهرة راس السنة (...) لقد افهمه نيشان انه تراهن عليه ولن يسمح له بالانسحاب من السباق (...) وصفعه ثم قبله ثم صفعه ثم قبله ثم امره بارتداء ثيابه ثم جره الى المطعم لان منتج فيلمه الاول يريد ان يراه .. » (83) .

25 ـ « انها شهية في الفراش ، انها تتقن ارتشافي كجارية تدربت طويلا في قصور السلاطين الامـويـيـن .. »

26 ـ سأسلمها مؤقتا الى نيشان وسأتجنبها في فترة زواجي الاول تحاشيا للفضائح .. اللعين نيشان ليته يتم الصفقة » (74) .

27 ـ « جسده الصلب الرشيق الذي ينم عن الثراء ، فالعضلات ليست متورمة كمـا يحدث لاصحاب المهن اليدوية » (15)

28 ـ « لقد دهسني نمر بسيارته دون أن يتوقف .. والآن علي أن اتدبر أمري وحدي .. » (86)

29 ـ « سأسلمها مؤقتا (يتكلم عن ياسمينة) الى نيشان وسأتجنبهـا في فتـرة زواجـي الاول تحـاشيـا للفضـائـح » ..

30 ـ « خيـر يـا بيـك !
ـ جئت اسالـك عـن قضيـة هـامـة
ـ اضـمـر ..
ـ ضـمـرت .
ـ اري حزنا كثيرا ، اري دما كثيرا ، كثيرا من الدم . وانحنى بكل احترام يقبل يديها ويخرج مسرعا . (و) حين مضى ضحكت فايزة بصوت عـال وهـي تحصـي الغلـة الهائلـة .. » (48)

31 ـ كان في حوار مع صديقه أبي نمر ، كان مسرورا باقرار القانون الذي يتضمن للنواب وغيرهم من الكبار مستقبلهم ، من غدر الزمان . فكر البيك بالبصارة فايزة : لقد تنبأت باقرار القانون .. » (56)

32 ـ « كان الفلاح يصيح بصوت عال : قلت لك ان الاسرائيليين احرقوا محصولي ونسفوا بيتي . تعال واسكن معنا في أراضيك وانظر ماذا يحدث » (46) .

33 ـ « رد البيك : نصحتك مرارا انت واهل القرية بعدم ايواء المخربين ولم ترتدعوا . تسمونهم فدائيين وهم سبب خراب القرية . » (46)

34 ـ انظر على سبيل المثال : الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ـ سعيد جواد . شؤون فلسطينية (مجلة) عدد 60 . اكتوبر / نوفمبر 1976 ص. 76 ومـا بعـدهـا .

35 ـ « لاحظ بومصطفى ان الفتاة (يقصد ياسمينة) تتناول يده بذعر فلمها عن المقعد ودسها في جيبه . ففاحت من ثيابه العتيقة رائحة السمك وفكر بحزن : هذا المرابي (يقصد نمر) سيمتص دمي ، كلما عدت من عنده احس بالرغبة في البكاء .. » (11)

36 ـ « ثلاثون عاما وهو يخرج الى الصيد . ثلاثون عاما وهو يحلم بأن المصباح سيخرج ذات يوم من البحر ليعلق بشباكه . ثلاثون عاما وهو يزداد تقزما . »

37 ـ « استيقظ من نومه ، الظلام دامس ، قرر : هذا وقت العمل ، انا واللصوص نعمل في وقت واحد .. » (25)

38 ـ « عجز مصطفى عن النوم ، انسل من فراشه وغادر البيت . كان الرعد يقرع صدره بشراسة ، لكن لم يبال . لقد اعتزم أمرا وسينفذه ، قرع باب الرفيق بحيع :
ـ سأنضم اليكم ، لم أجد حلا آخر !
ـ لن تندم أيها الرفيق ، اهلا بك .. » (59)

39 ـ « عندما تسأل مصطفى والده : الم يحدث ان شعرت مرة بالحزن لموت سمكة واعدتها الى البحر رحمة بأنينها ؟ فرد والده « ان صوت انينك واخوتك العشرة حين يجوعون هو كل ما اسمعه .. » (34)

40 ـ « رمى بشباكه ، اشعل فتيل الديناميت ، الحزمة كلها دفعة واحدة دوى الانفجار مع صرخة مصطفى . رفع الرجال الشباك ، خرجت جثة بومصطفى كسمكة نادرة مضرجة بالدم .. » (79)

41 ـ « ثلاثون عاما وهو يحلم بأن المصباح سيخرج ذات يوم ليعلق بشباكه .. »

42 ـ « تكفيني متاعب العمل التي يخلقها مصطفى السماك . منذ أن انضم ذلك الولد الى الصيادين والمتاعب تتوالى . تطويعهم لم يعد سهلا ، صاروا يستعملون الفاظا خطرة مثل الكرامة والعدالة .. الاوغاد .. » (74) .

43 ـ « داهمه احساس عميق بانه انتقل فجأة الى عالم آخر .. »

44 ـ « لقد انتهى زمن القراءة والكتب التي استأجرها من المكتبات والاصحاب ، وداعا يا زمن كتابة الشعر . ما جدوى الحبر أمام هذا البحر .. » (28)

45 ـ « لقد اقترب الخريف وبدلا من المدرسة سيكون علي ان ادخل عالم ابي الموحش ، لقد بدأ خريف عمري دون ان احيا ربيعي . هكذا نحن نعيش خلسة ، نتعلم خلسة ، نقرأ الكتب خلسة ، نحب خلسة ونكتب الشعر خلسة .. ونموت خلسة .. » (27)

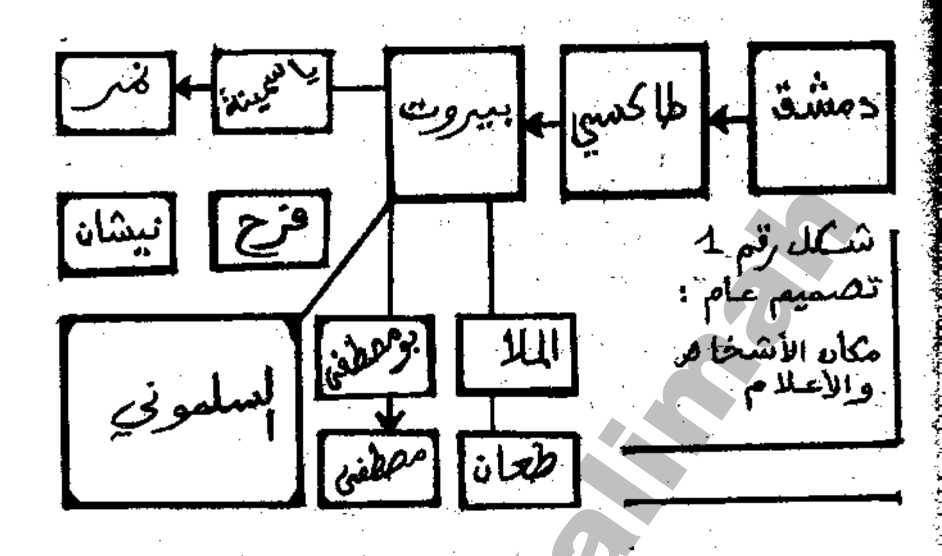
46 ـ « يا لطرق الصيد البدائية ، يجب أن نفكر بوسائل اخرى » (29)

47 ـ « لن اصلح صيادا ، انا شاعر مصاب بدوار البحر ومصاب بالدوار حتى على البر .. (29)

48 ـ « صرخ صوت : دعونا على الاقل نسجل قائمة بمطالبنا .. هاتوا قلما وورقة . مصطفى سيكتبها لنا .. » (54)

49 ـ « استطاع مصطفى ان يكتب : « كل شيء ضدنا ، البحر ملوث ، ووسائلنا للصيد بدائية . ولذا نصطاد في الليل ونعجز عن الصيد اكثر ايام السنة وعن الذهاب الى عرض البحر ، الاسماك تفقد العافية ، المجارير تصب في البحر والاسماك تفقد العافية ، النفايات بما فيها من تنك تعلق بشباكنا وتقطعها بحافاتها الحادة كالسكاكين وهي مصدر رزقنا الوحيد . نحارب على كل الجهات : الطبيعة ، اهمال المسؤولين ، الفقر ، الصياد بلا ضمانات ، انه ملك للمحتكر ككل شيء في هذا البلد ، المحتكر الذي يشتري ما نصطاده ، يفرض علينا السعر الذي يريده ، لا تعاونيات ، لا ايرادات ، الصياد بلا ضمانات . انه معرض للموت وتشريد اسرته او اطفاله ، لا ضمانات له ، لا تقاعد لا شيء .. ولاننا لا نملك تعاونيات او ثلاجات لخزن السمك ، فنحن نضطر الى بيعه بالسعر الذي يفرضه فاضل السلموني ونرجس السكني وزمرتهما .. » (55)

50 ـ تتكرر نفس المقارعة في موقف نمر البورجوازي من الغارة الاسرائيلية ، ففي الوقت الذي كان لحظتها يجالس (ياسمينة) فأصيبت هي بالذعر وانطلقت تعبر عن احساسها الوطني في استغراب شديد ، في الوقت نفسه كان نمر يبالغ في طلبه بالحاح راجيا من ياسمينة أن تقرب نهديها من صدره ! انظر الرواية ص 16 .



شكل رقم 1
تصميم عام :
مكان الأشخاص والأعلام

الموقع البورجوازي

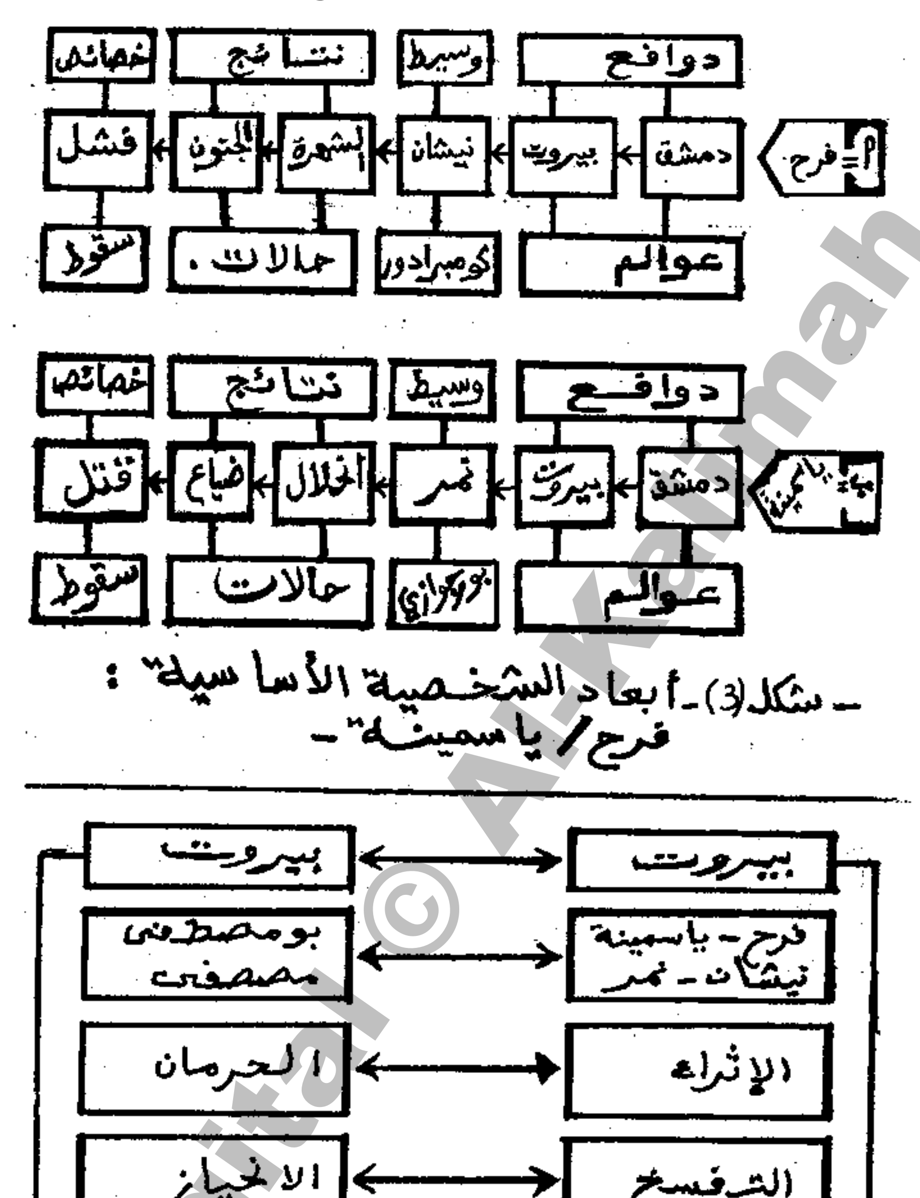
نمر
ياسمينة
فرح
نيشان

بيروت

أبو الملا
طعان
بومصطفى
مصطفى

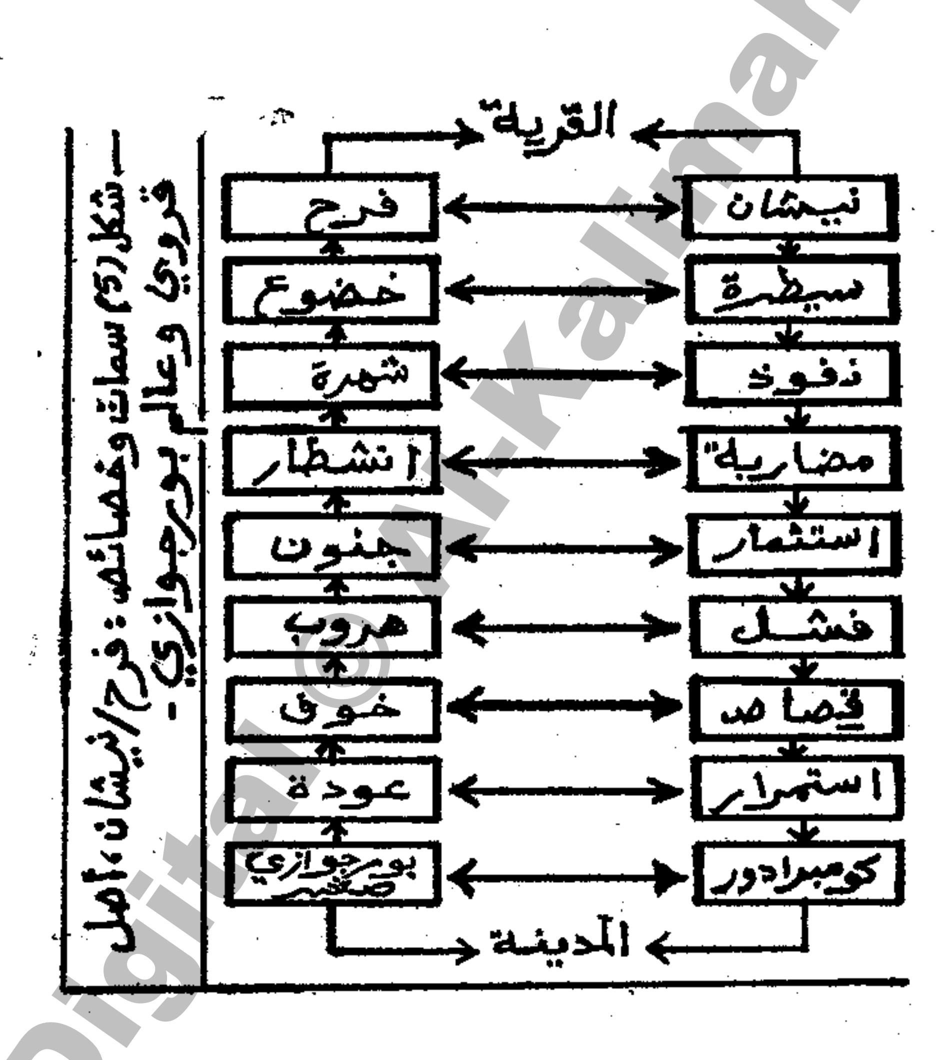
الموقع الديمقراطي

شكل رقم ٢ - المواقع الطبقية



- شكل (3) - أبعاد الشخصية الأساسية "فرح / ياسمينة" -

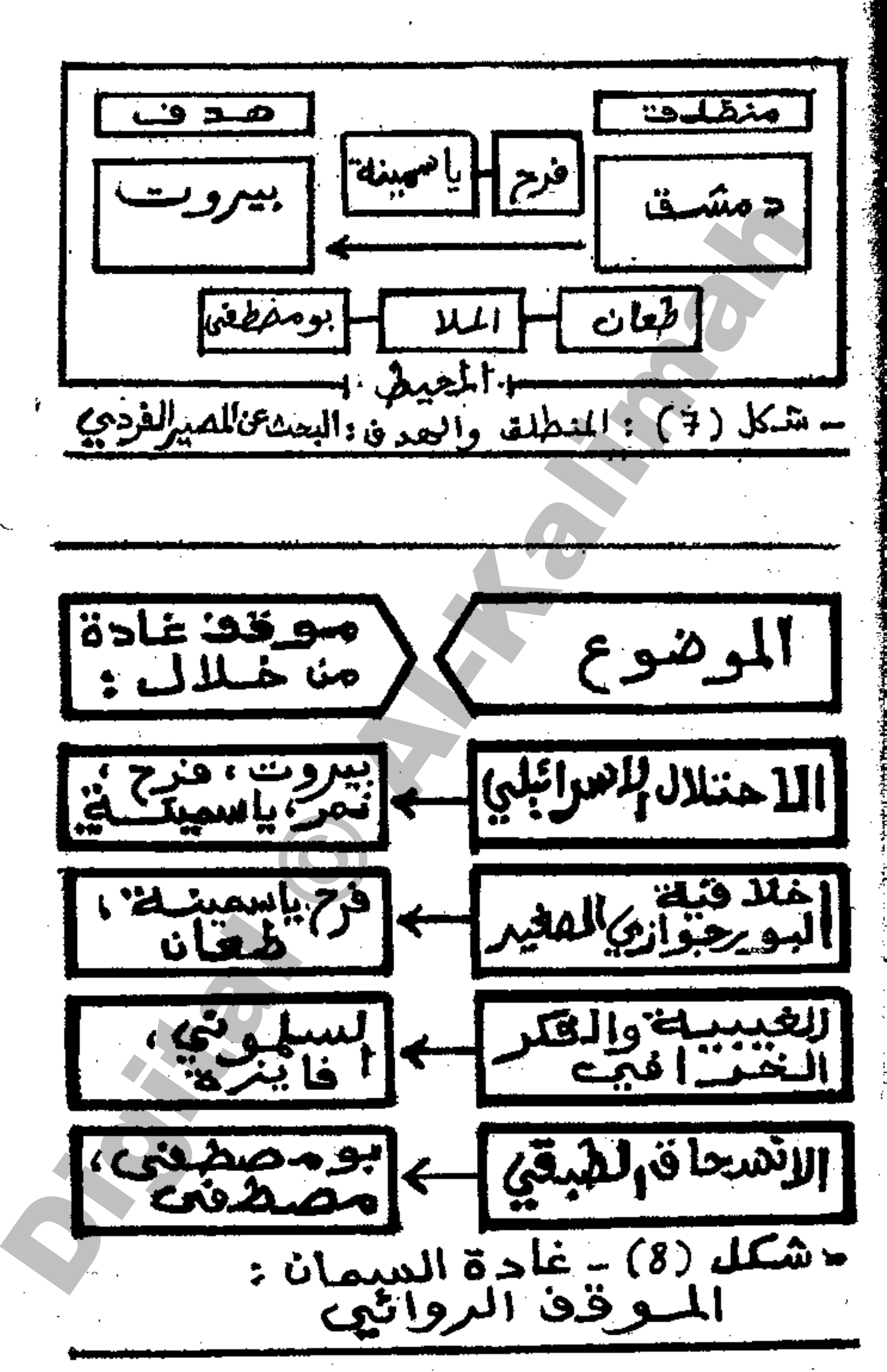
- شكل (4) : مجال الصراع وأطرافه



شكل (٥) سمات وخصائص: فرح/نيشان، أهل قروي وعالم بورجوازي.



شكل (6) : بيروت : الداخل البورجوازي
وخط الانتماء السياسي



ـ شكل (7) : المنطلق والهدف : البحث عن المصير الفردي

ـ شكل (8) ـ غادة السمان : الموقف الروائي

« قبــور في المـــاء » :
ملاحظات حول واقعية (زفزاف)

ابراهيــم الخطيــب

تنتمي رواية (زفزاف) « قبور في الماء » (1) الى النســق الواقعــي للكتابة الروائية . وهذا التحديد يقتضي أن نبرز أن النسق الواقعي ، الذي يتمتع بشفافية كبيرة ، يعتمد على ادراكين ضمنيين : التماثل بين الدلالة ، دلالة الكتابة ، وما تحيل عليه ، التماثل بين التتابع الافقي للزمن الروائــي والزمن « الواقعي » (ما يعبر عنه ، عادة ، بالتقدم الخطي) . على أن تحليلنا سيهتم بابراز خصائص هذا النسق من خلال التركيز على تقنيات وموضوعات (thématique) الحديث الاجتماعي اليومي في « قبور في الماء » ، وكذلك بالتركيز على الدلالات التي تحصل عن طريق التقابلات العفويــة في بنيــة النص . وانه ليس من السابق لاوانه التذكير بأن النسق الواقعــي ، الــذي يختصر القيمة المستقلة للشكل ، هو الذي يفترض تحليلا من هذا النوع .

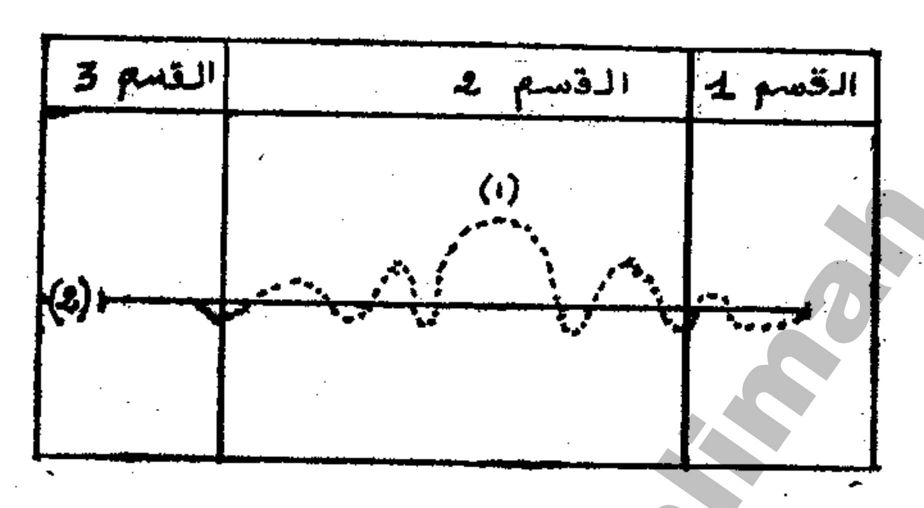
وليس من المبالغ فيه أن نعترف بأن (زفزاف) يتمتع بحس واقعــي جسيم ، يتجلى ، بصورة أساسية ، في قدرته على ايجاد حديث حكائي ذي استقلال عن شخصيته . ان صعوبة هذه الكتابة لا يمكن أن تقاس الا بمعيار الوحدة والانسجام اللذين يكون على الكاتب انجازهما ، ولقد حاول (غلاب) ، من قبل ، في (دفنا الماضي) (1966) أن يكتب رواية واقعية فاذا بالنص يرفض نسقه الخاص ، لقد كانت النتيجة أن انشطرت الرواية (جزء وصفي ، وجزء « ملحمي » يلاحق تاريخا معروفا) ، وكان علينا أن نتساءل ، اذ ذاك ، بصدد انشطار الروائي . على أنه من الافضل ألا نفهم من التركيز على مسألة حياد الروائي في النسق الواقعي اننا نقيم مفاضلة بين الكتابة الاونطولوجية والكتابة الواقعية . ان الامر ، بالنسبة لنا ، يبقى بمنأى عن أي تقييم . واذا كان (زفزاف) قد تمكن من انشاء رواية واقعية ، فانه لم يفعل ســوى أن أبرز احدى خصائص الرواية المغربية وهو ارتباطها واصطدامها ، في نفس الوقت ، بالتاريخ وبمجمل الرؤى الايديولوجية المؤثرة في ثقافتنا (2) . لكن يجب ان نلاحظ أن هيمنة النسق الواقعي للسرد لا تستثني وجود عناصــر أخرى لا تمت لهذا النسق بصلة : ان التقابلات العفوية ، التي أشرنا اليها ،

يمكن أن تعتبر كما لو كانت ظواهر بروز محدودة للكتابة الاونطولوجيـة ـ هذه الكتابة التي لا تفترض ، مسبقا ، وجود نسق .

غير أن المهم هو ليس تحديد النسق ، وانما اظهار الطريقة التي يوظفه به الكاتب . وفي هذا الصدد ، يبدو (زفزاف) كاتبا يتوفر على سهولة المجاز، فيمـا تبـدو الروايـة أشبـه بـ « خرافـة أخـلاقيـة » (cont e moral) لقد وقع التركيز على التحول من التراجيدي الى الساخـر ، بهـدف ابـراز « الانحطاط » (3) الذي يتصف به ذلك العالم الصغير ، المغلق على نفسه ، عالم القرية الذي يبدو مقطوع الصلة بكل ما حوله . فبعـد اعـلان غـرق السفن ، وموت الصيادين ، سيظهر سكان « المهدية » آلامهم ، بصورة موجزة ، قبل ان يخوضوا صراعات يومية ، تتحلل تدريجيا الى رغبة في الحصول على دية لموتاهم ، ثم الى قبول وليمة جماعية تعطي انطباعا بأن ما يميز الفقر هو سهولة ارتداد المأساة الى صفة المهزلة .

اقتصـاد الـروايـة :

ان (زفزاف) يقدم كل ذلك من خلال تقنيات تتوفر علـى اقتصـاد « الخبر العادي » (le fait divers) : فاذا استثنينا حجم الرواية (الذي يعبر عن مشاكل تخاف الرواية من شكل القصة القصيرة) نجـد أن زمنهـا الحكائي العام يتألف من ثلاثة أقسام فرعية ، يقوم فيها القسم الاول (ص 5 ـ 43) بابراز مجموع العلاقات التي ستكون الجهـاز السردي الاساسـي (الصيادون ـ عائلاتهم ـ العياشي ، صاحب المراكب) . ويقوم القسم الثاني (ص 45 ـ 78) بالتركيز على الحياة اليومية في القرية مع اظهار النمـاذج والانساق والموضوعات التي تتألف منها ، في حين يهتـم القسـم الثالـث (ص 78 ـ 100) بملاحظة سيرورة التحول من المطالبة بالدية الى الاكتفاء بالوليمة . وانه لا حاجة الى التأكيد بأن التقسيم الذي قمنا به الآن انما يهتم بالخط السردي العام . على أن الفواصل بين الاقسام الثلاثة تبقى وهمية ، مثلما يبقى الفاصل بين التراجيدي والساخر كائنا على مستوى التحليل فقط . ويبدو من المهم أن نلاحظ التوازن الذي يطبع العلاقة فيما بين البنية السردية للنص وبنيته الحوارية ـ هذه البنية التي تعمل على صياغة أكثر المنعرجات أهمية بالنسبة للنسق ، لانها تضع حدا مفاجئا لطبيعته الاستطرادية ، لكن هذه الملاحظة لا تنطبق على القسم الثانـي حيث يتبـدل نظـام الكتابـة : فالاستطراد يغدو هو السمة الغالبة . لقد كان على النص أن يهتم بأبنيـة حكائية رديفة ، وبالتالي أن يوجد سلمية (hiérarchie) مختلفة للعلاقـة فيما بين الجهاز السردي الاساسي وهذه الابنية .



(1) الخط المتقطع : ويبرز البنيات الحكائية المتوالدة عن الاستطراد .
(2) الخط المتواصل : الجهاز الحكائي الاساسي

الدلالة المزدوجة :

انه من المحتمل الظن بأن (زفزاف) قد فكر في روايته كشكل من أشكال التعبير عن الذاكرة ، فقريبا من « المهدية » كان مسقط رأســه . وفي نفس الوقت لا يبدو مستثنى أن يكون قد فكر في قرية «المهدية» كـ « عالم مصغر » يعكس ، ببرودة شاملة ، المشاكل الكبرى للحياة اليومية ، غير أن ما ينسج هذا العالم الوسيط ، عالم النص ، هو تجاور الدلالة الذاتية (مع الاعتراف بوظيفتها الجزئية) والدلالة العامة (ما يقدم المبرر الاساسي للنسق الواقعي).
وينتج عن ذلك أن واقعية (زفزاف) هي واقعية مغرضة تتمحور فوق دلالة محددة هي دلالة تقابل التراجيدي والساخر . غير انه ليس من الضروري فهم الدلالة كمستوى مستقل من المعنى ، وانما كـ « كتابة » ثانوية ، تبرز بصورة متقطعة ، مخترقة أسلوب النص . فالتراجيدي هو الذي يهيمن في البداية (وان في صفته اليومية : فالصيادون الغرقى هم أشخاص عاديون ولا أسماء لهم) . لكن نبتة السخرية سرعان ما تظهر (ص 7) في شكل تركيز متنافر على بعض حركات الشخصيات أو صفاتهم ، وهكذا سيكون على بقية النص أن يبرز تداخل طرفي الدلالة ، وهيمنة كل منهما على الآخر ، في حدود اعطاء الواقعية ، في النهاية ، صفة الهجاء الفعال : ان الملاحظات المنتظمة ، الساخرة ، التي تأخذ في التكاثر ، تدريجيا ، على مستوى الحوار أو السرد ، تغدو سياقــا حكائيا نوعيا يقدم ، قبل كل شيء « حــديث الكــاتب »
باعتباره مكونا من مكونات النسق . لكن البرهنة على هذا التحليل أمر محرج. ذلك أن الراوي ، في رواية (زفزاف) ، هو « شخص » ، مما كان يتحدث لغة

أخـرى (!) .

ان الدلالة المزدوجة التي أشرنا اليها الآن ، هي ليست فقط نتيجـة أسلوب ، وانما نتيجة ادراك كلي : انه من الضروري أن نتحدث عن العلاقة بين التأويل النظامي للمكان وبين هذا الادراك . على أن ما يجب التنبيه اليه هو ان الادراك الذي نحن بصدده ، على العكس من الدلالة المزدوجة ، ليس متعلقا بالكتابـة ، وانمـا بـذلـك البنـاء العفـوي الـذي يتـأسـس ، بصـورة ملتبسة ، اثنـاء القـراءة . وانـه مـن المـمـكـن ، هـنـا ، أن نهتم بعلاقة « البحر ـ الارض » ، حيث يحيل البحر على الدلالة التراجيدية (« لقد تخيل أن البحر مقبرة رهيبة » .. ص 6). فيما تحيـل الارض علـى وضعية الاحياء المثيرة للسخرية . ان الموت يبدو جديرا بالاهتمام من حيث ممكناته الحكائية ، غير أن النسق الواقعي هو ليس نسقا تراجيديا لانه تعبير عن « انحطاط » . وعندما يهتم الراوي بالاحياء فانه يفعل ذلك باعتبارهـم ظلالا للموت : ان طقس الحياة الذي يؤدونه ، بحثا عن « عدالة » غير موجودة، هو الوجه الآخر لمعنى غرق الصيادين .

على أنه بموازرة هذه العلاقة ، التي هي أساسية بالنسبة للنسق لكن على سبيل الاضمار ، تظهر دلالة أخرى هي دلالـة تقابـل « المهدوييـن » و « العياشي » (صاحب مراكب الصيد) . ان هـذا التقابـل يحدث علـى مستوييـن :

1) **مستوى العلاقة بين شخصيات الرواية** . وفي هذا الصدد من الممكن أن نلاحظ بأن « العياشي » شخصية غائبة : فهو لا يظهر ، كفاعل ، الا في حديث « المهدويين » بعضهم مع بعض ، حين ينسبون اليه مسؤولية غرق المراكب ، لكنه سيظهر ، فيما بعد ، كأثر ، وذلك عندما سيسمـع سكـان « المهدية » ، باندهاش ، قدومه الى صاحب المقهى (ص 92) . انهم لـم يروا « العياشي » لكن بعضهم رأى آثار سيارته قرب المقهى « ولم يصدق ذلك » (ص 94) (4) .

2) **مستوى الدلالة** . وهنا سيكون علينا أن نعتبر أن « العالم المصغر » الذي تخيله (زفزاف) يعكس ، في اطار تقابل « المهدويين ـ العياشي » ، تقابلا أعم بين « المدينة » و « القرية » ـ هذا التقابل الذي يظهر ، في نفس الوقت ، على مستوى الكتابة والدلالة العفوية . ان المدينة تغدو معادلا للغنى (فهي تمثل احدى بنيات « العياشي » الروائية : البنية المدينية ، البنيـة السياسية ، البنية التيولوجية الخ) . بينما تكون القرية مكانا لتفريـخ الفقر ، كما أن المدينة ، على عكس القرية ، تغدو معادلا للسلطـة ، حيـث يستطيع « العياشي » أن يجعل (القايد) الى صفه ، بينما يتمكن (القايد) من أن يهدد سكان « المهدية » ، وأن يمنعهم من المطالبة بحقهم . ان دلالة هذا

التقابل تترسخ ، تدريجيا ، كجزء من « مخيلة » النص ذاته : فالمدينيون شرسون (ص 16) ، وهم أصحاب سيارات وفيلات . ويرتدون كل يوم أثوابا جديدة (ص 18) وهم مولعون بالربح (ص 18) كما أنهم يشكلون مطامح بالنسبة لسكان « المهدية » (ص 31) وبموازاة هذه الصورة « الحلمية » فان القرية تغدو مكانا للموت : فالبحر مقبرة رهيبة لا تتغذى سوى من جثث آدمية (ص 6) وأشجار القرية لم تعط ورودا أو ثمارا قط (ص 7) بينما توصف الارض بأنها جافة (ص 8) ولذلك تموت الاغنام في نهاية كل موسم (ص 10) . أما الغابة ، التي تقع بين البحر والقرية ، فهي مكان « تقع فيه الجرائم » (ص 17) .

موضوعات الحياة اليومية :

ان هذه الشبكة من الدلالات ، التي تشكل المضمون المركزي للرواية ، تبرز بواسطة تقنيتين : التراكم والتوازي . ويبدو من اللازم التنبيه الى أن « التراكم » لا يتحقق عن طريق التكرار وانما عن طريق تفتيت المعنى العام الى معاني جزئية (5) ، بينما لا يفترض التوازي التشابه وانما خلق حركة مزدوجة لنفس المعنى (6) . على أن هاتين التقنيتين لا تستعملان استعمالا منهجيا في « تبرر في الماء » ، بل كجزء من أدوات النسق الواقعي . ان الراوي، بدون شك ، ليشعر بحرية كبيرة أثناء انجاز السرد ، لكن لا يجب أن نضع هذه الحرية في مقابل هيمنة بعض التقنيات .

وليس من الصعب أن نلاحظ أن القسم الثاني للرواية ، فيما يقدم الموضوعات الاساسية للحياة اليومية ، يعطي أمثلة متباينة على طرق استعمال تلك التقنيتين . اننا سنشرع في ايجاد تصنيف موجز للموضوعات المذكورة يهتم بابرازها كعناصر ضرورية لانجاز « واقعية » النسق ، وانه ليس من نافلة القول الاعتراف بان شكل الحياة اليومية يعتبر المكان المركزي لتداخل مستويات الحديث الاجتماعي ، هذه المستويات التي تصوغها في الرواية أبنية حكائية ذات استقلال نسبي . اننا نقصد بالحديث الاجتماعي ذلك الكيان الدلالي العام الذي يتالف من دلالات فرعية تخص مواقف الشخصيات الروائية أو تخيلاتها ، بينما نعنى بـ « الابنية الحكائية المستقلة » مجموع العلاقات المؤقتة التي تساهم ، عن طريق التراكم ، في انجاز ما سميناه « واقعية » النسق . ومع أن الحديث الاجتماعي يتوفر على « أحاديث » لا يمكن حصرها بصورة نهائية (نظرا للتنوع الكبير الذي تتميز به ، أولا ، وللتباين الواضح في مجالاتها الدلالية المحكومة بالايجاز أو الاستطراد، ثانيا)، فلقد امكننا أن نلاحظ وجود الاحاديث التالية :

1) الحديث الاثنوغرافي ونعني به الطريقة التي تنظر بها الرواية الى شخصية « مختلفة » من ناحية العرق ، مع توظيف هذا الاختلاف لاغراض

حكائيــة .

(أنظر : « ابراهيم » ، ابتداء من ص 45 . فأصله البربري ، سينتج عنه (بالاضافة الى ملاحظات الراوي حول « لهجته ») موقف سلبي نحو سكان « المهدية » ومشاكلهم . لكن هـؤلاء كانوا يعاملونه بقسوة اما على لسان الاطفال (ص 50) أو على لسان « عيوشة » التي وصفته بأنه « شلح ، كلب »)

2) الحديث التيولوجي ، ان هدف هذا الحديث ، القائم علـى أساس هيمنة الغيب ، هو ابراز امكانية حدوث أي شيء ، مع ارجاع المسؤولية الى عوامل غير الانسانية ، وبالنسبة للرواية فهو يقوم بدور واضح في تحويل التراجيدي الى ساخر : ذلك أ نغرق الصيادين سيؤول ، في هذا الصدد ، كما لو كان تعبيرا عن « مشيئة الهية » (أنظر : « الدرقاوي » . « عزوز » ص : 22 ، 26 ، 27 ، 40 ، 41 ، 42 ، 43) . ان الحديث التيولوجي ، في اطار النسق الواقعي ، يقوم بمراكمة العوائق ، وفي نفس الوقت يبرز امكانيات تشتـت الوعي بواسطة نظام مطلق .

3) الحديث الجنسي . ونعني به ادخال الرواية لموضوع « الجنس » بهدف اظهار الطبيعة المزاجية لبعض الشخصيات ، وفي ذات الوقت لاحداث انقطاع في تيار سردي معين . على أنه من الضروري ان نلاحظ أن الحديـث الجنسي يقوم ، من جهة أخرى ، بابراز الحديث التيولوجي كحديث نسبي . وفي هذا الصدد تجب الاشارة الى « الوظيفة التحررية (fonction libératrice) لموضوع الجنس في كتابات (زفزاف) (7) .

(أنظر : ص 48 ، 49 ، 50 . ان مجيء « حدوم » يقطع الحوار العنيف الذي كان بين « ابراهيم » و « عيوشة » فيما يبرز ، بطريقة مضمرة ، رغبة « ابراهيم » الجنسية ، وبطريقة معلنة ، يقظة الاطفال المبكرة) .

4) حديث « الطفولة » . وهو حديث متميــز ، نظـرا لانــه يعبـر عن ذاكرة الكاتب كما يبرز امكانيات احداث الخلخلة في الطبيعة الاتفاقية للحديث الاجتماعي عن طريق تمزيق واختراق الجهاز الحكائي الاساسي . وفي هـذا الصدد ، يمكن النظر الى هذا الحديث كما لو كان ذا طبيعة انتقادية من حيث المحتوى . أما من حيث الاسلوب فهو يعبر عن انزياحات متعددة تتجلـى ، مثلا ، في ادخال « الغناء » (ص 51) كنسق لابراز العلاقة بين « ابراهيم » والاطفــال .

(أنظر : من ص 49 الــى 64 . حيث يبــرز حديـث « الطفولة » من خلال الحكايات الفرعية التالية : « ابراهيم » ، « حدوم » « عزوز » ، « الدرقاوي ») .

5) حديث الفقر . انه يظهر هيمنة عامة على مختلف أقسام الرواية . لكنه يبرز ، ككتابة ، في القسمين الاول والثاني . اننا نعني بـ « حديث الفقر» ذلك الانطباع البؤسوي (misérabiliste) الذي يصوغه السرد الروائي اما في شكل وصف ، يؤدي وظيفة القرينة (indice) (وهنا يتعلق الامر بالظواهر الخارجية) ، أو في شكل علاقات حكائية (تتداخل بها عناصر أخرى من الحديث الاجتماعي) . على أنه ليس من الممكن معالجة « حديث الفقر » كباقي الاحاديث الاخرى ، وذلك نظرا لطبيعته النظامية (systématique) بالنسبة لرواية « قبور في الماء » : فهو ليس بنية حكائية فرعية ، بل جهاز حكائي أساسي .

(أنظر : ص 8 ، 10 ، 11 الخ . بالنسبة للشكل الاول ، عند ما ينظر « العيساوي » الى سروال صديقه « المرقع القذر » والى سرواله هو . اما بالنسبة للشكل الثاني فانظر ص 46 ، 47 ، 48 . حيث تظهر العلاقة « ابراهيم ـ عيوشة » حالة الفقر المدقع التي توجد عليها هذه الاخيرة) .

6) الحديث الانتقادي . ويتميز بطبيعته الملتبسة . ان الالتباس ، كما يجب أ نتوضح ، يأتي من خصوصية النسق الواقعي الذي هو ليس نسقا ايجابيا . اننا نقصد من « الحديث الانتقادي » تلك المواقف التي تعبر بها شخصيات الرواية عن رغبات تتجاوز وعيها المباشر ، دون أن تكون قادرة على ادماجها في « معرفة كلية » . وليس من المبالغ فيه أن نقرر بأن « الحديث الانتقادي » ينتج ، تلقائيا وبصورة أساسية ، عن العلاقة « العياشي ـ المهدويون » ، نظرا للامكانيات الحكائية التي تتوفر عليها . لكنه ينتج أيضا ، وبصفة ثانوية ، عن « الحديث التيولوجي » و « حديث الطفولة » .

(أنظر : ص 18 عند ما يعبر « العيساوي » عن كراهيته « للعياشي » بواسطة رغبته في أن تجهض زوجته : ان العلاقة الثنائية (العيساوي ـ العياشي) تتحول الى علاقة ثلاثية ملتبسة . ص 31 : حيث يعلن « الحسناوي » عن رغبته في أن يصير « العياشي » بينما يخبره «العيساوي» بأن «العياشي» ليس سعيدا كما يظن « فهو دائما يشكو ويتبرم » :

ان كراهية « العياشي » تغدو أشبه بتعاطف انساني معه . ص. 38 : ان « العيساوي » يفتخر بوجود مسجد بالقرب من بيتهم « لكنه لم يذهب ذات يوم ليصلي فيه ، لانه في حاجة الى وضوء مستمر » الخ) .

7) حديث السلطة . انه ، مثل حديث الفقر ، يتميز بطبيعته النظامية وهو يرتبط ، بصورة أساسية، بشخصية « العياشي » ، خصوصا ببنيتها السياسية (العلاقة : « العياشي ـ القايد ») . من هنا تتولد دلالة هذا

الحديث على المستوى الحكائي ككل : فـ « العياشي » ليس فقط شخصية روائية ، وانما سلطة سرد تعمل ، بواسطة غيابها المباشر وحضورها غير المباشر (ممثلا في شخصية « بيوض » صاحب المقهى) ، على تحويل الحدث من دلالته التراجيدية الى دلالته الساخرة عن طريق ابطاء سيرورة الحكاية أو خلق انحرافات متعمدة فيها .

(أنظر : ص 10 ، حيث يتم التساؤل بصدد « العياشي » : هل سيأتي أم لا ؟ . نفس السؤال سيتكرر في ص 70 : « هل صحيح أن العياشي سيعود ؟ » . في مكان آخر (ص 91) سيوصف « العياشي » بـ « صاحب الامر » ، وسيكون موضوع خلاف جانبي بين « الحسناوي » و « بيوض ») .

ويجب ان نشير باننا لم نقصد هذا التحليل لذاته . ان النتيجة كانت ستكون اذ ذاك مختلفة، وسنكتشف أننا كنا ضحايا تصور مدرسي للواقعية، ولا شك أن ابراز علاقة هذه الاحاديث بالابنية الاساسية أو الثانوية للرواية سيساعد على رؤيتها بصورة افضل ، نظرا لانها ستدخل ، تبعا لذلك ، في سياقات حكائية محددة . ومع أن هذه العملية تتطلب متابعة دقيقة للاشكال الحكائية التي تتحقق فيها تلك الاحاديث ، فاننا اكتفينا باظهار اهمها ، اعتمادا على التقابل ، الذي سبق أن أشرنا اليه ، فيما بين الجهاز الحكائي الاساسي والابنية الحكائية شبه المستقلة .

المركز والهامش :

لقد ركزنا الحديث في الفقرة السابقة على مستويات الحديث الاجتماعي نظرا لارتباطها باشكال التعبير المختلفة التي يستعملها (زفزاف) في « قبور في الماء » . على انه ليس من الواجب أن نفهم من ذلك أن الحديث الاجتماعي يفترض أنساقا قد صيغت بكيفية مسبقة . ان النسق الواقعي يتوفر على حرية كبيرة ، لكن الامساك بها ليس بالامر السهل . ومع أن (زفزاف) قد صاغ جهازه الحكائي الاساسي كجهاز مغلق (فلم يكن ممكنا أن تؤدي العلاقة « العياشي » ـ المهدويين » الى شيء اخر) ، لكنه تمكن من احداث أبنية حكائية هامشية تتولد عن طريق الاستطراد بموازاة تقدم الجهاز الحكائي الاساسي (راجع : فقرة « اقتصاد الرواية ») . ان وظيفة الابنية الحكائية الهامشية هي ، كما أسلفنا ، اعطاء النسق « واقعيته » ، وفي نفس الوقت ابراز تعارضها النظامي مع الجهاز الحكائي الاساسي ـ ذلك التعارض الذي يلفت انتباهنا الى المشاكل المعقدة التي يضعها ، على مستوى الكتابة ، تجاور القصة القصيرة والرواية (8) . لكن هذه « الواقعية » يجب ان تؤخذ بشيء من الحذر : ذلك أن (زفزاف) لا يسمح لشخصيات الرواية بأن

تظهر ، ككيانات مكتملة ، على حساب السرد ، ان هذا ما يفسر ، على سبيل المال ، لماذا يهتم النص بشخصية « العيساوي » في البداية (دونما سبب ظاهر) لكي يجعل هذا الاهتمام، فيما بعد ، يتحول الى نسق منتظم : ظهور، اختفاء ، ظهور الخ . فالنسق هو الذي يهيمن في النهاية ، عن طريق ابـراز الهامشي ، فيما يتم النظر الى المركزي (شخصية « العياشي » مثلا) كمكتسب قار . ان العلاقة بين المركزي والهامشي تتحدد منذ الصفحات الاولى للرواية : 1) كشكل من أشكال انقطاع تمركز السرد حول تتابع حكائي باحلال سياق سردي عرضي مكانه (ص 8) و 2) بقلب أوضاع الشخصيات ، عن طريق ابراز الاهتمام بالشخصيات « الغائبة » ، (على مستوى السرد ، وأيضا على مستوى الجهاز الحكائي الاساسي) وترك الشخصيات « الحاضرة » تتمتع بالصمت المحرج من طرف السرد . وانه من المثير للتأمل ، في هذا الصدد ، أن نتذكر بأن شخصية « ابراهيم » ، التي بالغ الراوي في الاهتمام بها ، لا تقوم بدور بارز وحيوي الا على مستوى الابنية الحكائيـة المتولـدة عـن الاستطراد .

ان هذا التحليل يقودنا الى الظن بان « واقعية » (زفزاف) انما تقوم على أساس العلاقة بين المركز والهامش ضمن ممكناتها المتعـددة . وتبعـا لذلك ، نستطيع أن نلاحظ بأن التحول من التراجيدي الى الساخر يحـدث اعتمادا على ادراك مماثل لمحور مختلف للعلاقة ذاتها . وينتج عن ذلك ان الهامشي يغدو معادلا للساخر ، فيما يظهر التراجيدي كما لو كان انعكاسـا للمركزي . هكذا ، اذن ، يصوغ (زفزاف) « واقعيته » اعتمادا على رغبتـه الروائية ـ تلك الرغبة التي تتجلى في شكل انزياحات منتظمة عن النسق العام للكتابة ، مع المحافظة على فعالية السرد باعتبارها قيمة مركزية ، دالة على خصوصية « الخطاب » الحكائي .

هـوامـش :

1) الدار العربية للكتاب (ليبيا ـ تونس) 1978 . على ان جزءا من الرواية كان قد نشر من قبل في أحد اعداد (؟) مجلة « شعر » (البيروتية) .
2) راجع (اقلام) عدد 4 (1977) : « الرغبة والتاريخ » . كذلك ، « الرواية المغربيـة » (دفاتر المركز الجامعي للبحث العلمي ـ عدد 2) 1971 .
3) ان مفهوم « الانحطاط » ، الذي اخذ من (غولدمان) ، لا يظهر في رواية (زفزاف) كمضمون وانما كشكل مركزي . ذلك ما سنشير اليه فيما بعد (راجع : الدلالة المزدوجة) .
4) من هذه الزاوية لا يبدو مستبعدا النظر الى « قبور في الماء » كما لو كانت نصا روائيا قائما على محتوى « البحث » عن شخصية العياشي .
5) accumulation
6) parallélisme
7) « المرأة والوردة » ، المتحدة للنشر ـ 1974 ، بيروت .
8) ان رواية « قبور في الماء » تبدو مكانا مناسبا لطرح ومعالجة مشاكل هذه العلاقة ، وربما اتيح لنا فيما بعد القيام بذلك .

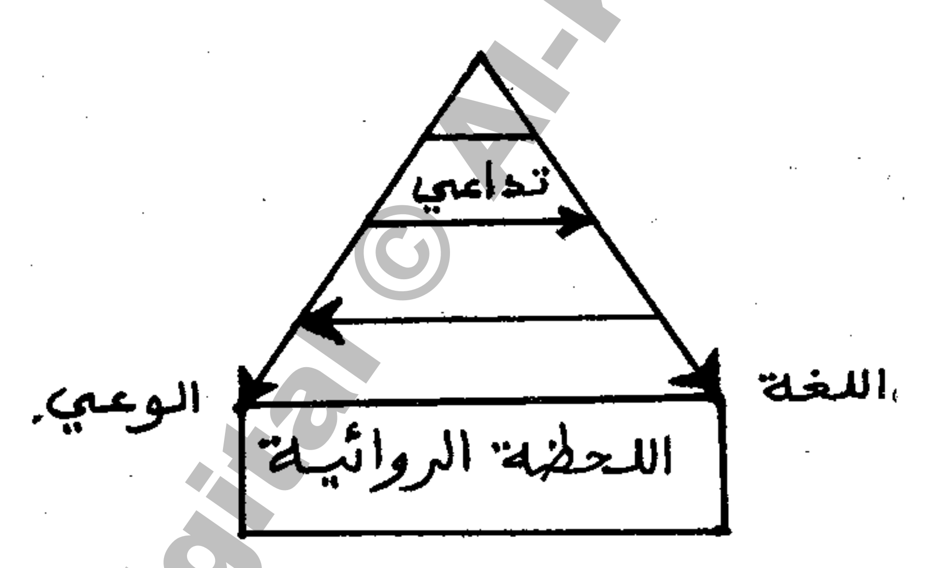
أبـراج المـدينـة
بين تداعي اللغة وتداعي الوعي

نجيـب العـوفـي

في امكان رواية (أبراج المدينة) لمحمد عز الدين التازي ، ومن خلال ذات السقف الروائي الذي أظلها ، لغة ونسيجا ورؤية ، أن تطلق العنان لسطورها، فتتجاوز الصفحة الرابعة بعد المائة التي توقفت عندها، وتستأنف الحديث من جديد ، نافثة عبر الصفحات مزيدا من المداد المر ، منجرفة مع تيار الوعي والاشجان والكوابيس الذي لا ينتهي ، دون أن تتجاوز الحقل الدلالي والايحائي الذي أسسته وتموضعت فيه . هذا افتراض أول . وفي الامكان أن تخضع الرواية لعملية اختزال ، فيجرد جذعها من الفروع والافنان التي التفت حوله ، وتلم أطراف المساحة الروائية فيها لتنضغط وتتقلص في حدود اللوحة أو القصة القصيرة ، دون أن تتخلف عن الحقل الدلالي والايحائي الذي أسسته وتموضعت فيه . هذا افتراض ثان . وفي الامكان أن نستأنف عملية الاختزال والتكثيف الى الدرجة القصوى ، فنجرد النص من النص ، ننتزعه من مدار كليته لنقطره ونصهره في احدى جزئياته الدالة التي تشف عن كلية النص ، عن هاجس الرواية وسرها . نفتح الرواية على هذه الفقرة مثلا ، ونقرأ : (أرض تنوشها البنادق وطيورها الباكية لا تريد أن تهاجر . كان يستطيع أن يحلم حلما يتمدد وينداح من الواقع ، ينطلق مما هو حاصل نحو ما ينبغي أن يكون ، هذا لا ينفع . المهم هو الوسيلة ليصبح هذا الحلم واقعا . يرى في الشوارع انهارا راكدة من العطانة وانتشار الرائحة ، مدى فسيحا مشبوها تتوزع عليه اصوات لاغطة في صمت . تنتشر الرائحة في الحوانيت والبيوت والمقاهي وفي كل طبقات الجو . ينظر الناس بعضهم الى بعض ، يجعلون أصابعهم في أذونهم دون أن يقوى أحدهم على السؤال . كان الغضب المشتعل يتحول الى جزر نارية صغيرة لا تلتقي أو تمتد . ماذا يحدث لو تشابكت جزر النار وتوحدت في مدى واحد ؟ ! . ص . 62 ـ 63 .) .
في امكان هذه الفقرة أن تكون ترجمة مصغرة للحديث الروائي في (ابراج المدينة) ، صدى مركزا للحن العام الذي تعزفه ، ما دامت السيولة التراكمية لنظائر وأشباه هذه الفقرة ، كبنيات متداخلة ، هي ما يكون في التحليل النهائي

جماع النص الروائي وبنيته العامة . الشيء الذي يجعل النواة الدلاليـة الام قائمة في كل فقرة وكل لوحة ، تلتقط وتدرك منها مباشرة في شكل متواليات دلالية متكررة ، مستقلة بنفسها وملتحمة ببعضها في آن ، قبل أن تلتقط وتدرك من النص ككل بطريقة تركيبية واستنتاجية ، ومن ثم يغدو مجال الكتابة في (أبراج المدينة) أزجا ولولبيا تتناسخ فيه المداليل بتناسخ الدوال فيما يشبه الاواني المستطرقة . فيكفي القاريء أن يفتح الرواية اعتباطا ويقرأ صفحة أو صفحتين ، ليفض ختم الرواية ويكتشف سرها ، بعد فض ختـم اللعبة اللغوية واكتشاف سرها . وهذا افتراض ثالث .

هذه الافتراضات الثلاث ، تستطيع أن تساعدنا على تحسس طبيعـة الآلية الروائية في (أبراج المدينة) ، تستطيع أن تقربنا من أهم خاصيتين في الرواية ، وهما تداعي اللغة وتداعي الوعي . وبين الخاصيتين حبل سري يجعل من لحظة التداعي ، وهي لحظة النص الروائي ككل ولحمته النفسية ـ الفنية ، زاوية مشتركة للغة والوعي ، تنبثق منها الحركتان وتظل كل منهما تعكس الاخرى عبر حركة ثالثة هي حركة التبادل والحلولية ، فيصبح الوعي تدفقا لغويا وتصبح اللغة تدفقا وعييا :



(سكون منطو وتأفف من كل شيء . نبش في القبور . ساحات مزروعة بالشظايا والاشلاء ، سر وجهر . وراء وخلف ، سراديب . رهان على الحياة والموت . التصور والواقع . العاصفة المسبوقة برياح التوقع . تسلق الصخور الجارحة المسنونـة . الدوار والحزن . الكابوس . الغموض . الرؤية ، توالد النـار من النـار . ص . 94) .

ولهذا ، لا تغدو اللغة في الرواية (شكلا) صرفا ، كما لا يغدو الوعي (مضمونا صرفا) . اذ يمكن تحسس نسق الوعي ضمن نسق اللغة ذاتها (طبيعة السرد ـ نحت الجمل والتراكيب ـ لون الافعال والكلمات ـ خصائص الصور والمجازات ـ لعبة الضمائر ـ أزمنة الأفعال ..) . كما يمكن تحسس نسق اللغة ضمن نسق الوعي ذاته (توتر الوعي وتوازنه ـ اندفاعه ونكوصه ـ شفافيته وضبابيته ـ تأرجحه بين الصحو والغيبوبة ، بين امتلاك اللحظة وافتقادها ـ خصائص تأملاته ورؤاه ..) وهكذا تتخطى اللغة مستواها الوظيفي والبياني المباشر الى مستوى دلائلي وحدسي غير مباشر ، أي تصبح لغة داخل اللغة . وبالتالي يطمح النص الروائي الى أن يكون نصا داخل النص . وتصبح الطريقة التي يقال بها الشيء ذات أهمية حساسة في هذا الصدد ، تفوق وتضاهي الاهمية المعطاة للمعنى المستمد مباشرة من اللغة . وقد اجتهد التازي في (أبراج المدينة) ليكسر جرانيت اللغة ويشق عصا الطاعة على أعرافها ونواميسها ، وليخلق من ثم لغة بكرا ومتحررة مغسولة مما علق بها من كلس وآثار ، قابلة لان تمتص الشحنات النفسية والفكرية التي تحبل بها اللحظة الروائية المتوهجة ، قابلة لان تكون في مستوى الازمة العضوض التي تنشب مخالبها في تلافيف الوعي والواقع . وكان طبيعيا لهذا الاجتهاد الخاص مع اللغة ، أن يفضي الى اجتهاد آخر خاص مع التقليد الروائي نفسه . كان طبيعيا أن يفضي الى شق عصا الطاعة ثانية مع المصطلح الروائي . وهنا تتكرر التجربة الروائية المتمردة لاحمد المديني في (زمن بين الولادة والحلم) مرة أخرى . لكن على نحو أقل تطرفا وشططا . لقد دق الاثنان، التازي والمديني ، الاسفين في المعمار الروائي وحطما نظام النص وأعادا توليفه على نحو خاص . وكانت النتيجة تداخلا غير مشروط بين الرواية والشعر ، زواجا شرعيا بينهما حينا وغير شرعي حينا آخر . واذا كان المديني في روايته قد تحرر من كل رقابة فنية ، فراهن على جواد الشعر دون تحفظ وأطلق له الحبل على الغارب ليتخطى جميع الحدود والتقاليد الروائية ، فان التازي قد حافظ على نصيب من الرقابة الفنية وتعامل مع الرواية والشعر كفرسي رهان . ففي الوقت الذي كانت فيه اللغة الشعرية تنهمر على فصول الرواية وتمارس طقوسها الخاصة بحرية ، كان الهاجس الروائي يمارس طقوسه الخاصة والخفية بدوره ، ويحاول شق عباب الشعر والخروج سالما أو شبه سالم منه ، سواء بواسطة الحفاظ على بعض ظلال الزمان والمكان والاشخاص ، أو بواسطة التحكم في منطق السرد وتطعيمه ببعض المواقف الحوارية ، أو بواسطة خلق حركة مادية ونسبية أحيانا موازية أو مكملة لحركة اللغة والوعي . لكن رغم هذه الثيمات والعناصر التي حاول الهاجس الروائي أن يسترد بها رشد الرواية ويحافظ بواسطتها على بعدها الانطولوجي، تظل اللغة الشعرية هي روح الرواية . تظل فخا حريريا مغريا استسلم له

النيازي عن طواعية وسبق اصرار ، آملا من وراء ذلك أن يصطاد ثلاثة عصافير بحجر واحد :

أ ـ أن يخلق لغة جديدة من رفات لغة قديمة . أن يسك عملة خاصة مخالفة للعملات المتداولة والمبتذلة . (قطيعة لغوية) .

ب ـ أن يحطم الرواية داخل الرواية ، ويخلق رواية مضادة مشرعة النوافذ لكل الرياح . (قطيعة روائية) .

ج ـ أن يجعل الحديث الروائي في حد ذاته ، موقفا وقولا ايديولوجيا . حديثا مباشرا للذاكرة والوعي يعكس توترهما ومعاناتهما من أجل التجاوز وبحثهما المضني عن الحقيقة . (قطيعة ايديولوجية).

ومن ثم يغدو منطق التداعي في الرواية ، مجالا خصبا لممارسة هذه المواقف القطيعية التي يمكن ادراجها واختزالها في موقف عام هو موقف القطيعة الثورية . فعن طريق هذا التداعي تحاول اللغة أن تتجاوز ذاتها وتتحرر من أطواقها ، مستمدة العون من عنفوان الوعي وتوهجه ، فتعبر عن شجنها الخاص في نفس اللحظة التي تعبر فيها عن شجن الوعي . وعن طريق هذا التداعي ايضا يتكلم الوعي (باللغة) ويكشف بواسطتها عن مكنوناته واغواره ، ويمارس (في اللغة) نشاطه وذاته ، يكمل فيها دوره ، ويحقق فيها بعض احلامه الايديولوجية . ولما كان الوعي في الرواية مأزوما ومهيض الجناح، يسهده أرق الثورة والتغيير وتثخنه الهموم والاحباطات ، ممزقا بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون (يحلم بجماعات وأفواج تجسد الغضب في الشوارع، وتسير نحو ميعاد اللحظة الحاسمة ، تتجاوز أبراج الحجر وقضبان الحديد أو جراحها الذاتية ، تدق الارض بالخطر وتعلن العصيان . هل يكفي أن يحلم ؟ ! ص . 69) .

لما كان الوعي كذلك ، وكان واقع الحال غير واقع الحلم ، طرقا شبه مسدودة ، وليلا انتظاريا ثقيلا ومشحونا لا يكاد يشف عن فلق (كان كل شيء مختبئا تحت سطوح باردة مثقلة بالرماد ، غارقة في الصمت ، في انتظار أن تهب عاصفة صيفية ، والفراغ واقف منتصب بثقله على رعشة العين وخفقة القلب . ص . 34) .

فقد كان بدهيا أن يدور الوعي في دوامة قاسية من المعاناة . كان بدهيا أن ينكفيء على ذاته كبركان يصطلي بحرائقه الداخلية ومخاضاته الشاقة في انتظار اللحظة التي تنقذف فيها الحرائق والحمم الى الخارج ، لوضع حد للمخاض الروتيني الشاق . ان وضعية الوعي هذه ، عبر الرواية ، تكثيف وعصارة مرة لسنوات المحنة الطويلة التي أمسكت بخناق الجماهير المغربية المسحوقة منذ الستينات الى الآن . تكثيف وعصارة مرة للتجارب النضالية

المجهضة وللانتفاضات العمالية والطلابية المتكررة التي أوشكت أن تشعل الشارع المغربي وتهز سكون الاطلس والريف ، فنهد (القراصنة القدامى ـ الجدد يبثون الرعب في العيون والصمت في الافواه ويرمون شباكهم الطويلة العريضة على النوافذ والاسوار والبنايات وشوارع المدينة ، يطلقون أرصادهم في كل ذرة وخلية ، ويزرعون الشوك في الحلوق والشفاه يكفونها عن الصراخ الهائج . ص. 18) .

وتتلفت العين بحثا عمن يستطيعون اسناد السقف الثوري والحيلولة بينه وبين الانهيار ، تتلفت بحثا عمن يجمعون الشظايا المتناثرة ليصنعوا منها حريقا ، يامين صيحات الغضبة المتمخضة ليجعلوا منها اعصارا ، فماذا ترى ؟ ! (ترى العين الساحات مسفوحة منكسة الاركان ، غارقة في التراجع وسموم الظل ، والهمس الشائك الذي يجرح الكلمات المعلقة المقصوصة الذنب والاطراف ؟ تبقى الساحات شاهدا صغيرا على النهوض المثقل بالثقوب الرصاصية .. ص. 42) .

تجاه هذا النهوض العاثر ، وهذا الانتكاس المخيم على الساحات ، وفي ظل غياب القدرة على الفعل الحقيقي ، يشتد الايقاع الداخلي للوعي في الرواية ، تستفحل أزمته ومعاناته ، ويطفح به الكيل في شكل تداعيات وسورات كابوسية تلتطم وتدور في حلقة مفرغة لا مخرج لها . وانطلاقا من دورة الوعي على نفسه ، تدور اللغة على نفسها ، تستنزف معجمها ، راسمة عبر الرواية دوائر مختلفة حجما وشكلا ومؤتلفة دلالة ومضمونا . ان قوام الاسلوب عند التازي هو التنوع التشكيلي في اطار وحدة المعنى واستمراره . لقد قدم لنا فعلا نصا أدبيا يصدق عليه تعريف جاكوبسن (بكونه خطابا تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام .) . بيد أن الوظيفة الشعرية في (أبراج المدينة) بالمعنى الدقيق للمصطلح ، لم تكن عنصرا حاسما ونسيجا بنيويا عميقا في الرواية ، لم تكن رؤيا فكرية أو تأملية نابعة من صلب العمل الروائي ومكونة له. لقد تحددت هذه الوظيفة في اطار رؤيا تشكيلية وبلاغية تعيد توليف وتوظيف أركان البيان الاربعة ، التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، وفق منطق تحرري خاص يبعد ويعتم المسافة أحيانا بين الاصل والصورة ، بين المدلول والدال ، ويقيم نظاما خاصا للجمل والمقاطع والصور .

ان الرواية تتحدث لغة شعرية ولا تؤسس فضاء شعريا . تستخدم الرموز والاشارات على مستوى فني وتعبيري وليس على مستوى ذهني وتاملي . اي انها تخلق مستوى ثانيا للتعبير وتكون طبقة لغوية جديدة ماساء وايحائية لغاية تعويم حقل المداليل وترك هامش وهمي بينه وبين الادراك . فاللعبة الشعرية ، اذن ، تتم داخل اللعبة اللغوية وبدافع منها ، أكثر مما تتم داخل الوعي الفني وبدافع من هاجس شعري حقيقي . وكنتيجة

لهيمنة الهاجس اللغوي والرغبة في تأسيس لغة روائية خاصة ، عبر أسلوب التداعي الحر ، سقط الحديث الروائي في التكرار والاطناب ، واحتشدت المقاطع والصور والجمل ينسخ بعضها بعضا وتتبادل المواقع داخل الحديث الشيء الذي يجعل الرواية ، كما سبق القول في مقدمة هذه السطور ، قابلة لان تمطط وقابلة لان تختزل دون أن تخسر حقلها الدلالي :

أ ـ المدينة فوق الرأس ، في بؤرة الاعصاب ، تحلم بالخروج من غربتها الوحشية واستعادتها للكينونة الاولى . لا وقت للبراءة البكر في هذا الزمن الكاذب الذي يفصح بالمكر والخديعة . (ص . 3) .

ب ـ كان الشارع وجها آخر للمدينة ، ينزف قطرات دموية على مسافات غير متباعدة . والوجوه تضطرب بالحركة نحو المجهول ، ملثمة بالرعب والقهر وجوه رجال مخمورين بالدهشة والصحو ، (ص. 13) .

ج ـ المدينة مسكونة بالهوس والشياطين ، تنفض غبار الاعوام المريضة وتتزحزح من رقدتها الازلية . تغمض عينا وتفتح أخرى ، ترى الاسوار الموحشة والدهاليز الخراب والخطوات المشرعة على أبواب الريح .

(. ص. 25) .

د ـ جسد هائم في الريح والطرقات والمنافي . يخرج وحيدا ضد التيار وضد كل رغبات النفس . يجد الجسد الهائم متجاذبا نحو الجهات الست ، يقرع الجبهة أسفلت الطريق ، لا يلقى سوى فقاقيع الاشياء ولون الخابور ، لون الموت المحدق من نوافذ القسوة والرعب . (ص . 63) .

وفي بعض الاحيان يجمد الترمومتر الدلالي للغة ، فتظل سديما من الكلمات لا يقول شيئا . لكن لا بد من الاشارة الى أن سيولة اللغة هذه وسديميتها أحيانا جزء من البناء الروائي وطقس من طقوس الرواية . انهما انعكاس لسيولة وسديمية الذاكرة الروائية وتجسيد لحركة الوعي الدائرية المتوترة . ان الزمن اللغوي ظل للزمن النفسي . والزمن النفسي في الرواية ، وهو مضختها الاساسية ، مشحون ومتفتت ، ركام خواطر ومشاعر ، وسلسلة صراعات وكوابيس تفيض عن رؤيا باطنية جياشة تطغى على الرؤية الخارجية وتلغي أبعادها . انها محاولة أخرى لتشريح أزمة الوعي المغربي على الصعيد الروائي ، هذه التي قام بها التازي في (أبراج المدينة) . محاولة تشريحية دقيقة استطاعت فعلا أن تتحكم في مبضع التحليل . ولم يحل الجو النفسي المتوتر الذي ساد الرواية دون الوصول الى الجذر الحقيقي للأزمة وتعريته وكشفه . بل ان عري وانكشاف هذا الجذر في وعي بطل الرواية كانا السبب المباشر لمعاناته وشقائه الفكري ، كانا عاملا مضاعفا للأزمة التي اتخذت منحى خاصا في الرواية وتحددت في (وعي أزمة الوعي) .

تبتدىء الرواية من أعلى درجات الغليان ، من أهم مواقفها الساخنة

والتراجيدية : «موقف انهيار البطل وسقوطه ومحاولته الفاشلة للانتحـار . وتأتي الفصول اللاحقة لتبرز وتفسر هذا الموقف وتستبطن جذوره واغواره . وتنتهي الرواية باعتقاله ، ووضع حد لمعاناته وحياته (يرتفع الماء حتى يغمر كل الجسد ويصل الى مستوى الانف . قبل ان يغيب عني تماما ، يستديـر نحوي ويقول لي : أنا ذاهب . أما انت فلم تكن لتنتظر حتـى يأتـي ذلك الصباح الباكر ، فيصلوا صلاة الصبح ويجعلوا قتلك مشروعا . ص. 104) .

وبين لحظة الانتحار ولحظة الاعتقال ، يرتفع السؤال :

هل كانت أزمة ـ البطل ـ في الرواية صحية ام كانت مرضية ، بعد ان ارتفع عنه اللبس ووصل الى مستوى الوعي بأزمته ؟ ! بصيغة أخرى ، الى أي حد أقنعتنا الرواية بالموقف النضالي للوعي فيها ؟ !

أمامنا مستويان للاجابة . المستوى الاول يعتمـد علـى الاطروحـات والقناعات الايديولوجية التي بلورتها الرواية :

أ ـ التنظيم ليس مجرد احتراق وتجمعات ، او تكتل من أجل معارضة كلامية . هذا للتاريخ . التنظيم أخذ بالمبادرة . (ص. 31)

ب ـ مقارعة حتى النهاية . سبق اصرار رغم الردع والارصاد . تناسل الافكار بالدم ، وتجاوز للذوات الصغيـرة المريضـة بالكسـاح والتكلس من هنا يبدأ الحاضر المتجدد ويولد الانسان (ص. 33) .

ج ـ ـ لا تنس . الفقراء في كل مكان .

ـ متى يتحرك مؤشرهم نحو أقصى اليسار ؟

ـ الوسائل واضحة : التنظيم والتأطير . (ص. 61) .

د ـ ـ كيـف نهـد الجبـل ؟

ـ بالاستمرار في المجابهة .

ـ هل نحن وحدنا من يجابه ؟

ـ مـاذا تقصـد ؟

ـ غياب الفقراء أصحاب المصلحة الحقيقية .

ـ نحن نبدأ . (ص. 77 ـ 78) .

في حدود هذه القناعات الواضحة ، تبدو ازمة ـ البطـل ـ في الروايـة صحية وايجابية . انها كما قلت ، أزمة وعي الازمة أكثر منها أزمة وعـي ، أي أن الخلل المكون للأزمة ليس قائما في داخل الوعي بقدر ما هو قائم خارجه ، في الوعي المضاد . وبالتالي يغدو الموقف النضالي لوعى ـ البطل ـ حاصلا بالقوة (أفكاره ورؤاه) وحاصلا بالفعل (أنشطته واعتقاله) .

المستوى الثاني للاجابة ، يعتمد على الفضاء النفسي العـام للروايـة بأقصى درجات الكآبة والسويداء الى مدى السقوط في شرك اليأس والانهيار وطبيعة المعاناة لدى ـ البطل ـ ، تلك المعاناة التي تختلط فيها الثوريـة

(محاولة الانتحار) ، والتي استغرق في لجتها استغراقا طهرانيا وفردانيا ، ناظرا الى الواقع بحنق ورثاء ، وكأنه صالح في ثمود :

أ ـ أنا المشتعل عذابا وحمى أجهر بالضيم والقمع والكبح واستغلال العرق أقول لا ، وأصارع ، أوقظ التاريخ من غفوته وأفجر البداية . (ص . 20) .

ب ـ ينفض التراب عن دمي من القش موصولة برقاب من المطاط . فجأة يكتشف فيها إناسا رآهم في الشوارع والاماكن المأهولة . كيف صاروا مسخا مشلولا لا يتحرك . (ص . 64) .

لا شك في أن لهذه المعاناة ما يبررها تاريخيا . اذ تظل في العمق شاهدا على قلق المرحلة . صورة مكثفة للمخاض المعقد والشاق ضمن الواقع الاجتماعي . لكن رغم ذلك أو بسبب ذلك ، تبقى وظيفة الفن هي محاولة احتواء الواقع وضبط تناقضاته وآلياته بواسطة امتلاك معرفة عميقة وراشدة به ،

من خلال هذا المستوى الثاني للاجابة عن السؤال السابق ، يبدو الموقف النضالي للوعي في (أبراج المدينة) موقفا شاعريا وباهتا ، وتبدو أزمة ـ البطل ـ رخوة ومفتقرة لشروطها الصحية . وكان مفارقة ، الجمع بين الهزيمة والبطولة ، بين الانتحار والنضال من جهة ، كما كان صعبا من جهة ثانية ، أن نخرج من الرواية مقتنعين بلحظة الانتحار في البداية ولحظة الاعتقال في النهاية .

وبين الوجه الايجابي للازمة والوجه السلبي لها ، يبقى بطل (أبراج المدينة) أحد الرموز الهامة في الرواية المغربية ، يبقى معدنا ثوريا نقيا وسليما ، حتى في حال عدم صلابته وتفولذه .

المقـامـة الـلاميـة

الجـزء الاول

أحمد العبدالله

جمعـة الـلامـي

بغـداد ـ عـراق
1977 ـ 1978

(الـم) : هو ذا اسمي ، أو اسم ابي ، لكنه ، للدقة ، اسـم جـدي الاكبر ، كان رجلا كوفيا ، ارتاع للاوضاع التي صاحبت واقعـة صفيـن وتطورت بعدها . كان كفيف البصر في تلك الايام ، بيد أنه كان يتمكن من امتطاء دابته دون مساعدة أحد . وهكذا فانه بعد أن أدى فريضة الفجر ، وكان الصباح ربيعا ، امتطى فرسه ، وأمر زوجته وأبناءه وأبناء عمومته وبقيـة أهله وخلصاءه أن يغادروا الكوفة في الحال .

وفي الواقع كان صفوة آل (الـم) يكابدون مرارة وقسوة في تلك الايام ، فاستحسنوا أمر كبيرهم ، وارتحلوا باتجاه الجنوب . وكان في عيرهم كلبهم الذي رفض اتباع القافلة وحرد في مكانه ، غير أن الحيوان عند ما استمع الى (الـم) يقتلع عمامته من فوق رأسه الحليق ويقول : « يا رب صفي صفين ، يا رب المؤمنين والزنادقة والكفرة ، يا رب الجماد والنبات ، يا رب كل من هب ودب ، انزلني منزل صدق » تبع القافلة ، يترامح تارة قدامها ، ويتباطأ تارة أخرى خلفها ، حتى اذا وصل الركب الى الموقع الذي تقع فيه مدينـة العمارة حاليا ، وكان الوقت مساء ، ترجل (الم) عن فرسه ، وصلى ركعتين ، ثم بقي في جلسته لوقت غير طويل ، قام بعدها الى فرسه فامتطاها وانحرف الى اليسار ، فسارت خلفه قافلته الصغيرة ، وظل يمشي بها يوما ونهارا وليلة حتى اعترضهم نهر صغير ، وعندئذ حرنت الفرس في مكانها ، وهتف الـم من فوقها : آن لنا أن نترجـل .

وفي تلك الليلة ، عندما أديرت فناجين القهوة بين (الم) وابنائـه وابناء عمومته وأهله وخلصائه ، وقبل ذلك ، وكالعادة ، كانوا قد تناولـوا العشاء على مائدة واحدة ، وقسم الزاد بالتساوي والعدل بينهم قال (الـم) بصوت مسموع : الليلة حلت رحلة الطمانينة .

وقال أحد الحاضرين : سنبني له مرقدا في الجانب الغربي من النهر . ثم قال آخر : سنسمي مكاننا : بلدة (لام) . وفي تلك الليلة انشغل المرتحلون السابقون بحفر اللحد وبدق أوتاد بيوت الشعر ...

« ابراهيم »

« سـالمـة »

« .. وكثيرا ما تهيأ لي ، يا ابراهيم . ان سالمة لا تحبني ، أو أنها تتطابق مع أفكاري وتتقاطع معها ، وتنجذب الى قطب آخر لا اعتقد بوجوده ، الروح . أيحدث هذا لانها مزيج من ارومتنا وأرومة ملكة ، أم انها اعادة تركيب لهاتين الارومتين ؟ . وكما تعلم فانه لا أجيد تقليد أفكار أبي ، ومع ذلك تظل المادة هي أصل كل شيء ، حتى هذي الخدعة الصغيرة التي نتوهمها : الـروح ... »

« ان أبي يظل هو الماضي ، وانعتم انني المستقبل . ويبدو لـي أن سالمة ، لغاية يومي هذا تحمل أبي وتحملني وتحملك . والصعوبة الوحيدة التي ألقاها حين أعيد فحص سالمة مع عقلي هي أنها تكون قطب الماضي بينما تحدثني عن المستقبل ، وتهوم في عالم لا عقلي حين تحدثني عن الروح . وتبدو عقلية أكثر مني اذ تطرح قضية الحرية ازاء السجن والقتل والصراع .... »

« والحقيقي هو أن المسافة القصيرة التي كانت بيني وبينها قد اتسعت الآن . ماذا تسمى سالمة ؟ . انت تحبها . وافتكر انك ستقول لي : انها اغتمار الحياة. وسأرد عليك في الحال: انها الخصوصية الوطنية لكل عائلة (**الم**) . ومن يدري ، فقد أوكن على غلط ، وقد تكون انت على صواب .. »

« وليد الاحمد »

يوم تقارب الدورة أن تنتهي لتبدأ . يدخل أحمد العبد الله بيته ، متقدما في الظلمة الشفيفة ، والمدينة ما تزال نائمة ، من ناحية المسجد ، بعد أن يدنف في زقاق يقوده الى زقاق آخر . منغمرا في السكون الذي يسقف البلدة ، دون أن ينظر الى نجمة الصباح ، يتعامد على الارض أو ينكفيء اليها . خفيف الجسد حتى ليبدو من البعيد كما لو انه شبح يتهجى طريقه ، لا فرق بينه وبين الاصوات التي يسمعها من شقوق الجدران ، أصوات ديدان وحشرات طيارة ، ثم يرى جسده ، أسمر ناحلا ، ملفوفا بقماشة لا يستطيع تمييـز لونها ، وعباءة من الوبر يدرج على ساقين تستدقان قبل القدمين ، ولكنه جسد متوتر يريد أن ينفلت من تلك الجاذبية التي تستدعيه الى الاعلى وتلك التي تشده الى الارض ، متكورا يسير على حافة قوس لدائرة لا يمكنه أن يعرف طول نصف قطرها، هامسا ليديه اليابستين، حيث العروق في ظهر كفيه، زرقاء نافرة تبغي الانفصال عن اللحم والعظم ، بينما الهواء الآتي من الشمال وحده، يستطيع أن يدله على الحركة في قدميه ، في انسياب النهر ، وميـلان سعف النخيل ، لانه هواء يكف في تلك اللحظات عن أن يكون وسطا بين حيوات أخرى ، حتى ليكاد يفهم أن جسده ، في هذه الحميا التي تنتشي بها أعضاؤه ، يتشابه ولا يتشابه مع كل الذي يحيط به ، وا نهذا النفار المستديم بيـن

رأسه وما حواليه ، يبدو مثل حلقات من سلسلة لا أول لها ولا آخر . ثم اذ يتبين من وجوده الجسدي بتلك الصياغة الهيكلية ، يستعر عنده شوق الافتراق عنه . فهو في تلك اللحظات من الافتكار ، أكثر اشتمالا على أن يكون مفهوما بالنسبة اليه ، واقدر منه في أي وقت مضى على معاينة قلبه ، ومخاطبة كل الحركات ، وما حواليه من أصوات وهسيس والتماعات وتنهدات وأصوات الصمت ، بتلك الانتباهات الفرحة الملتاعة ، وبذلك القبول باليأس والامل ، بينما تظل عيناه تندفعان الى أمام ، الى أسفل ، الى الشرق والغرب ، تريدان تضمن هذا الوجود وتحويله الى صور قلبية ، صور هو وحده يعرف كيف تعيد تركيب ما يحيط به . صور تكاد تتحدث فيها الحيطان الى الجداول والظلمة الى النور ، وتنفسه هو الى هذا الهذيان الذي لم يتوقف بين الحجر وقطرة الماء في قعر النهر .

ثم يتوقف عند باب داره ، والليل يلملم نفسه متعامدا مع الارض ، مع تلك النقطة الوحيدة التي فيها جرم أرضه ، ومائلا الى الامام قليلا حتى ليكاد يمر في منتصف البعد الادق لتلك النقطة الجرمية ، وهو يتحدث الى صمته : يا هذا ، كيف يتساوى الغلط والصواب ؟ وكيف يكون لليل أن يستكمله النهار ليصير يوما ؟ ولم يكن يتعذب لهذه الفكرة . قد ياسو أحيانا ، بيد أنه يرى أيامه متصلة ليلا بنهار في نجود من الرمل ، وسفر غامض لا تسعفه الذاكرة في اعادة تركيبه ، سفر ابتدأ من حيث يعرف ولا يتذكر ، سوى أن نجودا صحراوية ، وأبسطة لا متناهية من الصبير ، وجثث الحيوانات ، ورماد المواقد ، وبقايا حبال ، وهشيم حبال وأوتاد ، وتضاوير رموس ، تمتد في دوران ، وتدور في امتداد ، ورقائم من الجلد بلون حائل تتحول بين أصابعه الى نعومة ، نعومة في غاية الرهافة والحساسية ، فيخط عليها أقوالا ، بصبغ كثيف أسود اللون ، كلمات لا تضطرب في رأسه ـ لكنها تخر عليه ، من عل كالسيل العرم ، فيضع الحرف الى جانب الحرف ، والجملة التالية بعد التي سبقتها ثم اذ ينظر الى ذلك الذي تشكل ، يرمي به الى السماء وهو يصيح : يا رب الكافرين ،، يا رب المؤمنين ... يا ربي . فتتجول الرقائم في الفضاء الصحراوي ، هادئة ومرنة ، وتختلط في الهواء ، فيرى ـ في منظار روحه ـ انه ما يزال في سفره نفسه ، في النجود الصحراوية ، أو في أزقة المدينة قريبا الى تلك الحروف والجمل ، متعاندا في سيره وهو ينجذب الى الاعلى ، ومائلا معها اذ تميل الى الارض ، وهو ينجذب الى تلك النقطة الجرمية في كتلة الارض التي تشده اليها .

ان الحياة خيرة ، كذلك الموت . والقضية هي في مبدا القبول . صحيح أن الافتراق عن الناسوت ربما يكون الصعوبة ذاتها ، لكن تجريب النفس والزام الجسد في اختبارات قمع ، تتحول بالسلوك الى اختيارات ، يجعل من

هذا الكائن الارضي وليا للسماء . الولاية ؟ اية فكرة جنونية كانت تتربص بأحمد العبد الإله ؟ ولم يكن يرى في ذلك أي ضير ، وانه ـ وهو الذي يسكنه الحب ـ يمكنته أن يتعرف على العشق ، اذ بينما ناس المدينة انغمروا في الاحتيال اليومي على قلوبهم ، أو في تلك الاعمال البشرية الصرف يتصل أحمد العبد الله بخيوط لا حصر لها بين الارض والسماء .

تلك هي ايامه ، أحمد العبد الله ، وكان يعرفها بما فيه الكفاية ليجيد الحديث عنها في حياته ، حتى عندما يكون الليل على أهبة المغادرة ليفسح مجالا لصبح جديد ، اذ تبدأ كل الحيوانات والاشياء تتنفس يوما جديدا بعد أن يتقدم الهواء نازلا من المنحدرات البعيدة ، في شمال المدينة ، حيث يدخلها النهر ويقسمها الى نصفين .

ولم تكن تلك أيامنا : اننا لم نخترها ، كان ثمة بين البنادق وبيننا فاصلة صغيرة ، بيد أنها كانت بقوة البون الشاسع . لقد اكتشفت أننا ـ آنئذ ـ كنا في الخرائب ، غرب المدينة ، حيث انتشرت بيوت الطين المحطمة ، والحشائش قصيرة السيقان ، أما بعد الخرائب ، فقد كان ثمة الضريح المقدس ، قبر (**الم**) ، ثم المنخفضات المائية التي سمعنا بها ، ولم يرها أحدنا ، الا احمد العبد الله ، عندما ذهب لزيارة وليد الاحمد ، بعد حادث دائرة الاستعلامات الوطنية .

قال أحمد العبد الله يساور نفسه : ان (الم) يبكي اللحظة بلده ، لان صفين في زمن آخر ، بعثت من جديد . وكنت أقول صامتا : ليس ثمة أكثر لطفا من عقوبة الدفاع عن الحرية . هذا هو الموت المحيط بنا من كل جانب ، وها هي الخرائب الحاضرة والبيوت القديمة تستقبل سكنة جددا . والضريح ما يزال في مكانه ، طالعا من بين الاعشاب وحيطان الخرائب ، تنتصب ساريته بين دخان البارود الكثيف ، وكن أحمد العبد الله يمسك بيده جريدة من سعف النخيل .

قال : خذ هذه .. فالخسارة ليست الهزيمة . وناولني العصا المجرودة .

عندما كنت طفلا غالبا ما نصورت انني جندي لا يود احتراف القتل لكنه يتمنى أن يكون مقاتلا ، لذلك كنت أضع جريدة السعف فوق كتفي الايسر ، معلقة في الهواء أو مضطربة ، وأمشي فوق أرض حصباء ، عدلت فيها طريقا ضيقا حيوانات الجر والخراف وأرجل الرعاة ، بعد أن تغادر الحيوانات بساتين النخيل في التخوم البعيدة من الضفة الشرقية ، باتجاه شريعة الماء . أكان ذلك عالم الطفولة أم طفولة البشرية ؟ ان كل شيء لم يكن يرتهن الا لكونه حلما عذبا . وفي ذهني الصغير ـ يحدث هذا في بيتنا أو مع الصحاب ـ كنت أخترع حكايات الغزو والعراك الصعب بين المدينة والنسور الوحشية الهابطة من السماء على غير ميعاد ، فكان الاطفال يتبادلون نظرات الخوف خلسة ، فكنت

أضيف في الحال كيف أن النسور الوحشية تتحول الى كرات نارية هائلة . تفرخ كرات أصغر منها وبشرا بشعي الخلقة مدججين بالسلاح ، فينسل الصغار والفتيان من المكان واحدا بعد الآخر ، لأفاجأ بنفسي وحيدا وقد خسرت لذة استماعهم . غير أن خسارتنا في الطفولة لم تكن خسارة ، فطفولتنا الرخية المشبعة بروح البطولة والامتثال لتاريخ الاجداد ، كانت كافية لان تجعل الفريقين المتقابلين ينطرحان على الارض من تعب العراك الاخوي ، حيث لا غالب ولا مغلوب ، فتدخل البهجة البريئة الى قلوبنا ، بعد مناوشات بالعصي والايدي المتسخة وتزاحم الاجساد المعروقة دوما. أما الخسارة فيما بعد الشباب . وفي الوضع الذي عشناه في الخرائب ، فقد كانت من طراز آخر : لقد انطوت رجولتنا على حالة من التشبث بأن مدينة (**الم**) معافاة وخالية من الاثم ، وانها تحولت الى ملجأ لاولئك الذين يفرون من العدالة المنتهكة في مدن كثيرة مجاورة . العدالة : نعم ، ولا شيء غيرها . فالمساواة تبدو وهما أو هي الوهم بعينه . وكان وليد الاحمد يقول لي : المساواة تعني عودة البشرية الى عذريتها الاولى ، هذا هو طريقنا الجديد . فاقول له وأنا أنظر في القرآن : كما قال أبوك ، هذا لا يحدث الا في الجنة . ينظر الى من عينيه الصغيرتين ويخبرني بطريقة من توصل الى يقينه : أنت تتحدث عن وهم ، قد أعذرك الآن فانت فنان ، ولكن دعني أقول لك : ليس ثمة سوى المادة ، انها الاولى والاخيرة ، هي الظاهر والمستتر ، اما الله فخرافة ، وأبقى مسمرا في مكاني ، أنظر الى عينيه الصغيرتين واظافره المبرودة وشعر رأسه المتمرد . وكنت أجد في ميلا الى افكاره ، وكنت أحس انه لا يجيد تنظيمها ، بيد أن عقلي لم يكن على استعداد لانكار وجود الله ، وهكذا كنت أقول له دوما : اثبات الحالة يعني انكارها أيضا ، وانكارها اثبات لها ، أليس هذا هو الجدل ؟ وعندما عالنت أحمد العبدالله بما يدور في رأسي ، تبسم في وجهي وقال ضاحكا : يا ولدي من هنا يبدأ الخراب ، فكيف الامساك بطرف حبل الفوز ؟

كنت معه في الطريق الى المسجد . فادار وجهه الى وقال : الكلام الجميل ليس صحيحا باستمرار . واضاف : ان الغزو يبدأ من الداخل باستمرار ، قد يسمي وليد هذا بالطابور الخامس ، ولكنه الحقيقة ، وقبل أن ندخل المسجد أكمل قوله : استمع الى وليد بعقل ، ولكن اياك أن تخذل سالمة أو تستبدلها به . وعندما جلس في باحة المسجد ، متربعا ينظر الى جيرانه ، انطلق صوته دون أن يوجهه لاحد : اننا معرضون للغزو في اية لحظة ، وأراد أن يقول شيئا ، لكن رجلا من الجوار سأله : لماذا مدينة « لام » هدف للغزو ؟ قال أحمد العبدالله :سيجد هذا لانه من طبيعة الاشياء ، ان الصراع قائم بين الارض وجذر النبتة ، [illegible] اذن بين الانسان والانسان ، الم تذكروا قصة هابيل وقابيل ؟ أو كان محمد علي غلط ؟ ثم حذر الجميع : لا بد من تعلم

حرفة القتال واجادتها ، فالمدينة التي لا تقاتل تكتب صك موتها بدماء أبنائها . واذا سكت ، ران الصمت على الجميع ، غير أن أحمد العبدالله استمر ينظر الى ابناء جلدته ، بينما انبرى صوت ليقول :

ـ يا شيخ احمد ، كلامك يبلبل الناس

لم يرد أحمد العبدالله بشيء ، فاستمر صاحب الصوت :

ـ اننا أقوياء ومتحدون .

ومرة أخرى تصرف أحمد العبد الله وكأنه لا يستمع الى ما قاله صاحب الصوت ، الا أن الاخير تساءل :

ـ عن أي قتال تتحدث ايها الشيخ الجليل ؟

تحدث أحمد العبدالله هادئا :

ـ قل لرئيسك أن يخشى الله ويحترم البشر .

اضطرب الرجل قليلا ، فقد عرف أنه أصبح مكشوفا لكل الذين حضروا الى المسجد في ذلك اليوم ، وان أحمد العبدالله اختصر عليه الطريق الطويلة لتلك الاسئلة الاحتياطية التي ما زال في رأسه ، ثم قال بصوت متخابث :

ـ هل أقول له ان الشيخ أحمد العبدالله يجاهر ويدعو الى احتراب أهل المدينة مع بعضهم .. هل أخبره أنه مثل وليد الاحمد يدعو لصراع الطبقات ، ونكران الله ؟

وبصوت أجش رنت فيه كراهية عظمى قال أحمد العبدالله :

ـ قل له .. احمد العبدالله يقول : انا لا أخشاه .

انتفض الرجل وهب واقفا ، والقى نظرة غامضة على أحمد العبدالله الذي عاد الى الصمت بعد أن طأطأ رأسه نحو الارض .

وكان ذلك مفاجأة لي ، فقلت : لم تتح لي فرصة القتال ، فنظر الى الارض مغمغما : هكذا أنتم وراور بدون فشكك ، انتم لا شيء ، واستمر ينظر الى الارض . أما في ذلك اليوم البعيد ، حيث التقيته بعيد العشية . وكنت فتيا مغرما بمراقبة الظواهر ومراجعة كراريس صفراء عتيقة، فلم يكن ينظر الى الاسفل ، استوقفته ، كان يرتدي عباءة من الوبر موشاة عند الصدر والكمين بخطوط سوداء متعرجة ، وكان بطوله الفارع اذ رايته يتقدم من نقطة الضوء البعيدة ، مثل نخلة وحيدة في أرض يباب . لم يبال في أول الامر ، لكنني الحفت عليه التحية والابصار الشزر . كان فتيا ، وكان وجهه يلصف وتبدى لي كما لو أنه خرج من الحمام الشعبي الآن ، وكانت بشرة وجهه الاسمر متغضنة عند أسفل عينيه . وعندما مد يده الى وضغط على كفي ، أدركت أني أصبت السلام . كان جبارا في وقفته العمودية ، ولمحت التماعا في عينيه ، وكان فصاهما يلزبان في حركة حذرة مستريبة . انه أبي . وطويت الفكرة داخل فؤادي . لقد أتيت اليه من جنوب المدينة ، حيث يقع بيتي ، لاراه من بعيد

كما تعودت ذلك منذ أربع سنوات ، لكنني اذ رأيته يطلع ، بطوله الفارع ، من نقطة الضوء البعيدة ، في مشيته الجبارة ، انخذل قلبي ، وأسرعت أسير الـى جـانبـه .

قال : ــ غـريـب
قلت : ــ لا
قال : ــ كأنني لم أرك قبل اليوم
قلت : ــ أنا دائما أراك
قال : ــ لماذا . ماذا تريد مني ؟
قلت : ــ ربما لانك .. ربما لانني اريد محادثتك !
قال : ــ لمـاذا ؟
قلت : ــ لاشعر بالأمـان
قال : ــ ومن أخبرك أني أشعر بالامان

فرددت بصوت خافت :

ــ أستغفر الله العلي العظيم .

توقف في مكانه في الحال ، وارسل بصره نحوى ، لقد رآني الآن بعيونه التي لا تحصى . وهتفت في داخلي : ان قلبه يراني بكليتى .. فابتسـم في وجهي ووضع يده على كتفـي .

ــ لعن الله العمر . أنت ابراهيم ، اذن ، كيف نسيت هذا .. ؟

كان الهواء خفيفا في ذيل الزقاق الذى وقفنا فيه ــ حدث ذلـك في مساء صيفي ــ وكانت روائح البنفسج والدارنج والرطب والارض السبخة تشتعل في ذلك الليل المقمر ، وشعرت بالفرح لانني استوقفته ، لقد اعلنت لذاتــي انتمائي له ، وازداد فرحي لانه حدثني ، فقد كان في الايام الاخيرة لا يقف مع أحد ، ويشك في كثيرين من أبناء بلدة أبيه ، خصوصا بعد ان اختفى وليد الاحمد بتلك الطريقة الغامضة ، غير أنه اذ ركز في عينين متوقدتين بعد أن سألته « لماذا تقول انتم وراور بدون فشكك ؟ » مال الى الامام قليلا . ثـم سعل واستراح برهة ، واستدار دون أية كلمة . وللمفاجأة بقيت منشدها في مكاني ، انظر اليه يسير متطاولا ومنكفئا كما لو كان سيقع على وجهه فـي الخطوة التالية ، فأيقنت أنني ضيعت فرصة العمر ، لان الرجل أراد أن يقول شيئا ، أو انني لم اكن شجاعا بما فيه الكفاية لاستل منه ما كان مغموما في صدره ، فأعطيته قفاي وسرت وأنا أنظر الى الارض .. وكان العريف الـذى نزع شاراته الثلاث من عضده الايمن ، ينظر الى الارض تارة ، وتارة أخرى الى الاشكال الافعوانية التي صنعتها نيران الحرائق ، مأخوذا بهول الـذي حدث ، كان ــ عندئذ ــ لا يني يبربر أو يطلق أصواتا مهمومة : « ضاع كل شيء » وكنت مثله ــ فعلا ــ أحس بضياع المدينة ، على انني تذكرت سالمة :

خرجت من بيت احمد العبدالله حاسرة الرأس ، وهي تعيط : الاطفال ، انهم يقتلون حتى الاطفال ، كانت تمسك بعصا من جريد النخيل وتلوح به نحو السماء ، عارية الصدر ، حافية القدمين ، كما لو أنها خرجت باعجوبة من بين أيدي زمرة من الجند الهمج المتوحشين . ثم تحول صوتها الحلو الرقيق الى نوع من أصوات الغضب ، وعندما رفعت ذراعيها الى الريح ودفعت بأحد الاطفال الى السماء ثم عادت وتلقفته وقربته من صدرها أدركت أنها تعاتب الله وتنادي على أحمد العبدالله وتندب وليد الاحمد وتتهم دائرة الاستعلامات الوطنية . ولم تكن سالمة متدينة ، ولم تخالف أباها أو تخرج على رأيه ، وهكذا رأيتها تعيط : اين أنت يا أبي ، ويضيع صوتها في الضجيج والصراخ والعويل أدركت أن أحمد العبدالله يسكنها وانها تتقبله . كانت متوحشة فعلاً، وتقاتل بطريقتها الخاصة ، تنتقل من مكان لآخر ، تحمل أكياس البارود وصناديق العتاد ، وطناجر المياه ، وتزعق بين آونة وأخرى : اين أنت يا أبي. وتخيلت أنها تريد أن تشكو له أمرا ما ، بينما كان أحمد العبد الله يقف قرب النهر ويعاين السماء وينهرها بجريدة من سعف النخيل وهو يدمدم : لهم الجريمة ولنا الفوز غير أن الغزاة كانوا أسرع من أية نجدة سماوية ، فهم جاءوا من السماء ، أو هكذا رأيت بدايات الكارثة . وفي الضفة الغربية كانت الصورة امامي في صورتها الواقعية : لقد نزل المطر مزنا ، مرذولا مثل مزن الطلقات التي فاجأتنا ، ولم تكن الارض تستقبله بالمودة التي نعرفها ، رفضته كما يرفض الوليد صمغ الحليب الذي ينز من حلمة الثدي بعد ساعة على الولادة . وكما يكون الثدي المتورم متسخا بذلك السائل البني ، كان الاتساع الارضي أمامي ، يبدو قابلا للوصف : أتسخ الطين بامتدادات هلامية وأشكال كبدية من الدم والامعاء المقطعة والاجساد التي بلا رؤوس ، والاذرع والارجل المرمية هنا وهناك ، وتناثرت خوذ الجنود وشارات الضباط الملطخة بالطين ، ومن خلل الابخرة والاشكال الافعوانية للهب والدخان ، رأيت مئات الجثث تمددت بوضعيات لم تخترها ، وخيوطا من الدم بين مفاصل أصابعي وفوق ملابسي . لم أكن اقاتل في ذلك اليوم ، كنت اصطدم بالقتلى أو أقع على جثتهم ، ولم أكن أحمل أي سلاح في يدي ، فالاسلحة كانت ممنوعة بأمر دائرة الاستعلامات الوطنية ، حتى في ثكنة الجيش ، التي تقع في بساتين المدينة الشرقية ، كانت الاسلحة باردة ، ومن دون أي عتاد .. غير أن موت أصحاب الوجوه التي كنت ألاقيها يوميا جعلني أؤكد لنفسي هذا الرأي : ذات يوم سأسجل كل تاريخ هذه المدينة المنكودة .

وكانت جريدة السعف ما تزال في يدي ، وانا أحط بعيني أخيرا على وجه أحمد العبدالله ، فتفادى نظراتي والتجأ الى الارض ، قلت له : هذه ليست عزاء ، وهززت الجريدة في وجهه ، فانطوى على نفسه وتحصن بعباءته وأخرج

لفافة متسخة وأخذ يدخن . كان وجهه مصفرا ، وما زال القذى في أمواق عينيه ، ولقد توقف الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل قبل برهة ، ولا أدري من الذي منحني تلك الجرأة لان انصب مجلسا للمحاكمة : اننا مهدمون ، فهذا الخراب لمدينة « لام » التي تشكلت على امتداد عصور موغلة في القدم ، لم يكن ليتم بهذه السهولة ، لولا الجهود التي تضامنت جميعها على الباسها ثوب الذل . كان العريف خائفا ، مرعوبا ، وكانت ملابسه رغم اتساخها ما تزال انيقة . وقلت في نفسي : أن الجنود الذين يهربون من الخدمة باستمرار وتسلط رجال دائرة الاستعلامات الوطنية على رقاب الجند ، له باع كبير في خلق هذه الجريمة ، وكان احمد العبدالله يتابعني حتى خلت أنه يقرأ أفكاري الصامتة فصرخت فيه : وانت .. ماذا فعلت .. لقد كنت تهوم فقط وتتحدث ، كحديث المسجد ، دون أن تتعلم حرفة القتال . كنا نحن الثلاثة . ابلغ ذري المأساة تحققا ، ولم يخطر لي كيف التقينا ، هل اننا نجونا لاننا هربنا ، أم لان الرصاص كان قليلا ازاء الاعداد الغفيرة من الرجال والجنود والشباب الذين تجمهروا عند رقبة الجسر الوحيد الذي يقود الى الضفة الغربية ... وعند هذا المكان ، يمينا أو شمالا ، تنتشر المقاهي الصغيرة ويتجمع باعة الارصفة ، ويعرض قرويون يأتون من امكنة بعيدة البيض والدجاج ومساحيق التجميل الشعبية . والمساومة وحدها بين رجل ورجل ، وامرأة وأخرى ، سرعان ما كانت تتحول الى علاقة كبرت واتسعت شيئا فشيئا لتترك علاماتها على كل عوائل المدينة . وشاهدت المدينة بعد ذلك ظهور وسطاء في البيع من أهلها ، وأخذ مواطنون يقفون عند رقبة الجسر انتظارا لمن يقودهم الى العمل ، وفي غمرة حركة واسعة من البناء والبيع والشراء ، ظهر العسس والشرطة ، ونما العرف ليتحول بعد ذلك الى قانون ، وهكذا ولدت مدينة جديدة في رحم مدينة هانئة مطمئنة تأسست بين دق أوتاد بيوت الشعر وحفر لحد (الم) كانت مؤسسة جديدة .

مدينة ، أو مملكة للذباب ، والباعة المتجولين وطلاب المغامرة ، تترامى على الضفة الشرقية للنهر ، غير مكترثة بهذا الذي يجري لها ، بل انها قبلته ، وزاحمت الغرباء على الارصفة التي تطورت الى دكاكين ، واخذ العسس يمنعون أي قادم غريب من دخول المدينة الا باجازات مرور خاصة ، وكانت مدينة « لام » فرحة بهذا الذي يتم ، وصار شيخ المسجد يطنب كثيرا في مدح اولئك الغيورين من أبناء المدينة الذين يتبرعون بترميم ما يهتدم من حيطانه . وكان أحمد العبداللهاذ يذكر ما يقال له عنها يقول متبرما : مدينة لام لا بد أن تغادر موقعها الاول ، هذه هي طبيعة الاشياء . وعندما ظهرت مجموعات كبيرة من الفئران تحت الجسر القديم لم يعرها أحد أي اهتمام .. وفي يوم تال عند ما كان الناس يراقبون فيالق الفئران تحت الجسر تعترك

فيما بينها ، لم يبدوا اي تعليق ، غير أنهم مدوا رقابهم الى الضفة الغربية ، عند ما ظهر أحمد العبدالله والى جانبه طفلة لم تتعد العاشرة ، سوداء العينين، دقيقة الانف . كانت تلك « سالمة » التي كثيرا ما كانت ترافق أحمد العبدالله قبل أن تبلغ الرابعة عشرة ، وبعد تلك السنة لم تعد تخرج معه في نزهاتــه المعتادة في سهوب الضفة الغربية ، وفضلت أن تبقى في بيته الذي يشــرف على المدينة ، فوق تلة ترابية متماسكة في القسم الشمالي من قسمها الغربي .

وعند هذا المكان ، كان يمر ، أيضا ، موكب العزاء التقليدي الذي يستمر طيلة شهر صفر، حيث يكسر الناس الجرار عند عتبات البيوت ، ويوزعون عصيدة الحنطة تقربا الى الاولياء ، في حين ينشط باعة الارصفة وأصحاب الدكاكين ، وتكثر الوجوه الغريبة في المدينة . ولم يشاهد أحد من الناس أحمد العبدالله يسير في أي موكب عائلي ، كان يسير مع فرق المواكب جميعها، مع ابنه وليد الاحمد ، على الرصيف ، متثاقلا ومهموما ، يكاد ينكفيء على الارض . ثم لما اختفى الشاب في ظروف غامضة ، ظهر الشاب في حولين مع سالمــة . ثم دأب على الظهور وحيدا في الاحوال التالية ، لكنه كان يتقرب من تجمع نسوي تتوسطه « ملكة » بثيابها السوداء ، وفتياتها الثلاث يحملــن صينيات الشموع من حولها، وهي ترفع صوتها بالبكاء والعويل وطلب المغفرة. لقد نبتت ملكة في أزقة مدينة « لام » مثل زهرة برية . عند ما وفــدت مــع مجاميع الباعة المتجولين واشتغلت ببيع الحناء وقشور الرمان المطحونة ، ثم ابتاعت نزلا قريبا من سكن أحمد العبدالله . لم تكن أنواره تطفأ حتــى الصباح. قال عنها الجيران انها تأوى اليه الغرباء . وقال البعيدون عن بيتها : كانت تجالس صيادين ومتعاطيي أفيون يمضون الليل في ضحك وعويل وثغاء . ولم أكن أرى شيئا جديدا في « ملكة » قبل أن تموت سوى انها كانت تنظر الى وليد الاحمد بحب غامر . كان في تلك السنوات صبيا صغيرا ، اعتاد أن يلازمني ، وعندما نمر من أمام بيتها كان يدير بصره عن بابهــا . وفي ذات يوم ، بعد ان كبرنا . سألني وليد الاحمد : لماذا كان أبي يتردد على بيت ملكــة ؟

عندما شاهد بعض سكنة الحارة أحمد العبدالله يدخل بيت ملكة لاول مرة ، التقت أعينهم في صمت .. ثم لما رأوه مرة ثانية وثالثة استنكروا عليه أن يثمن بيتا موبوءا ، غير أن أحمد العبدالله لم يعر اهتماما لكل ما كان يقال، لذلك كان ينظر اليها من الجانب الثاني ، مجللة بالسواد ، في موكب صفــر التقليدي ، دون أن تبدو عليه امارات الكره أو المحبة . كان يمشي بكامــل جسده ، أما عيناه فقد كانتا شاخصتين ، الى حيث تكون ملكة ، لامعتيــن حذرتين ، تلوبان داخل محجريهما ، تتقربان شيئا مستريبا أو غيــر قابــل للاعلان ، أو حتى مجرد التلميح . كان خائفا كمن ينتظر وقوع فاجعة ، وفي تلك المواسم سمعه بعضهم يردد لنفسه : مدينة موت .

ومع الموت الذي شخص عند رقبة الجسر ، كانت التفاصيل فائضة وغير ضرورية بالنسبة لنا ونحن في هذا الموقف ، مع انها تظل الامكانية الوحيدة المتاحة لوصف ما تم في ذلك اليوم او ايجاد تبرير له . ولكنني ساظل اتساءل ، ما قيمة أي تبرير يترادف مع القتل ؟ ولماذا كنا نحن هدف القتل ؟ ان الدهر الذي عذب أجداد (الم) وحده هو الذي يقدم جوابا شافيا ، وكنت اناقش في وحدتي الاخيرة ، وأنا ارى سالمة قد تجاوزت الثلاثين ، والطفلة الصغيرة تلعب أمامها : ان كل شيء في حركة وتنافر وتجاذب ، وعقل هذه الحركة والتجاذب والتنافر وحده يستطيع أن يرى الاشياء بوضوح . ان العدالة لا يمكن أن تكون خارج الجريمة ، وأحيانا اقول : كل شيء وهم ، ما دام كل شيء يحمل معه الغازه . ان القرى القديمة تعرضت الى ابادة ، مرة بالصاعقة ، ومرة ثانية بريح عاتية ، وكانت النار تطهيرا لمدن أخرى تلفت . غير أن مدنا جديدة كانت تنبت ، وعروقها تمتد بعيدا في ذلك الهشيم الذى خلفته المدن المبادة ، وهكذا يرتبط الموت بالحياة ، وتكاد ان تكون الحياة هي الحالة المؤقتة ، بينما الموت هو الحقيقة الوحيدة الخالدة . لذلك فان دورة الزمن عادت من جديد وتوقفت عند مدينة « لام » . ثم ان هذه المدينة لا بد أن تكون قد قامت بفعل الموت تجاه مدن أخرى ، وقد يكون ذلك بصيغة أخرى . ترى .. لماذا كان الناس الغرباء يقدمون الينا دون غيرنا من المدن ..؟ بالتأكيد كنا نقدم لهم الحياة الرخية ، ويقدمون لنا بدايات الموت . والذي حدث قبل أن نصل الى هذه الخربة كان يمكن أن يحدث في الكوابيس فقط . كان الصباح مثل أي صباح آخر تستقبله المدينة ، حيث اعتاد احمد العبدالله ان يذهب ، قبل أن يطلع ، الى المسجد . حينها يكون الصباح جنينا ، والريح الخفيفة المحملة بروائح الارض والحيوانات والبشر والزهور البرية ، تنزلق على الارض الحصباء من الضفة الغربية ، لتدخل بيوت المدينة - بيتا بيتا ، وتترك تأثيرها السحري ، على مهود الاطفال الرضع المغطاة بملاءات زرقاء وحمراء وخضراء وبيضاء ، ويمم وجهه شطر الكعبة . كانت صلاته وقوفا دائما ، واذ رأيته ـ حدث هذا قبل عشر سنوات ـ يسبل يديه مع استقامة الجسد ، ويرفع رأسه نحو السماء ، خلت أنه يتحدث الى وجود يعرفه منذ زمن سحيق ، ويخاطبه بلغة التصادق ولهجة المعاتب ، مع ان شفتيه لا تتحركان الا بالخشية ، وجسده يهتز الى اليمين والشمال ، مضطربا مأخوذا وهو يقول « اياي ، اياي من الكبيرة » ثم يحني قامته ويبرك على الارض ويسجد . لم تكن سجدة بشر . كان يبدو كما لو أن جسده يرسم قوسا هائلا ، مثل القوس المزهو الذي ينفتح من أسفله مباشرة باب المسجد ، ثم يهمهم ويكرر همهمات تتخللها أحيانا كلمات مفهومة : « فرحي ، انني أعرفك . وعذابي انني اعرفك وتعرفني ، يا هو انقذني من حبك ، ويا أنت أنكرني حتى امتحن في

انكاري لك ، فانا فيك أول المبتلين وآخرهم وتعود الهمهمة غير المفهومة ، العتاب الذي يتبين من النبرة والصوت ، الخوف الذي يمشي به الصوت ، الاقتدار الذي لا يعرفه الا الصوت ، وكما لو أن المهمة أوصلته الى ما كان يريد، أو كشفت له وإها عزاءه الوحيد يخلد الى الصمت ، فأحس به مثـل جزيئ جزيئات احدى طابوقات أحد جدران المسجد ، حاضرا في وجـود غائب ، وغائب اذ الشمس تشرق على جدار متماسك مزين بآيات من القرآن الكريم ، أو ببقايا رايات سوداء وحمراء وخضراء وبيضاء . تحولت الى مزق صغيرة ، بعد أن مرت عليها الاعوام ، وكان الصباح ـ آنئذ ـ ما يزال جنينا يتنفس هواء الليل الذي قارب الرحيل ، مترقبا تلك اللحظة الفريدة ، ليضيف يومـا آخر الى تاريخ هذه المدينة التي تكونت على ضفة نهر صغير ، يشهد معها تقادم الليل والنهار ، يتسع باستمرار ، يتسع ويغير مجراه ، فتظهر فيه جزر صغيرة ، رملية أو طينية ، نبت فيها العاتول ونمت فيها الزهور البريـة والقصب ، وسكنتها طيور غريبة ، مثلما التجأت الى أدغالها الكثيفة حيات وخنازير وبنات آوى وكلاب سئبة وخيول مجذومة .

ولكن عندما يبدأ الخيط الاسود يفترق عـن الخيط الابيض ، يغـادر أحمد العبدالله المسجد ، ويستمر صاعدا مع ارتفاع النهر ، تتطاير ذؤابات كوفيته في هواء صفيق ، تموج وسط النهر ، وتدخل البيوت المدينـة بيتـا بيتا ، ولم يكن أحد غيره بقي محافظا على هذا التقليد : الذهاب الى المسجد في هجيع الليل ، ومغادرته قبل أن يفترق الخيط الابيض من الخيط الاسود ... ومع الخيط الاسود الذي انفصل عن الخيط الابيض تنفست الارض وتثاءبت الخراف ، وايقظت الامهات الزوجات الصغيرات ، ثم اوجرت التنانير بعد ذلك. كان الاطفال يجلسون عند عتبات البيوت ، او يدرجون في أحـواش البيـوت بينما كان الشبان المتزوجون حديثا ينامون خليي البال بعد نهار من العمل الشاق وليل من الاتصل الجنسي المتقطع .

وفي الساعة السادسة توقف الصباح . توقف تماما عن أن يكون صباحا أو ليلا أو ظهرا أو عصرا ، وسمعت صوتا يعلو : هذا يوم الحشر . ومع ذلك لم يكن هذا الاعلان ينطوي على أية غرابة . فقد لاحظت ، مع شيء من الدهشة، أن ذلك الصباح كان زمنا لم نألفه ، ولم أعش أو أشاهد صباحا مثله في مـا بعد . ففي ذلك الوقت هبت ريح دافئة ، ما لبثت أن تسخنت بعد قليـل ، واهتاجت الزرازير (وعاد الصوت يعلو : هذا يوم الحشر) ، والعصافير وطيور الفاخت والغربان ، وقوق الدجاج وصرخت الديكة ، وبدأت ارتـال الهـوام واسراب الديدان تبرز من شقوق جدر الغرف المبنية بالآجر غير المفخور ، ثم ظهرت حية سوداء الظهر بيضاء البطن في بيتنا ، واختفت في الحال بعـد أن وقفت على ذيلها، وبرزت الفئران من مخابئها في البيوت، أما في الضفة الغربية

من النهر ، الشاطيء الغربي منه ، فقد تكومت آلاف الفئران الملطخة بالطين تعترك . بينما كان دخان يتصاعد من بيت احمد العبدالله ... وحده كان أحمد العبدالله في البيت ، في مخدعه ، في الطابق الثاني ، يطل من كوة صغيرة على الشمس القادمة من الشرق ، ولم يكن جذلا ، كان ينظر الى البروزات المنحنية في الجدر الطينية والافق البعيد أقواس كبيرة وقويسات متناهية الصغر ، في سعف النخيل ، وأجنحة العصافير ودورات الهوام ، أفواه الاطفال وسورات المياه في النهر الذي يجاور بيته ، وكان يحس أنه قريب من هذا الذي يحدث كله ، وداهمته في الحال فكرة أخرى : انذي امتلك معراجي وجواد الاعراج ، وتراجع قليلا الى الخلف فسمع الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل ، ثم راى صورته في الغيمة الصباحية التي تسوقها الشمس البكر ، مترامية الاطراف ، مترفعة حد الكبر ، ومرتفعة حتى لا يمكن أن تطال ، وقال : ذلك هو قلبي ، لا شيء أكثر أولوية من القلب ، حتى ان العقل يبدو منفذا كريما ، يتطلبه هذا العضو الصغير ، ثم مرق البراق من امام عينيه ، كان مسرجا وحاضرا للعروج ، مترفعا في مشيته الهادئة الواثقة ـ لا ، لم يكن يمشي ، كان ينساب رقيقا وناعما . وجود أثيري : هوذا معراجي لانني تطابقت اذ نظرت الى عيني بقلبي ، ولم تكن نفسي لوامة ، فهي الآن مع الغيمة ، لطيفة بلا حركات ، شاردة لكنها تقترب من الارض ، لم يلتم فوق ظهرها غبار ، منطوية على هذا الاحتواء للفرح والسعادة . وراقته الفكرة ، غير أنه لام نفسه في الحال وقال : « يا رب الكافرين وربي » ولم يسمعه احد ، كان الصباح يسوق الغيمة الى حيث تقابل كوته ، غيمة بيضاء تدور حول نفسها ، كما لو أنها تتمزق ، فتنجذب الى الداخل والخارج ، الى أعلى واسفل ، وكان قلبها في الوسط يعترك مع اطرافها السائبة ، ولم يكن أحمد العبدالله أرضيا بما فيه الكفاية كان يلامس ارضيته في تلك الهجرات الليلية الى بيت ملكة فيلقاها تطرق ساهمة فاتحة زيق ثوبها ليظهر ثدياها ، فترفع اليه عينين ساهمتين، وتقوم على قدمين واهنتين ، فيطيل النظر اليها ـ لا ، لم يكن ينظرها ، انه يعيد هذا الشخوص الجسدي لامراة في الاربعين ، تمدد على يمينها ويسارها رجال جاءوا يسعون من اقاصي المدينة ، فناموا بعد ان ضربهم سوط المخدر . ولم تكن شجاعتها كافية للمخاطبة . وفي مثل هذا الموقف تتقدم اليه ، تطلق صوتا اشبه بالبكاء لكنه ينم عن ترحيب ، وتقبل يده ، فيكاد يقع على وجهه من شدة الارتجاف ـ كنت رائحة الافيون تعبق في كل زوايا البيت وحجراته الثلاث حيث الفتيات يتضاحكن ، ويعوي رجال أو يمشون على الاربعة ، أو يصمت البعض منهم ، مقلوب العينين ، بينما كان آخرون ، وهؤلاء قلة ، يناءون عراة على ارض مرشوشة بالماء . كان يعرف طعم الفترة التي تتوسط الصحو والخدر ـ تلك اللحظة الفريدة التي تجعل النفس تمتليء رعبا وشجاعة

واوما ، وكان يعرف ان هؤلاء الرجال الفقراء ـ لم يكن ليتم بيت ملكة الا الفقراء ، فقد كان للاغنياء والسراة بيوت خاصة للهو وتناول الحشيش وممارسة اللواط والقصف ـ ينعمون بسكينة مؤقتة ، سكينة يشترونها بالعرق والعمل الفائض والخبز الكفاف . الا أنه وهو الذي ينسي نفسه اذ يشم رائحة الافيون ، يضع كفه اليمنى تحت ذقنها ، ويرفع رأسها اليه بطيئا ، لينظر في عينين حزينتين برغم الكحل الذي يسخم أسفل الاجفان ، ووجه حفرته المساحيق الشعبية ، فيهم ألا يقول لها شيئا ، بيد انه اذ يرى السحائب مبعثرات في سماوة الوجه المحفور ، يبرك على الارض ، حتى يلامس قدمي ملكة ثم يقبلها واحدة بعد الاخرى ، وهي واقفة لا تدري ماذا تفعل ، وهي تسمعه يقول « يا رب .. » فترتعد . تعثمت ، أول الامر ، انه يمزح أول مرة ، دخل البيت فهربت الفتيات ، ولاذ الصاحون من الرجال بالفرار ، بينما استقبلته نصف مبتسمة . تصورت أنها تحلم ، فداخت ، ودارت بها أرضية الغرفة وسقفها ، لكنه امسك بها من كتفيها الواهنتين ، واستدار بكامل جسدها نحو القبلة وقال : تلك هي الكعبة ، هيا امسكيها يا ملكة ، وأخذ يدفعها دفعا خفيفا أمامه ، وكنت تصرخ : سيدي .. انها تتقدم الي وليس أنا التي أتقدم . وإما توقفت استدارت اليه ، فرأت دمعا في عينيه ، وتغضن وجهه مثل حبة عنب مجففة . ولم يشعر احمد العبدالله بأي دفر ، وكانت ملكة امامه مأخوذة بهذا الحضور المفاجيء ، ومرتبكة من هول الذي حدث الآن ، الا أن ارتباكها ازداد كثيرا عندما رأته يخر على قدميها ويندفع يقبلهما ويقول : «يا رب الخطاة .. يا ربي ... هبني القدرة على الحياة مع القتلة » ثم ران صمت كثيف على الغرفة ، وكانت فتيات الدار ينظرن الى سيدتهن، عارية الصدر، تنحني على أحمد العبدالله الذي كان يصرخ مستغيثا، في حين كان الرجال المسطولون ينامون بدون حراس ... أما في الشارع ، خلف البيت ، فقد كان الاطفال يصرخون .. وكان ثمة صوت ندب وعويل .. وسمعت صراخا في البيوت المجاورة . ولما استعلمت من أمي عن سبب الصراخ قالت غير معنية « عمل سنوان .. طفل تقنفذ » ولم اعبا بما قالته ، ودفعت بجسدي خارج البيت . كان كثير من الاطفال يصرخون ويشيرون الى السماء ، في حين كانت السنة اللهب تخبوا رويدا رويدا في التنانير ، وفي الفضاء الصباحي أسراب خفافيش وبوم وحدآت تسرع في اتجاه الغرب ، تزعق وتصفق بأجنحتها ، ثم ظهر جسيم غريب في فضاء المدينة .

كان مدورا ، ومثل كرة اللعب الكبيرة ، بهالة حمراء تحيط به ، وأزيز خفيف لكنه حاد ، أخذ يفرخ جسيمات أصغر منه ، وسمعت نفيرا من عند الثكنة ، فعلمت أن الجنود يستعدون لامر ما . بعد ذلك تحولت السماء الى اون بني خفيف ، وكان الجو شبيها بوقت الفجر ، وأصدرت الكريات النارية

أصواتا غير مفهومة ، ثم أخذ يصل الينا صوت ضعيف ، ارتفع قليلا قليلا ، صوت ناعم ورقيق ، لكنه واضح جدا : استسلموا . وفي الحال ارتفعت حرارة الجو . كان العرق يتصبب من أجسادنا ، وكنا نهزول والرصاص يتساقط علينا ، رصص كثيف ، وصوت رقيق ناعم وحاد حد القتل لا ينفي يكرر الامر : استسلموا .. و .. احتضن احمد العبدالله . كنت اسير الى جانبه ، وملكه في الجانب الآخر من الشارع ، تتعكز على عصا خيزران ، لم يكن معها أي رفيق ، وحيدة وتطرق برأسها الى الاسفل ، بينما كانت « سالمة » تبتعد عنها عـدة أمتار دون أن تنظر اليها . ثم اخترقت ضوضاء الموكب صرخة ناعمة ورقيقة، كانت سريعة الى الحد الذي توهمت انني لم أسمع أي صوت ، وسطع في نقطة بعيدة من السماء لون فضي ، أخذ يتفتت ، وتنفلت من ذيله السائب الطويل ألوان منشورية ، وهناك كان الانين المحبوس . رأيت احمد العبدالله يطيل النظر الى السماء الصافية . كان كل شيء بهيجا في الاعلى ، الا الارض ، فقد كانت مبتهجة بذلك العويل والندب والصراخ . ورغم أن صوت ملكة كـان شجيا وأنيسا حتى عندما تندب ، فان أحمد العبدالله ظن أن الصوت الرقيق الناعم يأتيه من جانبها ، فحدق فيها ، وما أزال أتوهم انه رفع كفه لها ، ثم لم سكتت استمر الانين المحبوس . كان الانين يتضح الآن ، ويغمر فضاء المدينة والموكب التقليدي . وسألت نفسي : أي معذب يطلق مثل هذا الصوت المفجوع ؟ وحجب عني الفضاء السماوي الاجابة ، فالالوان المنشورية اتخذت شكل الموكب ، وكان هناك أناس بقامات طويلة وقصيرة ، هياكل عظمية ملفعة بأغطية حمر وزرق وبيض بعضها يشتعل بنيران تتذاوب لتتخذ أشكال حيات وأجساد خرافية ، وكان ثمة من ينقر الدفوف ويدق على الطبول ، وكان من يصرخ طلبا للنجدة أو يبكي للعفو والمغفرة، على أن الحراس الذين يسيرون على جانبي الموكب كانـــوا يتصرفون وكأن كل ذلـك لا يعنيهـم . كـانـوا طوال القامة ، ترتفع رماح فوق رؤوسهم ، بلحى طويلة تتدلى فوق صدورهم العارية ، وجدائل مضفورة تتسرب من جانبي الرأس وخلفه حتـــى أخمص اقدامهم ، ومن البعيد كان يأتي صوت النفير فيتجه موكب الهياكل العظميـة الى مصدره المجهول . في تلك اللحظات اكتشفت أن احمد العبدالله ينظر الى الاعلى أيضا . كان وجهه الاسمر يلتمع في وهج المصابيح النفطية ، ولاحظت عرقا غزيرا يتصبب من جبهته وجسده يرتعش من اعلاه الى أدناه ، لكنــه داوم النظر الى السماء ، كما لو أن النفير كان يستدعيه شخصيا ، ولانني صوبت اليه نظري وعقلي كلية ، حسبت نفسي أتخيل ذلك الذي رأيته ، بيد أن الانين المفجوع دخل سمعي دون مواربة بينما كنت ـ بحواسي كلها ـ متجها لمراقبة المشهد ، ثم أحسست بعد ذلك ، بما يمكن أن اسميه خبالا فجائيا تلبسني ، فقد سمعت أحمد العبدالله يرفع عقيرته بالنداء كما لو كان

في أعلى ذرى الطرب والانشراح « يا هذا الذي لا تطاله المعرفة .. ينفتح الشدق .. ويتباعد الشدقان .. العوز الثاري يحولني الى واحد ، وأنت الواحد، فلا اجد الجواب بوحدتي ووحدانيتك ، ولا بقوة الحق ، لانك خارج الاجتهاد ». وكان الموكب يواصل تقليده السنوي . الندابون كثرة ، وعويل النساء يتصاعد ولا احد يعرف الذي يتم في الاعلى . ومع أن أحمد العبدالله استمر يردد « يا عوزي الثاري » لم يكن ثمة أحد يسمعه .

واذ ذاك أدركت أن لا بد من صرخة مني توقظ الموكب . وحاولت . لكن فمي بقي مغلقا ، وظل صوتي لا يطاوعني . لقد اقفل على باب كل شيء الا باب المشاهدة ، فدنوت من أحمد العبدالله الذي قال لي راعشا « يا ابراهيم .. يا بني .. زملني .. فالجرس يدق » القيت كوفيتي البيضاء على جسده ، وفي الارض يتصاعد الصراخ ، وفي السماء كان ثمة صوت النفير ، وغيوم بيضاء مثل ندف ثلج ربيعي تتموج تحت موكب الهياكل العظمية، والانين يتصاعد منه

فجأة خر احمد العبدالله الى الارض يتلوى ويعيط « يا عوزي .. يا قوس الدائرة الناقص » كان البعض يتفرج ، وكان آخرون قد غادرتهم شجاعة الاقتراب منه ، كان جسده الذي تترب يرتعش مثل فرخ مبلل ، وتعفر وجهه بالغبار ، الا ملكة التي اخترقت الموكب ، تستند الى عصاها ، ففسح لها الندابون طريقا ، حتى اذا ما وصلت اليه جلست على ركبتيها ولمست جبهته المتعرقة بأصابعها البيضاء التي خلت الآن من أي خاتم ، واستمرت جالسة اليه ، وهي تحدثه في أذنيه مباشرة والجسد يكف عن الارتعاش ، حتى اذا ما هدأ نهائيا رفع اليها رأسا متعفرا بالتراب وسألها خافتا : « ملكة ، هل سمعت صوت الجرس ؟ » وأرادت أن تقول شيئا .. لم نكن جبناء ، ولم يكن جنودنا يقبلون هذه الخلة ، غير انهم اخذوا في هذه المعركة غير المألوفة ، ففضل كثيرون منهم رمي أسلحتهم على الارض والالتحاق بالغرب ، حيث الخرائب والحشائش قصيرة السيقان ، مرورا بالجسر الذي يتقوس على النهر ، وايكون الاشارة الوحيدة الى الضفة الغربية ، كنا جميعا في الضفة الشرقية ، وكان الجانب الآخر لا يعنينا الا بكونه مكانا غير مأمون الجانب ، وقد يجعله ضريح (الم) آمنا ذات يوم . ومع ذلك اندفعنا نحو الغرب ، وكانت أضواء الكورنيش مشتعلة ، نتعثر بصناديق العتاد وأكداس البنادق وعجلات المدافع وطناجير المياه وارزات الجنود وجثث البغال والجياد وكلاب الشرطة النافقة . وعبرنا الجسر فعلا ، واستدرت الى الخلف دون ارادة مني فشاهدت برج دائرة الاستعلامات الوطنية يطلق اشارات ضوئية باتجاه الكريات النارية ، والدخان يلفع الفضاء وروابي البيوت وأعمدة مانعات الصواعق ومنائر المساجد ، بينما امتثل الاطفال والنساء لامر الصوت الناعم الرقيق بملازمة البيوت أو الشوارع .

وما أن تجمعنا في شارع الضفة الغربية حتى داهمتنا فرق من النيران . كان أزيز النار وأصوات الصافرات مألوفة لدينا ، ففي السنوات الاخيرة، تكون المدينة قد اختارت الصمت طويلا ، بعد صوت الصافرة الاولى الذي ينطلق من برج دائرة الاستعلامات الوطنية، لتعود الحركة ثانية بعد الصافرة التالية، أما الآن فان أية شظية من أية رصاصة تصيب جسد أحدنا ترديه قتيلا في الحال ، ومع هذا كان الصوت الناعم الرقيق والحاد حد القتل يقول : استسلموا. استسلمنا . انزوينا نحن الذين كا زمن حسن حظنا أننا لم نتعرف الى شظية في البيوت الطينية المجاورة ، وبين أشداق الجداول الصغيرة المنسية ، أو فوق الحشائش قصيرة السيقان ، وكان القتلى ، أمامي ، ينامون دون حراك ، على امتداد الاتساع الارضي ، فوق الطين الذي تتصاعد من الابخرة ، ونحن مستسلمون تماما لما قد يأتي .

الاستسلام هو شظف عيش المحارب ، واللحظة التي يكون فيها الانتحار عملا صائبا . غير أن أحدا لم ير رئيس دائرة الاستعلامات الوطنية يظهر من بوابتها الانبوبية الكبيرة ، كما لم نشاهد أيا من رجاله في تلك الجموع التي هرعت الى الضفة الغربية ، لقد ذابوا رأسا في امكنة لا نعرفها ، غير أننا سمعنا الصوت الرقيق الناعم ينادي : « على رجال دائرة الاستعلامات الوطنية الالتحاق فورا بمقر عملهم ».ومع انتهاء هذا الامر مباشرة جاء الحدث المفاجيء .

توقفت الكرات النارية في الفضاء وانقطعت أصوات الازيز ، وفتحت منها أبواب فجوات صغيرة، تبعها نزول رجال بشعي الهيأة، أحاطوا بنا من كل جانب .

كانوا مخلوقات تكاد أن تكون آدمية . يرتدون ملابس خاكية مرقطة خضراء تميل الى اللون البني ، وبأحذية من جلد ذي لون أسود ، ثم تبعتهم مخاليق قصار القامة ، يعاقرن مدافع أوتوماتيكية على أكتافهم ، أخذوا يتوزعون أمكنتهم في الاتساع الارضي كما لو أنهم خبروا المنطقة الغربية من قبل . والآن بعد هذه السنوات التي مرت على الغزو ، حيث يتحتم علي ذكر كل الحقيقة ، استطيع أن أعرف مغزى تحذيرات أحمد العبدالله . لقد كان يعرف أن ثمة مدنا أخرى تدفع الارض باتجاه مدينتنا ، في حين كنا جميعا لا نطيق أي حديث عن الغرباء الذين سيقدمون ، كما قال أحمد العبدالله ، وينامون حتى في مخادعنا الزوجية ، فقد حرمت دائرة الاستعلامات الوطنية أي حديث عن الغرباء الذين كان يتوقعهم أحمد العبدالله ، وعرفت في تلك اللحظة لماذا تنازل العزيف عن رتبته العسكرية .. ولماذا انحشرت معه وأحمد العبدالله في تلك الخربة . لم نكن نستسلم ، لاننا لم نحارب أصلا ، أو لم تكن ثمة حرب البتة . كنا نصادر ونساق مثل قطيع غنم الى المسلخ . كان الاحياء

يعرفون موقع السجن القديم ، فتقدموا اليه كأنهم منومون ، أما الاموات فقد استراحوا من عناء ما عانيناه فيما بعد ..

وكنت واحدا من هؤلاء الذين لم يستريحوا .

وايام السجن ايامنا ، لاننا اخترناها ، أو لانها تحولت الى اختيار . ويصعب كثيرا على أي واحد منا أن يفرق بين الغزو وبين السجن . على أنني ساظل أتذكر ما قاله أحمد العبدالله بعد يومين من وصولنا الى السجن : اليوم يبدأ عذابنا الجديد . وكان عذابنا القديم ينطوي على الماضي بكونه ماضيا تكلس في الذاكرة ، او في اكثر الاجزاء ايغالا في مخداتها . ان كل واحد من أبناء المدينة ابتدأ يتشكل مع هذا العذاب دون أن يتيح لنفسه فرصة المصارحة . وكان الحرفيون وأصحاب الدكاكين يقفلون أبواب مصالحهم قبل مغيب الشمس بساعتين ، فقد قالت دائرة الاستعلامات الوطنية أن شبكة من انصار وليد الاحمد بدأوا يعيدون ترتيب ذاكرة اولئك المواطنين .. وعندما ظهرت ذات صباح عبارة « يا عمال مدينة لام اتحدوا » اضطربت دائرة الاستعلامات الوطنية ، وأصدرت على الفور أوامر تقضي باقفال المصالح قبل مغيب الشمس بساعتين . حتى الرعاة أخذوا يعودون من المزارع الى ضواحي المدينة في ذلك الوقت ، بينما عززت الحراسات الليلية في الازقة والشوارع والسوق المركزي في البلدة . وكان على أصحاب البيوت أن يقفلوا أبوابهم ــ من الداخل ــ بأكثر من رتاج ، بعد أن ابدت دائرة الاستعلامات الوطنية أن هذا ضروري لحصر أولئك الذين يظهرون في الظلام ويكتبون على الجدران شعارات معادية . ولم يقل أحمد العبدالله شيئا بعد أن قرأ التعميم ، سوى أنه رفع بصره الى الاعلى وقال : مدينة المؤسسات الغامضة آفلة ، وأن الله لا يحب الآفلين ، وبعد ذلك ، عند ما اختفى وليد الاحمد بصورة غامضة قرأت في النشرة اليومية التي تصدرها دائرة الاستعلامات الوطنية ما يلي : « ثبت للدوائر المسؤولة ان وليد الاحمد العبدالله آل الم يقوم باعمال تخريب ، ويدعو الى عصيان أولي الامر ، ويعمل على تخريب المعتقدات والآراء الحميدة ، لذلك قررت دائرة الاستعلامات الوطنية وضعه في المحتجز الخاص بذوي الميول الهدامة ، ليكون عبرة لغيره ، وليعلم الجميع أن مصلحة المدينة فوق أي اعتبار » . لم يعلق أحمد العبدالله بأية كلمة بعد أن قرأ الخبر ، بل ذهب الى مسجد المدينة مباشرة ، وجمع حطبا أشعل فيه النيران ، وظل هناك في الباحة ، ينظر الى خشب السدر الاخضر الذي يعاند الاحتراق وهو يردد بصوت مسموع « أيها العصف .. أيتها الطيور الابابيل » ، ثم عندما التقاني عند رقبة الجسر ، في الظهيرة ذاتها ، رأيت زبدا حول براطمه وخاطبني غاضبا : « إبراهيم .. أما زلت لا تفهم ، لقد اقترب الانتقام » واستمر يمشي خطوات، توقف بعدها واستدار الى، شاهدت دمعة تلمع في عينيه ،دمعة مكابرة ومتكبرة،

وقال « لماذا يحدث هذا .. اليوم مع وليد وغدا مع سالمة .. وبعده تعم الفوضى المدينة .. يا ابراهيم ان هذا كله في سجل محفوظ » . وتيقنت في تلك اللحظة ، أن الفرصة باتت سانحة ، لان نتعرف على بعضنا كثيرا ، لذلك سرت الى جانبه . كان النهر أمامنا يرتفع ونحن نتجه الى بيته ، وظل صامتا ، لكنه كان محتدما ، وهكذا ابتدأت الحديث .

ـ قد يكون وليد على غير حق .

ـ لكن الدائرة ليست على حق فيما أرى .

ـ قد يكون ما تقوله صحيحا .

ـ يدعو وليد الى جنة أرضية

ـ هذا شأنه .

ـ وهذا مشاركة لله في أمور خلقه

ـ ومن قال ان الله يرفض هذا ؟

ـ ثم انه ينزل الله الى الارض ، أو أنه يلغيه

انتفض في وجهي :

ـ انت تقول هذا الكلام .. كيف تبيح لنفسك أن تنطوي على هذه القذارة ؟

قلت :

ـ يا سيدي انا أسأل فقط ، ربما لا أفهم

ـ لا .. أنت تعرف ، تعرف كل شيء

توقفت فتوقف هو أيضا فقلت :

ـ وليد يقول ان الانسان هو الله

قال متأففا :

ـ وماذا في ذلك .. تريد أن تكون الله ، اذن اسمع ..

كف شعر رأسي ، وأخذ كياني يرتعش بأكمله ، وقلت في ذاتي : ان الولد يطور أفكار أبيه . ان (الم) تتكلم في صوت أحمد العبدالله ، ووليد يختزن كل تلك الذاكرة التاريخية من الهجرات والحروب وانتقاد العدالة . كان ينظر الي ، وكأنه يريد أن يقول : أتريد أن تسمع ، فقلت :

ـ اني اسمع يا سيدي .

ـ هل رأيت الله ؟

ـ لا يا سيدي

ـ لا تقل سيدي .. الله هو السيد فقط .

ـ قبل لحظات قلت : الانسان هو الله

ـ وأكرر هذا عليك اليوم وفي كل وقت .. ان المسألة أبسط من البساطة. الله هو الخير والعدالة والسلام والمحبة والصدق . كن هذه كلها تنطق باسم

اله ، أي تكـونـــه .

كنا قد وصلنا الى بيته ، فطرق الباب سريعا ، فجاء صوت سالمة من الداخل واهنا : من ؟ قال أحمد العبدالله ..

ــ اللــه !

وكان هذا جزءا من عذابي وعذاب وليد وسالمة واحمد العبدالله ، لقد كنا نبحث عن الله ، كل بطريقته الخاصة ، وحتى في تلك الايام المرعبة ايام كنا في الخرائب فان فكرة وجود الله لم تفارقني لحظة، غير أنني تطيرت مما قاله لي أحمد العبدالله ، وان كنت وافقته ، فالفكرة على بساطتها تربك أي انسان حقيقي .. ومما زاد في ارتباكي دخول ثلاثة رجال من بوابة الخربــة التــي التجأنا اليها . كانوا جنودنا . تعرفت عليهم من بقايا أحذيتهم ووجوههم الصفراء المزرقة . دخلوا علينا صامتين يجللهم الخوف واليأس ، ولم يرفعوا اصبعا بتحية ، انما نظروا الينا من عيون لا تطرف ، كا نأحدهـم شابــا لا يتجاوز التاسعة عشرة يرسل الى نظرة من قارب على الاحتضار ، كــانت شفتاه يابستين ، وخيل الى أنه يطلب ماء ، لكنه كان لا يستطيــع التلفظ بحرف الميم . كان كالمنوم أو كمن يرى طائر الموت يصفع عينيه بجناحيه القويين . أما رفيقاه فتوجها الى الحائط مباشرة واسندا اليه ظهريهما . ثـم تراصف الى جانبهما الجندي ابن التسعة عشرة .

في تلك الهنيهة لم يتسن لي أن أجيب على تساؤل داهمني على حيـن غرة : كيف اهتدى الثلاثة الى هذا المكان .. ومن هي القوة التي دفعت بهم الى خربتنا هذه ؟ أتكون تلك القوة القاتلة أم الله ؟ بيد أن الوضع كان مبهضا لأي جواب ، فقد توقف في البوابة أحد الغزاة شاهرا سلاحه الاوتوماتيكــي لم يكن رجلا . انه الموت ، وفي تلك اللحظة فكرت ثانية : ماذا يجب أن أفعل ؟ ان الحياة تكاد أن تكون تافهة أحيانا ، ولكن أي شيء يعادلها اذا ما انتويت فقدها ؟ لم أكن أفكر في الانتحار البتة ، كنت راسيا في قارب الطمانينة ، ان كل شيء ، في هذه الخربة وخارجها ، يعيد ترتيب قدراته : القتلــة الذيــن يكيفون الغزو لانتصار الجريمة ، والضحايا المنهمكون في الصمت او في الحوار المستديم مع النفس . لم أكن أفكر في أية مشاعر بطولية ، وكانت الاجساد التي تجاورني تخضني الآن أكثر من اي وقت مضى ، ربما يمتثــل أحمــد العبدالله لتاريخ أجداده في الموت البطولي ، ربما يكون اللحظة أكثر مني على معاينة فعل القتل ، بيد أن الجنود الثلاثة يتعرفون الآن على أدق تفاصيلي ، لقد وحدنا الموت في هذا الزمن الذي لا نستطيع قياسه ، كنــا نــرتجف ، وانخلعت قلوبنا من داخل صدورنا ، لكن اقدامنا كانت على الارض ، ورؤوسنا تمتد نحو السماء ، وتلك هي الخصلة الحميدة في هذا الموت الذي نحياه الآن ، اننا نتساوى في حضرته ونستطيع التخاطب معه بلغة لا يفهمهــا الغــزاة

والقتلة ، بل انني في تلك اللحظة ، وأنا استغرق في الصمت ، اكتشفت عائلة العريف الذي تنازل عن شاراته الثلاث ، كامل عامل طابوق في فتوته ، رأى في الجندية ملاذا أكثر أمنا لاطفاله بعد أن يموت أو يتقاعد ، وسمعته يفكر : « ضاع كل شيء » . أما الجندي ابن التاسعة عشرة ، فقد كان يودع الآن والدته ، كانت تقف في بوابة الخربة ، وقد اصطكت اسنانها من الهلع والخوف، امرأة بالعباءة السوداء ، حافية القدمين ، تمد إليه يدين راعشتين . بيد أنه لفرط خوفه لم يكن يراها ، كان منغمراً في الاحباط وفقدان الشباب ووداع أجمل لحظات الفتوة ، بينما هبط طائر الموت بكل جبروته على الجنديين الآخرين ، الذين كانا ينتحبان . وهذه هي حالة مدينتنا في الخرائب ، أو في تلك البيوت التي لم نقل لساكنيها وداعا ، فماذا يجب علي أن أفعل الآن ؟ ، ربما كانت مدينتنا النموذج المثالي للتفاهة ، وربما ـ أيضا ـ النموذج البطولي للموت ، ففي موكب صفر الحزين التقليدي ، تزدحم الشوارع والحواري والبيوت والمساجد ، بأضواء المصابيح النفطية ، وبالتماعات الخناجر والسيوف والبلطات ، والصدور العارية ، وثياب النساء السوداء ، ويقف الضاحكون الى جانب الباكين ، وينتشر الشحاذون بطرق ملفتة للنظر حقا ، وربما تتحول الشحاذة الى مأثرة مكرمة ومأثرة اجتماعية ما دامت ترتفق بالغفران واذلال النفس ، وعادة فان المدينة في شهر صفر تستورد ، دون ارادة منها ، أعدادا غفيرة من هؤلاء ، يأتون من مدن وبلدان قريبة وبعيدة ، يفترشون الازبال على الارصفة ، أو يتكدسون على الشاطيء الشرقي للنهر ، دون أن يجرأوا على الذهاب الى الضفة الغربية ، حيث يقع ضريح الم ، الا في الموكب التقليدي . وكان هذا التجمع الغريب لا يثير أية سخرية لدى وليد الاحمد ، كان ينظر اليهم ويقول متألما : سيعرف هؤلاء ذات يوم معنى أغلالهم غير المنظورة . ولكن اذا كان هؤلاء الغرباء يمدون أيديهم ويطلبون قطع نقد صغيرة أو هدايا عينية ، ولا يتورعون عن تناول فضلات الطعام ، فان جمهور مدينة « لام » الوطني ، من الاسر الموسرة وذوي الدخل المحدود أو ذوي العوز والفقراء ، يمدون أيديهم بطريقة مختلفة : انهم يشعرون بالعوز ، في شهر صفر بالذات ، فيتجولون في الازقة والشوارع ، من حارة الى حارة ، حتى ساعة متأخرة من الليل، طيلة الاحتفال السنوي الذي يستمر عشرة أيام، يبكون ويستعيدون أحداث غزوات سابقة ، يروون حكايات غريبة وخرافية ، ويجلس الغني لصق الفقير يستمعون الى محدثي السيرة . حتى رجال دائرة الاستعلامات الوطنية يظهرون في هذه المناسبة ، فيرتدون المعاطف الطويلة ، حيث الاسلحة تخفى بعناية ، وينسابون بين صفوف البكاء والندب والعويل ولطم الصدور ، لكنهم يظلون في حدود مهمتهم الاولى والاخيرة : الاغتياب المتواصل لكل مواطن وشحاذ وغريب . وفي آخر الليل ، عندما يعودون الى

مركز عملهم ، المحاط بالغموض والالغاز والحراسة المشددة ، يهرعون الى الأضابير ويدونون بدقة ودراية بالغتين ، كل ما لاحظوه وسمعوه ، لتقوم مجموعة ثانية فيما بعد ، بتقديم ملخص كامل بالمعلومات اليومية ، الى المسؤول الاول في الدائرة ، الذي لم يره أي من مواطني المدينة ، فيكتفي بمعاينتها في الغالب ، أو يهمش ملاحظات قصيرة على صفحات منه . ان دائرة الاستعلامات الوطنية ، في شهر صفر من كل سنة ، لا تعرف مقدما ماذا سيحدث . ورغم أن رئيسها المتكتم على شخصه شغوف بنظرية الاحتمالات ، يفاجأ جميع العاملين فيها بازدياد وكثرة الشحاذين عن السنة السابقة ، في حين يمتد بحر الصراخ والعياط والعويل والبكاء واللطم والندب والاضواء والشحاذين والامتزاج النفسي بين الافراد ، طيلة الايام العشرة ، وبعد ذلك تعود المدينة الى هدوئها التقليدي ومراسيمها الحياتية اليومية .

وكنت لا أعاين هذه المناسبة الا في صياغتها النفسية المعلنة ، فأقول اوليد الاحمد : تستطيع أن تتكلم عن تغيير نمط عيش أبناء هذه المدينة . ان الكلام سهل ومريح . انت تريد العودة الى الحقيقة الاولى لانسان مدينة (لام) : العدالة ضمن المشاعية ، بيد أني أرى ان لا فائدة ، فان بناء القرون الطويلة، وسير الدهر المتصل ، لا يمكن أن يتيح التغيير الذي تنشده بمراسيم اشتراعية . ان المدينة تكتشف سجنها الآن ، في هذا الطقس عندما تمارسه، باعتباره صياغة جديدة للحرية . اننا غالبا ما نلجأ الى الماضي لانه التعويض الممكن عن الحرية المفقودة في الوقت الحاضر ، وأنا لا استطيع أن أتحدث عن الحرية دون أن أتذكر السجن أو اقترب منه، وربما يستطيع والدك تقديم تفسير آخر فيقول : هذه فلسفة أرضية ، تكونت بفعل العوامل الارضية ذاتها ، لان الخطأ والصواب ليسا نتاج المجتمع الطبقي وحده ، وسيظل وليد يحلم بمساواة أرضية غير مؤكدة ان لم أقل انها وهم ، وكما ترى فان في ما يقوله أبوك شيء من الصحة ، ومن يدري ، فلعلنا في هذا الطقس السنوي نكون بين الحرية والسجن ، دون القدرة على معرفة الاختيار الضروري .

غير أن وليد يحاول أن يعلمني بانني حالم : انت كاتب تستطيع احداث تراصف جميل بين كلمة وأخرى ، مثلما يستطيع رسام ماهر أن يوجد علاقة من حسن جوار بين لون ولون ليكتمل بعد ذلك شيء تسمونه اللوحة الفنية ، ليست هذه هي افكاري بالضرورة ، ولكن الامثلة قد تكون نافعة ، ان المدينة أية مدينة، كما هي حال مدينتنا، حيوان ارضي افتقد البراءة . وهذا أمر يحدث خارجك رغم اتصاله بك في أكثر من وشيجة ظاهرة ومستورة ، فكل شيء يكبر سيكون على حساب شيء عداه ، والمدينة مؤسسة تضم عدة مؤسسات تبدأ بالفرد والعائلة وتنتهي بالدولة ، وباستمرار ، هناك صراع بين هذه المؤسسات ، ونمو عمودي وأفقي في مرافقها ، والحقيقة تكون مرادفة لهذا

النمو الذي يميل الى الانقسام والتبلور ، حتى يصل صيغتــه كما نــراه في مدينتنا ، ان الجذر الاول للعلاقات خلقه الصراع ، وأنت ــ وكذلك أنا ــ لا نستطيع نكران هذه الحقيقة ، واذا ما تطور هذا الشكل الاولي للعلاقات ، فانه سيفرخ أدواته التي انتهت الى الدائرة الوطنية للاستعلامات . هذه هي قصة المدن ، نمو وموت ، وحبل متواصل ، والحقيقة ذات وجهين .

ورأيت وجهه في نصف القمر الباهت ، فقد ابتعدنا عن مجموعات بشرية جاء تراكضة من أحد أطراف المدينة ، يصاحبها عويــل وزعيق وضربــات صنوج ، حتى اذا ما انتهينا الى ساحة ترابية كانت كانت منعرجاتها تخلق بركا من أضواء صفراء باهتة وسوداء كامدة ، استدار نحوي وقال بحــدة : الخلاص في تحطيم المجتمع الطبقي . ألا تعرف ما أريد ، ان الله ــ اذا كان عادلا حقا ــ سيقف معي فيما أريده . وافتكرت مع نفسي وتساءلت : ماذا يريد هذا النبي الارضي الصغير ؟ غير أنه تراجع في الحال عن حدته وقال لــي : مشكلتي أنني مهووس بالحرية .

ولا أدري لماذا تصورته ــ في تلك اللحظة ذاتها ــ يقرأ في كتاب مفتوح . ان ما تحدث به منطقي ، بل جميل حقا ، بيد أنني عجبت له كيف يفكر بتلك الطريقة وهو الذي جاء من صلب عائلة (الم) . ان بيت والده من أكبر بيوت المدينة ، وكلمته تسمع حتى في أروقة ودهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية . لقد عاش بيسر ورفاهية على خلاف وخلاف أقرانه . ثم اتيحت له تلك الفرصة التي ما كانت تتم الا بواسطة الموافقة الكاملة لكبار المسؤولين في دائــرة الاستعلامات الوطنية : مغادرة مدينة لام الى الخارج . قالوا : ذهب يطلب العلم . وقال والده : يكون الله في عون وليد .. ذهب ليعــود لنــا بالخيــر والطمانينة ، غير أنه عندما عاد ، بعد خمس سنوات ، لم يوافق على العمل في اية وظيفة . لقد رفض أن يكون حاكم البنك الوحيد في المدينة ، واستنكف أن يرى نفسه وسط مجموعة من أبناء الاسر الغنية في ثكنة المدينة . ومع ذلك كنت أحس به ميلا للعمل ، وأخبرني ذات يوم : قد أوافق اذا ما عرضوا على تدريس مادة التاريخ في المدرسة الدينية العليا ، ثم عاد وأكد : مادة التاريخ فقط . ومع التدريس ابتدأت مشكلته مع دائرة الاستعلامات الوطنية ، فقــد كان يقول لطلابه : ليس هذا تاريخنا ، انه تاريخ الجباة وكبــار القضــاة والعسس وأصحاب البريد وأدباء السلاطين وقصف الموالي وموبقات رجــال الحكم . وكانت تلك هي المنطقة المحرمة التــي لا تتهــاون فيهــا دائــرة الاستعلامات الوطنية مطلقا .

وكنت اعجب بهذا الذي يقوله ، وربما وافقته احيانا ، على أنني فــي أحايين أخرى كنت أخبره : انت تنتقم من وضعك بأكمله ، ولربما تمتلك ذخيرة كبيرة من اضمار العداوة لابيك . ان ما تقوله ينطوي على نزعة تدميرية

هائلة . وكان يفرح لما أطرحه عليه ولا يغضب على عكس ما كان يفعله مع الآخرين . كان يقول لي : لا بأس ، انت متعلم والحوار معك غير مضر ، ثم انك ستجد نفسك الى جانبي وفي خطي ، فهم سيجبرونك على ذلك . وبعد سنوات ، عندما أخذ يجاهر بآرائه علنا ، عرفت أنه عول علي كثيرا ، فقد عمل مع عقله على تجنيدي في خليته الاولى .

قال لي بطريقته الهادئة التي لم تكن تفارقه : أرجو أن تلقاني في كوخنا، عند شريعة النهر . وعندما نقرت على الباب ودخلت الكوخ توقفت مندهشا أمام سالمة وشخص بلباس الجندية ، بينما كان وليد الاحمد يقتعد حصيرا من سعف النخيل . ابتسم في وجهي وتاملني كما لو كان يلقنني بداية الاسرار ، وقال : كل عمل يبدأ بسيطا ليكون مركبا فيما بعد ، محمد ابتدأ فردا ، واختار خديجة ثم عليا ، ونظر الى سالمة ، فـردت نظرته هادئة مستريحة ، بعينين نجلاوين ، على أنني فهمت اشارته في الحال .

كان بين يديه كتاب مغلف بجلد أسود : لا قانون ثابت لدينا ، لدينا الحياة وانجازاتها . ثم تراجع الى الخلف وأسند ظهره الى جدار الكوخ ، فرأيته وسيما ، كانت ملابسه أنيقة وبسيطة ، واصابع كفيه ناعمة بيضاء وطويلة ، وأظافره قصت بذوق وبردت بعناية ، وكان شعر راسه يتدلى ناعما على جبهة ضيقة ، تليها عينان سوداوان ، وفم صغير دقيق الشفتين ، وذقن مدببة . وكان في مجلسه أمامي يبدو مثل صقر ارتاح بعد طيران طويل وما يزال يبحث عن طريدته .. قال :

ـ تنقلب المعادلة

قلت :

ـ أية معادلة ؟

ـ معادلة هذه المدينة الناقصة .

كانت سالمة ترمقه بنظرات متفحصة بين آونة وأخرى دون أن تتفوه بكلمة ، رغم أنها اتخذت هيأة التلميذ المطيع . بينما كان الجندي يبدو أقرب الى الضيق منه الى المشاركة ، ربما لانه استغرب وجودي بينهم . استمر وليد يقول :

ـ الحقيقة في هذه المدينة مقلوبة على رأسها .

فعلق الجندي متحمسا :

ـ وسنعيدها لتقف على رجليها الى الابد

تضايقت من تعليق الجندي ولم أبد ما يدل على ضيقي ، فعاد وليد الى الحديث مؤكدا :

ـ هذا عين الصواب ولكن كيف ؟

مد الجندي رقبته الطويلة نحو وليد ، وبنفس الحماسة تساءل :

ـ نعـم . مـا العمـل ؟

ومنذ الآن شطبت على الجندي . ولاحظت بأن وليد الاحمد يداري غضبا مخزونا في سره ، فها هو يريد أن يطلعني على خيرة من اصطفاهم ليفاجأ بهذا الجندي المتحمس ، فأكد مرة ثانية :

ـ الحماسية جيدة .. ولكن من الضروري تهذيبها .

ارتحت في سري لما قاله ، على الاقل لانه لجم الجندي بأسلوب رقيق لا يخلو من العنف ، لكن الجندي الذي رأى عيني وليد تلومانه ، ارتج عليه الامر . وفكرت ، ان امعاءه الآن تتلوى في داخله ، ثم أردت أن أقول كلاما لاقطع الصمت الذي ساد برهة ، غير أني عدلت في الحال ، بينما ظل وليد يرى الى سالمة ، وكأنه يستعجلها في الكلام .

رفعت اليه عينين نجلاوين وقالت كأنها تتحدى شيئا سريا ما يـزال يطويه وليد الاحمد في مكان ما من عقله :

ـ نعم ، ما العمل ؟ لنبدأ بأنفسنا .. أنفسنا نحن .. طريقنا فيما أرى ، هو طريق الانقلاب على النفس .

وسكتت فجأة ، ونظرت الي ، ثم انتبهت الى ما سيقوله وليد الاحمد ، وكأنها كانت تعرف مسبقا ماذا سيقول . ومن انطباق شفتيه بتلـك القـوة عرفت أنه لم يرتح كثيرا لما قالته سالمة ، فقد كانت في هذه النقطة بالذات تتقاطع مع الخيوط الجوهرية في كل أفكاره . ثم انها ، مع ابتسامـة خفيفـة ، استطـردت :

ـ لا شك ان وليد يوافقني في أن مدينتنا مقسمة ومجزأة . والسبب الجوهري في هذا كله يعود الى ابتعادها عن قيم جدها الكبير (السم) . ولا أشك أيضا في أن كل واحد منا هو مدينة لام مصغرة . ومتى ما ابتدأنا في فحص النفس ، ووضعنا أصابعنا على مواطن الخلل فيها ، استطعنا أن نتقدم خطوة أولية على طريق تحرير المدينة وتوحيد أهلها .

غير أن الجندي قاطعها متهـورا :

ـ هـذا كـلام مثـالـي ؟

نظر اليه وليد الاحمد شزرا . وكدت أراه يقدم اليه ويأمره بترك المكان ، لكنه نثر علائم البشر على تقاطيع وجهه وأرخى ذراعيه ، وتحدث بصوت خافت كأنما كان يؤكد أفكاره لنفسه :

ـ هناك بعض وجاهة في رأي سالمة ، فالنفس ، ربما ، تعبير تجريدي . لا ، ليست مثالية ، هناك الموضوعي ، أولا وقبل كل شيء ، وكما يؤكـده التحقق المادي في الكون والمجتمع ، ثم يأتي بعد ذلك دور الذات . أنا أفرق بين الذات والنفس . الذات هي بداية الطريق الى الموضوعي ، اما النفس فهناك من يقول عنها انهـا لـوامـة .

وحدج سالمة بنظرة خاصة وقال :

ـ قد يكون هذا صحيحا من وجهة نظر أخرى ، لكن السوء يوجد في هذا الانقسام الاجتماعي . لا بد أن نعرف هذا جيدا . ان نفس سالمة خيرة جدا ، لذلك لا داعي للانقلاب عليها، ثم ان الضباط ليسوا هم الجنود.

رأيت الجندي يبتسم . بينما بقيت سالمة تنظر اليه في ابتسامة محايدة . كانت تعرف أفكاره مقدما ، وكان بامكانها أن تقول شيئا مضافا . وفعلا قالت :

ـ الانقسام الاجتماعي موجود في مدينتنا . وأنا لا أنكر الموضوعي ولا أغلب الذاتي عليه . انني بدقة أقول : ان تكوين مدينة لام تكوين تاريخي متميز ، انها تمتد من هنا حتى الكوفة والحجاز وسورية ومصر وتطوان .. وهذه المدن متشابهة في كثير من نواحي الاذلال والعسف والاضطهاد ، انها تواجه بالامحاق الحضاري ، لذلك يبدو من الضروري ربط الانقسام الاجتماعي فيها بشيء آخر ، ربما أسميه : الصياغات المتناظرة بين لام وبقية المدن الشبيهة بها .

سكتت فجأة ، كما ابتدأت فجأة ، وتغضن وجه الجندي ، في حين كنت مأخوذا بطلاقتها ، لقد عبرت بعفوية ودقة عما كنا أريد قوله ، وكان وليد الاحمد يراقبها الآن كما لو أنه سيعلن بعد قليل خلافه معها ، غير أنها ، وهي تنظر الينا جميعا بحياء ، عرفت أنها قطعت آخر الخيوط بينها وبين ملكة ، وقلت في ذاتي : ها هي سالمة تضع حدا فاصلا بين طفولتها وصباها في ذلك البيت الذي لا تطفأ أنواره حتى الصباح ، انها تتفاهم مع وليد الاحمد بصيغة الاختلاف معه . لقد عاشت مع ملكة فترة طفولتها ، ولم يقل أحد انها ابنتها ، وعندما جاء بها أحمد العبد الله الى بيتة كانت تعيش مع وليد الاحمد في البيت ذاته غير أنه من المستحيل كتمان مشاعر العاطفة ، ولم أكن لاشك في أن وليد الاحمد معجب بها .

وكانت تتفحصني في تلك الآونة . لقد ركزت على وجها جميلا مصنوعا بعناية فائقة ، كانت ترتدي ثوبا واحدا وتحيط رقبتها بسلسلة فضية ، وكان صدرها عاجيا ويكاد يلمع في ضوء الكوخ الخافت ، وعقصت شعرها في ضفيرة واحدة الى الخلف ، وكانت هناك حمرة خفيفة تشوب خديها ، ربما كان هذا بفعل خجلها أو احتدامها المستديم ، أو لانها شعرت بأنني أتملاها بالطريقة التي تروقني ، ولم يكن الجندي يدري الذى يدور في قلبي ، كما أن وليد الاحمد غرق في تأملاته ، فخاطبت روحي مفكرا : « هل أنا أحب سالمة ؟ » وكان الرجل يجيب على أفكاري كما لو أنه عرف سؤالي في الحال ، كانت رائحة ما ، تشبه رائحة النوشادر والعفن تفوح منه ، وثمة مناطق حمراء عند

الرقبة ، قرب الابطين ، وفي مآقي العينين ، وكان وجهه المغطى بغلاف شفاف يشبه الزجاج الا انه معتم قليلا أو مضبب ، يظهر عينين مدورتين واسعتين ، وفما كبير الشفتين مرطبتين ، وأنفا بعد الحاجبين المحلوقين ، ليعلو قليلا قليلا ، وينتصب مثل خوخة تالفة فوق شفته العليا التي كانت ملساء أو محروقة .

كان متوسط الطول ، يغطي جسده بملابس شبيهة بالمطاط .. كان لا يتكلم ، مع أن نظراته تطلق أوامر لا تراجع فيها ، وكان الرشاش الاوتوماتيكي معلقا بكتفه بحزام جلدي ، وكفه اليسرى تقبض على سبطانة سلاحه ، وسبابة كفه اليمنى تلامس الزناد .

قالت عيناه : ارتصفوا

ارتصفنا . وقف أحمد العبد الله قبل الشاب ذي التاسعة عشرة ، فأمرته عينا الرجل أن يقف بين الجنديين ، وذهبت أنا الى الجانب الايسر ، الجانب الاخير ، ووقف العريف في مقدمة الصف يرتجف .

ولاحظت ارتجافا في شفة الرجل السفلى . كان يقف على مسافة خمسة أمتار منا ، في نقطة تماس نصفي الصف ، ومن هذا البعد حاولت أن أدقق فيه، فرأيت شعرا أسود قرب أذنيه ، كان شعرا قصيرا مسترسلا ولامعا . ولم نكن نعلم متى يضغط على الزناد وينتهي كل شيء .

رباغتني بنظرة من عينيه ، فابتعدت الى اليسار حتى لامست الجدار الايسر ، ثم أرسل نظراته الى بقية من في الصف ، فتحرك أحمد العبد الله باتجاه الجدار الايمن . كنا متقابلين ، وكان بامكاني أن أرى اللحظة جريدة سعف النخيل ، قرب قدمي ، وقد فقدت حيويتها في أن تكون سلاحا أو منشة لذباب ، ملهمة حد المبالغة ، لكنها وضعتني أمام ذلك الحضور الوبيل الذي لا يمكن أن يستشعره الا من يساق الى الاعدام ويقتل في الحال ، اليأس من النجدة ، وانتظار الآتي بصيغة القبول به . وتهيأ لي انني سمعت الجرس في داخلي يرد . ان هذه اللحظة وحدها تكفيني لادراك الصدع الذي يحيط عالمي . انني رجل أكاد أفتقد العداوة ، وكان شعوري بالاخوة هو الخيط الذي يربطني بالدين حولي قبل ان أصل هذا المكان ، غير أني كنت على وفاق مع نفسي حتى عندما أصبح بعد لحظات وجودا نافلا بدون قبر ، وهذا هو الذي اكسبني قدرة فحص يأسي : ان الاموات يتحدثون ، ان الجسد أكبر من أن تغادره خصائصه بعد رشه الاطلاقات ، وان بعض الزهور لتستحيي من الشمس أحيانا ، لكن عودة أحزمة الضوء اليها ترفع عنها نقاب الحزن ، فامتثلت الى قدري في أنني سأقبل الموت لانه لا خيار لي في الحياة ، في هذه اللحظة ، الا أن أموت . وللتو برقت في ذهني هذه الالماحة : ان الموت انطفاء مؤقت . انه الإحالة الثانية للحياة البشرية الارضية في صورة غير بشرية ولا أرضية ،

انه النوم المؤكد في حالة من الحلم الدائم ، لذلك أيقنت أن أحمد العبدالله يجرب الآن مرونة اعضائه في تقبل الحياة الجديدة ، وشعرت أنني اقترب منه اكثر من أي وقت مضى .

كان أحمد العبدالله بقامته المديدة التي تشي عن ثوب مخرق ، في غياب عن هذا المشهد الذي لا يعنيه ، واقفا وظهره الى الحائط ، مسبلا ذراعيه عن هدوء وراحة بال ، الا لمعان في عينيه يصل درجة الاتقاد ، ولانني داومت النظر الى تلك العينين المتقدتين سمعته يقول لي مفكرا : هذه اللحظة ، كم سيكون شقاؤنا قاسيا اذا لم نعرها اهتمامنا .

قلت : انت تتحدث عن قضية . تعرف المدينة وبيت ملكة ، وأحلام وليد وغمرض سالمة ، أما أنا فقد كنتم مراقبا ، والآن أنا مراقب ، وبعد الآن ماذا سيبقى لي ؟ . « لا شيء » أدركت ذلك من نظرة خاطفة أرسلها نحوي الرجل المسلح ، في حين كانت جريدة سعف النخيل ، مطروحة فوق أرض الخربة المغطاة بالطين وروث الحيوانات، ثم نظرت الى أحمد العبدالله فوجدته يصلي ، أو يمارس رسما قريبا من أن يكون صلاة : كان يستدعي آباءه الاولين ، آباءه الذين تحولوا الى طين وهواء وماء وأصوات سرية في سوارت مياه النهر ورطب في عذوق النخل ، آباءه الذين نهضوا من الصحراء في ليلة مقمرة ، وخلفوا مضاربهم في ذلك الاوقيانوس الرملي ، وجاءوا الى هذه المدينة وبنوها طابوقة فوق طابوقة ، وهو يراهم يقبلون على خيولهم المطهمة ، يرفعون الغدادير ، وينحدرن على أعراف الجياد التي أضناها لفح الرمل ، ثم يتوقفون قرب النهر بكامل ركبهم ، ويقف كبيرهم ، دون أن يرى نجمة الصباح ، فقد كان (الم) كفيفا ، فيرفع يديه الى الاعلى وينادي : باسمك اللهم ، ثم يخر ساجدا على الارض . وكان أحمد العبدالله ينظر الى الارض الآن ، وجسده يتموج خفيفا هادئا ، كجسد حية أسطورية تنهض من سبات دهري ، تتخلله رفسات صغيرة من أدق مكان في أظفر ابهامه حتى أدق شعرة في رموش عينيه . صلاة : الحياة اذ تبدأ تتكون . صلاة : الحياة اذ تقبل الانطفاء وتعاند الانطفاء . صلاة : الاستغراق في هذا اليأس الكامل دون أن تكون قادرا على التقاط شهقة قصيرة ، ولكنه التشبث في تلك اللحظة بكونها حياة لا ترتضي القسر . صلاة : كنظرته الى ملكة حين كانت غرغرتها الاخيرة ، الاعلان الاكثر تأكيدا على طي قيدها في السجلات الرسمية . كانت ممددة على سرير حديدي ، ظهر الصدأ على قوائمه وحافاته ، فوق حشوة قطنية منخسفة في كثير من مواضعها ، تتوسد رأسها وسادة متسخة التصق عليها شعرها المفلفل ، وكانت عيناها متجهتين الى سقف الغرفة الاجرد الا من نتوءات بارزة هي بقايا جذع نخلة شطر الى أربعة أشطر ، وكالعادة كان البيت مضاء الا أنه خال تماما من الصخب والضجيج السابق . وعندما دلفت في

الدرابزون الذي يؤدي الى غرفتها شاهدت احمد العبد الله يجلس قريبا من راسها ويقطر لها ماء بملعقة شاي صغيرة ، كان جسده يرتعش ، وكنت أفكر أنه يرى صوته ، وكانت ملكة منفوخة البطن ، وبان ثدياها من تحت دشداشتها مثل بطيختين حائلتين ولا تستطيع أن تقول كلاما مفهوما ، انها تهمهم وتلغو ، وكان لسانها يلوب بطيئا داخل فمها المتيبس الشفتين ، وحاولت ازاء نظرات أحمد العبدالله ، بعينين تغالبان الدمع ، أن ترفع احد ذراعيها فلم تستطع ، واكتفت برفع سبابة كفها اليمنى قليلا الى الاعلى ، فأشارت الى السقف الاجرد ، ثم عادت السبابة الى وضعها الاول المرتخي بارتجافة واضحة ، نظر احمد العبدالله الى الاعلى فلم يجد الا السقف الاجرد فوق رأسه ، وفي أحد أركانه ثمة « أبو بريص » يخرج لسانه الرفيع خارج فمه بسرعة ، وينظر بعينين محتقنتين الى ذبابة منزل كبيرة في وضع التجمد، بانت ابتسامة مرهقة على فمه ، وظرت عليه سمات الانشراح حتى خلت انه سيطلق صوتا ضاحا ، لكن « ملكة » لم تترك لنا فرصة تبادل حديث سريع لنكسر الصمت الذي يحيطنا ، فقد رفعت رأسها عن الوسادة قليلا ، فبان اصفرار وجهها في ضوء المصباح الشاحب ، مثل برتقالة تالفة ومتروكة ، كان ينز ماء ، على شكل بلورات دقيقة عند الانف والجبُهة ، ثم اندفع سيل من ماء أسود من داخل جوفها الى خارج فمها . كان كثيفا كالدبس ، فسال على جانبي فمها واستقر قسم منه على الوسادة الزرقاء المتسخة ببقع حمراء وسوداء وصفراء ، وعادت تنظر الى السقف ، حيث أبو ابريص تمكن الآن من القبض على الذبابة المنزلية الكبيرة ، وكأنها تريد أن تقول شيئا ما ، وعند ذلك أدنى أحمد العبدالله أذنيه من فمها . كانت تحرك شفتين مصبوغتين بقيء أسود كثيف ، وكان وجه أحمد العبدالله يبدو محتقنا في تلك اللحظة ، حتى انني تصورته سيعيط باعلى صوته ، غير انه قال بصوت خافت : أنا الآثم يا ملكة ، ثم رفع رأسه الي فشاهدت عينيه مغرورقتين بالدمع وقال : مـاتـت .

كنت بين مصدق ومكذب ، فقد كانت عيناها مفتوحتين ، وفمها مفتوحا، ولسانها يكاد يبرز من شفتيها الملطختين بالقيء الاسود ، وفي السقف كان أبو بريص يبتلع الذبابة المنزلية الكبيرة . واكتشفت انني واحمد العبدالله وحيدان مع ملكة التي كانت كالنائمة تماما وهذا الصمت الذي سينطق بقوته وجبروته .

لم أكن أصدق الذى جرى ، فقد كنت أؤكد لوليد الاحمد أن ملكة لـن تموت . صحيح أنها في السنوات الثلاث الاخيرة هجرت من كل فتياتها ، لكنها كانت تبدو سعيدة . فلم تترك زينتها يوما واحدا ، واستمرت تجلس عند دكة باب بيتها المضاء باستمرار ساعات طويلة في كل مساء ترقب المارة ،

وتتلهى برسم خطوط ودوائر بعصاها الخيزران على التراب ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بيد أن مرورا عابرا لاحمد العبد الله من أمامها كان يجعلها أكثر سعادة . انها تستوقفه أحيانا ، فيجلس قريبا منها ، فوق الارض المتربة ، ويطيل الانصات اليها ، وكان صوتها من الضعف والوهن بحيث يجعل أحمد العبدالله يدنو منها كثيرا . وفي احدى جلساته عندها لم يسعفها صوتها كثيرا فدنا منها أحمد العبدالله حتى كادا يتشابكان ، واذ ذاك رمت برأسها علــى كتفه وطفقت تنشج ، وسمعها أحد المارة تقول : كل شيء قبض الريح .

وعندما غادرت مهجعها ، لم يبق معها الا أحمد العبدالله والصمت وأبو بريص ، بينما تلفحني ريح حارة في الازقة التي هومت فيها . وتذكرت مــا قاله وليد الاحمد : هذه هي القاعدة : نولد لننمو ونكبر ثم نهرم ونموت . وشعرت بالتقزز من هذه الفكرة ، فقلت لوليد الاحمد : انت .. انت تقول هذه البشاعة ، ولم أقل له ان عدونا الوحيد هو الزمن ، وانه يختار لحظته ، كما يحددها بعيدا عنا ، ثم ينهمر بكل ثقله وجبروته على كــل شيء . وكــان الرصاص في الخربة ينهمر علينا من كل الجهات . كان الرجل المسلح يمسك مدفعه الرشاش بيده اليمنى ، ويرسم دوائر في الهواء ، ولم نكن لنعرف في أي جسد ستستقر احدى رصاصاته ، انه يرفع المدفع الصغير الاسود المدهون حتى ليلتمع ، الى الاعلى ، ويردد صوتا مبهما :« هذا قدركم » لم يكن صوتا بمعنى الهمهمة ، بل شيئا لا يمكن وصفه ، فهو بعد أن رنق عينيه أطلق تلك الاصوات . هل كان يترنم ؟ ، انه بالتأكيد يحيا أوج عاطفته ، في هذا الموت البطيء الذي يزحف ابتداء منه وانتهاء بنا . لقد كان يقول شيئا ما ، أشبه بتقارير موت لمن لا نراهم ، صوت كصوت من يستغرق في حالة تعبد ، مثل صوت الذي يتهدج ، مقرورا ، ترحا ، بهذا الاحتفاء الكامل للحياة في حركة صغيرة ، ليست عابرة ، لكنها التعبير عن الموت ، أو الموت في حركة . ولذلك فانه كان يتموج ، خفيفا وهادئا ، عندما وجه ماسورة المدفع الرشاش ، بدءا من الحيطان الى الاعلى ، الى الاسفل ، وكنت أتنفس بصعوبة ، وأتحسس جفافا في لهاتي وحلقي ، وكان لساني مثل عظمــة مهملــة ، جافــة وصلــدة ومصعوقــة .

وتوقف انهمار الرصاص ، أبصرت جسدي مسندا الى الجدار الايسر ، متشنجا ومتصلبا ، ذراعي على يمين ويسار الجدار ، وكان احمــد العبدالله مصابا في يده اليمنى ، بيد أنه لبث في وقفته ، بينما برك العريف على ركبتيه متأوها ، وكان الجنديان جثتين هامدتين . أما الجندي ذو التاسعة عشــرة فتقدم نحو الرجل المسلح صارخا : « من انت .. من انت ؟ » كان صوته فتيا وملتاعا ، خالطته الهبة ، ونظراته مثبتة في ماسورة المدفع الرشاش ، بينما كان الرجل المسلح ينظر اليه دون اكتراث ، ويتحرك خفيفا وهادئا مثل حية

أسطورية استيقظت للتو من سباتها الشتوي ، وصرخ الجندي الشاب مرة أخرى : « من أنت ؟ » . وفي عينيه المفتوحتين حد البأس والرعب ، كانت صورتي واضحة : آخر امارات الانكراب والخوف والبأس .

تراخت ذراع الرجل المسلح اليمنى ، وجسده الصغير الممتلىء ، استوى الآن مثل فقاعة بيضاء ضخمة ، وركل رأس الجندي الشاب واستدار الى الخلف بعد أن نظر الي والى أحمد العبدالله فتيقنت أنه قال لنا « انتما متما أيضا »

فرض الموت حضوره الوبيل ، ليس لان الجثث الاربع حاضرة بما في الموت ذاته من انهمار وصمت ، بل لان الدخان كان يتمطى في جو الخربة ، وأصوات الاطلاقات النارية ما تزال تصل من الخرائب المجاورة ، والصوت الرقيق الناعم والدقيق حد القتل يامر : استسلموا . ولم أكن سعيدا في عدم موتي ، كما أنني كنت مندهشا من كل هذا الذي حدث .

حسبت الامر مفارقة ، أو حلما كابوسيا ، غير أن الفجيعة كانت تعيد تركيب معنى المفارقة بشكل آخر ، والاحلام ، حتى الكوابيس منها ، كانت ممنوعة في هذا المكان ثم لاحظت جسد أحمد العبدالله يتراخى ليجلس على الارض ، ويلتقط جريدة سعف النخيل ويقبض عليها بيده اليمنى . « ماذا يريد ؟ » ولم أكن بحاجة الى أية اجابة ، فقد كان أمامي يشدد من قبضته على السعفة المجرودة ، ثم قالت لي نظراته « باتت الحياة زائدة بعد فراق الوجوه التي الفناها » ، ولم يكن وليد الاحمد معنا ، فقد وضعه رجال الاستعلامات الوطنية في مكان مجهول . وحدها سالمة ، كانت تستكين في تلك اللحظة . ورأيت عينيها تطلان علي من سماوة الخربة ، كانت حزينة ودامية بشداشتها الحمراء المشدودة على جسدها الناحل الفتي . وشعر رأسها يتطاير في الريح ، لم تكن تتكلم ، كانت تنظر الى أحمد العبدالله دون أية اشارة ، وتبادلني نظرات غاضبة . وسمعت أحمد العبدالله يقول بصوت خافت « يا ربي .. يا رب القتلة » . وقلت لنفسي : قد يبرر القتل ، ولكن أية جريمة أشد اجراما من القتل ذاته سيكون التبرير ؟ ويقول وليد الاحمد ، ينبغي أن لا تستغرب ، أرجع الاسود الى جذورها ، أو جذرها الواقعي ، وسترى أنك تستطيع النظر الى الاشياء بصورة صحيحة ، أو أنك ستراها كما ترى وجهك في مرآة صافية ، على أنني ، كنت وما أزال ، أرى ان استجواب القتلة ، واعادة تأليف تاريخ القتلى ، عملية لا تستجلب الطمأنينة . ويقول وليد الاحمد : الطمأنينة قرينة الدعة البورجوازية ، وانك بالاساس لا تمتلك شيئا لتفقده، ولا أحد يستطيع ـ حتى لو امتلك فظاظة رجال دائرة الاستعلامات الوطنية ـ ان يصادر أفكارك وانت تتحدث صامتا أو تفكر وانت صامت . ويقول أحمد العبد الله : : الطمأنينة هي الرذيلة بعينها . وتقول سالمة حين

لا تجد بدا من طرح أفكارها بهذه الجدية : الطمأنينة الى الماضي مغلوطة ، والمستقبل هو الحاضر في اطار التصور ، وانا أعاين نفسي بهذه الصورة ، ولا بد أن تعرف اننا في الحب وحده نضع أنفسنا في ذروة الطمأنينة غير البرجوازية ، ثم نبحث عن الفعل الذي يحمي هذا الحب . كيف نحمي هذا الحب ؟ والحكاية ملخصة أنني أرى تاريخي ، بكل ما انطوى عليه من قسوة وانهماك في الوحشية ، لاننا في النهاية ، لا نمتلك الا هذه الفضيلة . واعتقد أن مدينة (لام) وحدها هي القادرة ، من بين كل المدن ، على أن تتحدث عن الحب بلغة أكثر صفاء ، وكنت اقول ان الكتابة هي الاختراع المستديم ، والابراء المستمر للذاكرة . وفي ذلك المنعطف الخطير الذي لا يدركه كثير ممن يزاولون احتراف الكتابة ، المنعطف الذي يمثله أحمد العبدالله في انجذابه السماوي ـ الارضي . لا بد للكاتب ان يقول كلمته . وهي كلمة تتضمن الحب ، والكتابة حب حتى عند ما يكون على الروائي أن يفرى كل الدمامل في اكثر الجهات سرية من مناطق مدينته ، ويعيد ترتيب الخارطة الجغرافية النفسية لمدينة مثل مدينتنا المنكوبة ، لانه استجواب القتلة واعادة تأليف تاريخ القتلى ، عمل ينطوي على الحب . لكن قتلى مدينتنا لا يتحدثون ، ولا يوجد من يجرؤ على استجوابهم . ثم ان أي حديث جاد يكاد يكون محرما ، بعد أن أخذنا اتجاه السجن رصبحنا رئيس عرفاء السجانة بصبحته اليومية التقليدية : « ولد الفقراء .. مساكين .. كلكم سجانة ومساجين » .

.. وماذا يفعل السجين ؟

لا شيء ، وكل شيء ! وكنت أقول : السجين لا يغادر حريته ، ويرفض أي اجراء لاعطائه حياة مجتزأة في الدقيقة التي يدخل فيها بوابة السجن الرئيسية حيث يكون السور خلفه . وقد يوجد الاعتياد امحاء لاهم ما في الذاكرة من بروزات تقترن بالماضي ، لكن ثمة تشكلا جديدا لا بد أن يحدث ، وهذا ما كان يفزعني ، خصوصا عندما لاحظت التنميط اليومي لحياة السجن ، وكان علي في اليوم الاول أن أكون ضمن ذلك التنميط : الرياضة الصباحية ، العد التصاعدي ، الكوابيس النهارية ، أوقات تناول الطعام ، العلاقات غير المتكافئة ، التحكم بالآخرين من خلف زواغير السور وأبراج المراقبة . التقارير السرية للعملاء ، أو ـ وهذا هو الخطير جدا ـ اكساب السجن صفة المدينة ، وبالنسبة للآخر ، وخارج السجن غالبا . يظل هذا البناء الاصم مصدرا لكثير من الاوهام ، ولربما ـ وهذا ما حدث بعد ذلك ـ تستقر هذه الاوهام في رؤوس كثيرين ، لذلك لا يبدو شيء من غرابة ، عندما نتناول قدح الشاي المر ، في هدأة الليل وهسيس الصمت ، ثم يأتيك صوت مباغت هذه هي خمرة الثوريين ، أما عندما نريد امتصاص الزمن في قراءة ما اتفق ، فان تعليقا

مصنوعا مثل : السجن محطة مؤقتة للتثقيف ، قد يكسب وجهك مسحة من سخرية لاذعة ، مع أنه ينطوي على مخاتلة كبيرة ، وايهام أفظع للذات .

ان تحدي السجين هو الزمن ، أو هكذا خطر لي في السنتين الاوليين ، وكنت أتصور زمني عجينة مائلة ، عجينة من مخاط وقار وطين وأفيون وشذوذ وتمارض وادعاء حب وتفكير مستمر في التخطيط الذهني لجريمة منظمة ، وأنا اتلعبط في طياتها ، دون قدرة على تحديد ماذا يراد مني ، أو ماذا أريد أنا شخصيا . وهكذا اذ كنت أتذكر أيام الخرائب بكل قساوتها ، وذلك الخوف الذي سكنني ، وانا في تلك الزنزانة الطويلة مع خليط من ضعفاء أو نصف أقوياء ، أتمنى أن أعيد خيط الزمن من جديد ، الى الوراء ، الى الوراء ، حتى اصل الى ذلك الصباح الشتوي ، بين الخرائب في المنطقة الغربية ، لاعلن في وجه أحد الغزاة : أيها الجبان .. أقدم ، فتستقر رصاصة عابرة من مدفعه الرشاش تحت ثديي الايسر وأستريح من هذا العناء . غير أن الرصاصة العابرة كانت من البطء الشديد بحيث اني كنت اراها قادمة طيلة تسع سنوات .. دون أن تطال الجزء الايسر من صدري .

وما أزال اعتقد أن ذلك الاحتمال المتوقع للموت ، أو اليأس منه ، لطول المسافة التي تقطعها الرصاصة وكأنها تسير في دائرة كونية لا حدود لها ، هو الذي قدم لي تلك الانتباهة الفريدة ذات يوم : انني استطيع أن أكون حرا اذا ما أردت حريتي ، حتى ولو كان ذلك في السجن ، بل ان فعل الحرية يكسبني تلك الشراسة في قبول البأس ، وكان أحمد العبدالله يراقبني وأنا أضع قدمي في أول هذه الطريق . الا أنه بعد السنة الخامسة ، لم يعد يهتم لاي سؤال أو جواب من ذلك الخليط النافر من الضعفاء وانصاف الاقوياء .

كان يشعل النار فقط ، في مكانه قرب الباب الرئيسي الذي يوصل الى حجرة الادارة ، حيث السور الحجري المتعالي والمتطاول ، يطل على مديات واسعة من رمال تغير مواقعها باستمرار ، وحيوانات دقيقة تهوم ليل نهار ، فوق رمال تصطلي بالحرارة نهارا ، وتبترد ليلا ، حتى إنه في النهار المتلظي يديم أشعال النيران بالعاقول والعوسج وقشور الرمان والرقي والجرائد القديمة وجوارب السجناء المهترئة وملابسهم الداخلية المتروكة ، وغالبا ما كان يشحذ هياج النيران بجريدة سعف النخيل التي لم تفارقه . وفي ذلك الحين انقطعت عنا أخبار المدينة نهائيا . لكننا عرفنا بعد ذلك أن بيوتها ومرافقها قد هدت عن آخرها ، وأجبر الغزاة الاطفل والنساء على الرحيل فورا منها الى أية جهة يشاؤون . وفي وهج النيران رأيت أحمد العبدالله يفكر قليلا فعلمت أنه قرأ أفكاري . كانت جريدة السعف في يده وقد بان القصر في طولها واضحا وهو يلاعب نيرانه . وعندما أدار رأسه نحوي أدركت في الحال أنه يراني ويرى سالمة ووليد والنملة البعيدة المتوحدة خلف السور .

ـ هذه هي الحالة يا سيدي .

أجاب هازا المجرودة في وجهي :

ـ أية حالة تعني ، ثم انني لست سيدك ؟

قلت متراصبا

ـ مدينة لام اندثرت

قال مبتسما بصوت يشبه البكـاء

ـ مدينة لام لن تندثر ، انها طحلبية

ـ ماذا تقـول ؟

أجـاب :

ـ هـرب وليـد مـن مكمنـه

ثم عاد الى نيرانه يلاعبها ، وخاطبني بصوت خفيض :

ـ لم تكن تعرف وليدا جيدا ، انه مثل طحلبة ، يتوزع الامكنة التي يريدها ، أو ان الامكنة تدعوه اليهـا .

ـ وسـالمـة ؟

نطقت اسمها دون ارادة مني . فعاينني من أسفل قدمي حتى رأسي ، ثم ركز بصره على أبعد نقطة في سماء تلك الظهيرة الصحراوية وقال :

ـ كنت أعرف . أنت تحبهـا .

ـ نعـم .

واستطرد بفـرح مفـاجيء :

ـ لو تدري ، انها تحبك .

كان ذلك مفاجأة لي . كنت في داخلي أضمر لها عاطفة خاصة ، نعم كنت أحبها وما أزال كذلك ، ان الامان المطلق يحضر معها اذ القاها في زقاق من أزقة المدينـة ، أو تقف أمام بيت والدها ، اما الآن ، فان الامان الذي تحملـه يدخل قلبي كمدية من يترصدني طوال عمري ثم اذ تتيح له غفلتي فرصة أن يدس المدية من تحت ابطي الى القلب مباشرة ، يكون فعله القدري قد وضعني في موقع آخر ، لاقول : ان الشيء المبهم في نفس ذلك الكائن هو الذي دفعه الى اختيار فعله. ربما كنت افهم دوافع القتل عند كثيرين من القتلة. بيد أن تقبل سالمة لقتلها ، بتلك الطريقة الفذة الانسانية والرائعة ، كانت تنسف كل ما تعارف عليه أهل مدينـة « لام » : لقد دخل الى بيت أحمد العبدالله أحد الغزاة فوجدها لوحدها ، وفي الحالَ انفرد بها في حوش البيت واغتصبها ، ثم خرج دون أن يقول كلمة . أما سالمة فقد بقيت في مكانها ساعة أو أكثر ، كما عرفت منها فيما بعد ، تنظر الى السماء ، متكئة الى حائط البيت ، لا تدري ماذا تقول . غير انها ، عندما كانت السماء تحترق ، خرجت الى شوارع المدينة وهي تصرخ : الاطفال ، عليكم بالاطفال . وبعد ذلك كنت في حالات من التمزق

عندما أفكر بذلك الطفل الذي ينمو في بطنها دون أن تعرف أباه لكنها تقبله . وكانت تبسط الموضوع كالآتي : لست مذنبة ، ان القتلة مغتصبون بالضرورة، كما أن الطفل لا علاقة له بكل ذلك الذي جرى ، فكيف اسقطه من رحمي أو أخنقه ؟ لا بد أن أربيه ، هذا هو رأيي . وكان وليد الاحمد لا يطيق حتى الاستماع الى هذه الفكرة ، ولكن لان الذي حدث حدث فعلا ، تصرف وكأن شيئا لم يحدث ، وأخذ يعيد تقييم سالمة بطريقة يختلف فيها معها اختلافا تاما . وقطع أحمد العبدالله صمتي قائلا :

ــ سالمة ، ليست ابنتي !

ــ كيف ؟

ــ هي من صلب ملكة فقط .

ولا أدري كيف وجدت نفسي أعود الى عدة سنوات ماضية لاكتشفها في لحظة قصيرة جدا فرأيتها في مكان لم أكن اعرفه في سنوات السجن ، تقبل على رافعة ذراعيها بينما السماء تعج بطيور النم ، غير ان احمد العبدالله تدخل في صمتي مرة أخرى ..

ــ رأيتها . أليس كذلك ؟

ــ نعم

ــ هذا حسن . لو أنك تستمر على تدريب نفسك ، فستراها معك الى الابد

ــ لا أفهم

ــ بالتأمل

ــ والطفل ؟

ــ ماذا ، هل مات ؟

ــ أنه ثمرة ..

ــ محرمة .. أليس كذلك ؟

ــ لم اكن أقصد هذا

ــ اذن ماذا تقصد ؟

ــ لا شيء ، نعم لا شيء

بقيت انظر اليه ، وقلت في نفسي : انه مع ناره يرانا جميعا ، وليد وسالمة ومدينة الام وما أسميه بمستقبلي المجهول . ثم حرك النار فارتفعت ألسنتها ، ورأيته يمد كفيه بين اللهب ويبتسم

ــ النار .. ألا تحرق جلدك ؟

فقال مغرورق العينين :

ــ يا ابراهيم ما تزال نصف مبصر ، كل شيء حولك يدعوك الى التمعن والابتكار وحياة متعددة ولغات أكثر تعددا ، وانت سادر في تدوين

حيـاة هـذا السجـن .

قلـت :

ـ أكاد افقد ذاكرتي ، فقلت استعين بالتدوين

تساءل :

ـ وقلبـك ؟

ـ تبـا لـه

أربـد وجهـه :

ـ اياك من الغلط . هنا الغلط وحده ، عندما تقيم فاصلا بين عقلك وقلبك ودون أن يكمل استدار برأسه نحو سور السجن ، حيث تفرس في نقطة بداية الـظـل .

كان مبنى السجن مثل انتفاخ هائل ينبعج من ارض شديدة الانخساف ، وكان سوره المربع الذي يحيط بعشر ردهات ، قد كسي بطبقة زلقة من تراب مفخور حد التزأبق ، ويبدو من الانخساف الارضي بشكل نبات الفطر ، ذلك النبات الاملح الذي يميل الى البياض قليلا والمر مثل ثمرة الصبـر . ومـن الرابية الشمالية التي تبعد عن المبنى قرابة ثلاثين ميلا ، يمكن مشاهـدة الدخان الذي يتصاعد من المطبخ مع أول الصباح ، غير أن السجن من الداخل ليس الا أرضا واسعة محاطة بسور مرتفع في حدود خمسة أمتار . وفي ردهاته العشر توزع السجناء أمكنتهم الخاصة : بطانية سوداء ووسادة تبن وملابس وصناديق صغيرة ، وفي كل ردهة يوجد مسؤول يشرف على مسؤولين أصغر منه ، وكان ثمة هيأة غير معروفة العدد تشرف على سير الامـور في داخلـه يخضع اليها السجناء جميعا. وفي كل يوم كنت اسمع عن تأليف لجنة جديدة، فهناك لجنة المطبخ ، ولجنة لشراء المواد الغذائية ، و .. للشعر ، ولجنة للحراسة ، وسادسة للمعلومات ، هذا عدا اللجان غير المعلنة التي أسمع عنها الكثير ولم أعرف مهامها ، حتى انني قلت ذات يوم في نفسي : مدينـة لام تحولت الى سجن ، ثم تيقنت من ذلك الذي قلته مع نفسي بعد فترة ، فقد جاءني أحد السجناء وانتحى بي جانبا قصيا ثم أسر في أذني :

ـ لا تقترب : أحمد العبدالله

سألت مستغربا :

ـ لمـاذا ؟

ـ انـه خطـر

قلـت مغتـاظـا :

ـ ولكنك تعرفَ صلتي به .. انه ..؟

قاطعنـي بحـدة :

ـ هذا غير مهم ، اننا نفكر جديا في مصلحة السجن

سـألـت :

ـ وماذا فعل ليتعارض مع مصلحة السجن ؟

ـ النـار !

ـ ومـاذا بهـا ؟ انهـا نـاره

رد وكأنه يريد انهاء الحديث

ـ لقد أبلغتك رأي المسؤولين ، وانت أدرى بمصلحتك .

وشعرت بالقشعريرة تسري في جميع أوصال بدني ، فلم أكن أرى في نار أحمد العبدالله ما يبعث على القلق ، لقد كان يتلهى بها ، ولم يكن يفكر فـي حرق السجن . ولم ييأس ذلك السجين مني ، فجاء بعد ثلاثة أيام ، وجلسنا في ذات المكان الاول ، وبادرني قائـلا :

ـ أحمـد مـريض

ـ اذن نرسله الى طبيب السجن

ـ لا

ـ ولكنه مريض كمـا تقـول

ضحك وضرب بكفه على فخذي فشعرت بالاشمئزاز ، وتابعت :

ـ انه مريض فعلا ، ألا ترى نحول جسده ؟

ضحـك مـرة أخـرى وقـال :

ـ لم يروضه «المستنقع» لثلاث سنوات فهل تعتقد أن طبيبا سيشفيه ؟

والمستنقع سجن مركب ، فهو مكان ما في السجن ، يعزل فيه السجناء من قبل السجناء أنفسهم، ثم تتخذ صيغ صارمة في التعامل معهم، فلهم أرزاقهم الخاصة ، ولا يقوم بزيارتهم أحد ، ولا تلقى على أحد منهم اية تحية . وغالبا ما تبدأ فكرة المستنقع بسيطة وفردية ثم تتحول تدريجيا الى نظام اخلاقي وسياسي صارم ، وحصة الذي يكون المستنقع مكانه من الكرامة ضئيلة حتى بين زملائه القاطنين معه ، فمواقف الضعف والجبن ، تعاد صياغتها من قبل فريق ذلك المكان ذاته ، يتحول الى عدة مستنقعات . ولان نزلاءه معزولون ، فانهم لا يحضون باحترام حرس السجن . ومن يتجرأ على تحية أحد نزلائه ، فان عقوبات فورية توجه اليه . وعندما التقيت وليد الاحمد فيما بعد ، وأخبرته عن حكاية المستنقع بدا عليه التوتر وقال : هذا اجراء احترازي . لم اتفق معه وقلت : ألا يعيد اليك المستنقع الفكرة البسيطة التي قامت عليهـا دائـرة الاستعلامات الوطنية ؟ . تغافل وتصرف كما لو أنه لم يستمع الي ، فقلت بلهجة أكثر حده : من أنت حتى تصدر قرارا باعدام أحد ؟ فصرخ في متوترا : « ومن قال لهم أن يكونوا ضعفاء ؟ » .

« وليد الاحمد سجين أيضا » تماما كذلك السجين الذي حذرني مـن والده . وعندما عدت الى أحمد العبدالله وناره، كنت أردد مع نفسي « الامن ..؟

اي أمن يريده هذا السجين ؟ » وكان احمد العبدالله يحيم اشعال ناره دون أن يكترث بي ، حتى اذا ما دنوت منه هز جريدة السعف في وجهي وصرخ في « انتهت مدينة لام » كنت اعتقد أنه ينهر السور ، فقد كان خلفي ، وأنا اعاين اللهب دون أن أفطن الى ما كان يرمي اليه ، لذلك هممت ، هممت فقط ، ونظرت اليه . كان الفصل صيفا ، والرمال المتحركة خلف السور ، تعلن عن حضور ليس بحاجة الى تأكيد ، تئز اذ ترتطم ذراتها بصوت العنف الذي يولده اصطدام حركة الرياح اللولبية السريعة ، فرأيت أمامي رجلا يتحصن بعباءة من الوبر ، يداعب نارا متقدة بجريدة من سعف النخيل وهو يقول « ماتت مدينة لام » . ثم واجهني ولوح في وجهي بالسعفة المجرودة زاعقا : « وانت .. ماذا تقول ؟ » .

لو كنت في السنة الاولى ، لاستحضرت جوابا في الحال ، الا أن الزمن كانت له حركة الرمل خارج السور ، حتى اذا ما أمعنت النظر اليه ــ وكان يمر من امامنا فريق الكورال ــ لم امتلك زمام نفسي وأخذت أصرخ في وجهه « يا ابن الم » ان هذا كله هراء .. النار المشتعلة هنا .. النار الموقدة في المطبخ ،، والنار التي تحت أوعية الشاي في الردهات .. والحرارة المحفوظة في الترامس .. وذلك الدفء الخبيء بين الجلد واللحم . وكما لو أنني عتلت عتلا الى الايام الاولى لمدينة لام ، وطفولتي ، وذكريات الخرائب ، وسالمة ووليد ، حاولت أن افتكر هذا الزمن . كان زمنا خاصا بالسجناء : زمن النهوض المبكر أو المؤجل في الصباح أو المساء ، زمن الصخب والعنف والاعتقادات التي لا تمتثل الى يقين سوى القبول بالذي يحدث داخل السور ، انه زمن المدينة القديمة في أكثر تشويهاتها حدة ، كان زمنا مخالفا : غياب العقل ، غياب الروح ، كان زمنا مخالفا : حضور الجسد في أعلى ذراه التصاقا بالارض، الجسد المحكوم بالارض ، المنغمر في امتثالاته كجسد يتقبل اصغر تشوه ازاء الجمال الذي يوحي به جسد السجين ذاته ، ولكنه الجسد المتعارض مع اندفاعاته وصبواته أحيانا ، ثم انه أيضا رغبة الجسد في ان يحيا ويتحرك، تماما كالرمال المتحركة خارج السور . كان زمنا استثنائيا : انهيار الروح ، انثلام العقل ، ورغبة الجسد في أن يكون سيدا وعبدا .

ولما قلت لنفسي : لأماحك ذاكرتي ، أيقنت أن هذا هراء أيضا . فهذه الذاكرة تكاد تكون نشفت ، فراغ دائم متصل ، وحركات ميكانيكية محضة ، الاعتياد يتحول الى نمط ، والكل يتحركون مربوطين في خيوط سرية الى جهة ما في احدى الردهات العشر ، تماما كما كان يحدث في أواخر أيام مدينتنا ، حين كان الجميع ، بدون استثناء ، يقادون سرا وعلنا بالخيوط السرية ذات البكرة الواحدة الموجودة في أحد دهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية ، واذا وجدت نفسي افتح عيني على سعتهما لم أجد الا شمس تموز الحارقة وأحمد

العبدالله متحصنا داخل عباءته : وجهه الى النار ، يوجرها بالسعفة المجرودة، وألسنتها تطول وتقصر ، ومن حواليها وفي داخلها ، تتحرك الريح رضية ، كأن شيئا ما لا يرين على هذا المبني المسكون بالاجساد والحركات والصراخ في أحيان كثيرة ..

اقتربت منه فاقترب هو مني دون أن يتحرك ، وللآن لم أر ماذا كان الجسد داخل العباءة يتضمن من تفاصيل ، سوى أن الوجه بعينيه اللتين كفتا عن أن تطرقا ، والفم المزموم الشفتين ، الشفتين الرفيعتين والفم الادرد، يقذفني الى ايام بعيدة ، لا أمتلك الآن ناصية الحديث لوصفها ، لانها كانت خارج حدود الوصف ، فهي حركة لا تنتمي الى أي قوى ، ولا تقترب لان تكون في دائرة الوهم ، حين توقف الصباح عن ان يكون صباحا أو عصرا أو مساء ، أيام : أمام حبل الاعدام ، طلقة الاعدام ، وقلت له : تساوت الرؤوس وتشابهت الحيوات ، وكنت اعتقد أن كلماتي سوف تستفزه ، بيد أنه بقي مصغيا لحديث النيران ، يدير بصره بين حركة والتواءات ذؤاباتها ، ثم حدث الحدث الذي ما أزال أخاله حلما : وقف أحمد العبد الله على قدميه ، وبحركة مباغتة من يديه ارتمت العباءة فوق الارض . كان عاريا بصدر أعجف وبطن ضامرة وساقين هزليتين ويدين أكثر هزالا ، وتقدم الى النار حتى صار وسط اللهب وزعق : « أين أنت يا سالمة !! » وخر على وجهه بينما كانت النيران تنمو فوق ظهره وكتفيه .

لم يقترب أحد منا ، كان الجميع يسيرون قريبا من المكان دون أن يطلقوا نأمة صغيرة «مدنية مدينة لام» وأيقنت بما قاله أحمد العبدالله، عندما لاحظت ذلك السجين الذي تعود تحذيري من احمد العبدالله ينظر صوبنا ساخرا . ولم أمد يدا الى الجسد العاري الذي تنمو عليه النيران ، فقد كان أحمد العبدالله يبكي لاول مرة وآخر مرة .

لم انس ذلك البكاء . وحتى بعد أن فتحت بوابة السجن الرئيسية وخرجنا منها ، لم يغب عني مشهد جسد أحمد العبدالله في ذلك الوضع الرزي، وكنت ازداد اقتناعا بأنه كان يخاطب الحياة الحقيقية داخل السور وخارجه ، مثلما أيقنت من وجود زمن في هذا المنفى الذى تحول الى مدينة . على أنني عندما التقيت سالمة بعد ذلك بخمس سنوات تعرفت على زمن أحمد العبدالله.

وكان يقهقه ، كان يقرأ أفكاري ، رجل في الخامسة والثمانين ، قائم فوق ناره التي يعلفها يوميا ، متحصن في جلده المتغضن فقط ، وهو يقهقه بطريقته التي لا تجارى ، رجل في الخامسة والثمانية ينهمر تاريخه في صمته وفي ضحكه الفريد وحركة مشيته المنكفئة .

لم يكن يضحك ، كان يرفع ذراعه الى الاعلى ، غير مشير الى أية نقطة، لكن حركة ذراعه كانت كافية لتؤكد له أنه كان حيا بعد ذلك الصباح الشتوي،

ولن هذه الذراع التي توجر النيران بامكانها أن تستدعي الله وتسأله عن نهاية هذا الخراب ، وتمتد الى آخر نقطة في السماء ، وتطال الشيء الذي تريده ويتابع قهقهاته ، بينما عيناه لا تطرفان ، أو ينخذي ميديم اشعال النيران ، أو يباغتني بكلـمة .

في الايام الاولى كان يروق له الحديث . كان يقول لي : اقترب من نفسك أكثر مما تستطيع ثم اهجرها اذا شئت، هذا اذا استطعت هجرانها. ويقترب من مصباحه النفطي في الردهة الاولى « المستنقع » ليعاين زيته ويقول « هذا هو المستنقع اذن » ويتابع ـ بعد أن يشير وكأنه يرسم دائرة ـ « هذا السور يتحول الى حياة أكبر منه ، لماذا ؟ » .

السور ، لم نكن نفكر في عبوره . كنا نصبحه ونمسيه ، ونعلق عليه حبال ملابسنا ، ونبني في زوايا التقاء جدرانه أقفاصا للطيور والحمام والطيور الغريبة او نزرع ـ مع امتداده ـ بذور الرقي والبطيخ ، تحت الظلال الوارفة لشجيرات عباد الشمس . وفي الليل يكون السور شاهدا .

في الليل يتحول السور الى رفيق صامت ورقيق وأكثر سرية . انه معي ومع أحمد العبدالله وبقية الذين ينامون في النهار ، اكثر من صديق ورفيق رحلة لكنه العدو ايضا ، فاذ ندور مع استقامته وانحرافه المفاجيء يقابلنا بذلك الهدوء والصمت الاسطوريين ، وذلك التلغيز المبهم والمحير للحيوات التي تتناسل خلفه . وأية حيوات ؟ لم يكن بالمستطاع حصرها في راحة اليد أو حتى الاخلاد الى كونها حقيقية . كنا نعرف أنها تتنفس مثلنا ، لكنها تظل نقيضنا : كانت حرة ومحايدة ، في حين كنا « سجانة ومساجين كما يقول رئيس العرفاء » .

قال أحمد العبدالله :

ـ أترى .. ؟ أن هذا حلـم

سـألـت

ـ مـن هـو

ـ انت لم تفهم بعد . فلنقل ان مدينة لام ماتت ، فلنقل هذا ... ولكن كيف نستسيغ ابدالها بسجـن ؟

في تلك اللحظة مرت من امامنا فرقة الكورال ، فتذكرت صافرات السجن وأناشيد القتال في ذلك الصباح البعيد ، والاخبار المتضاربة عن وليد وسالمة ، ثم انني كما لو اخترمت تلك الفاصلة للدقيقة بين الماء وبخاره رددت أمامه : « هذا حلم ، هذا كابوس » خزرني في عينين لا تطرفان مستفهما : « كابوس. ماذا تعني ؟ » وكانت الشمس خلف الرابية الشمالية كابية ومحزونة ، ثم تساوت المسافة بين النور والظلمة ، فاختلطا .

وكنا في الظلمة ، في تلك الظلمة الموحشة : الليل المتصادق أبدا مـع

الظلام والصيحات الغامضة خلف السور وصوت ارتطام الابواب والزعيق الفظيع الذي تطلقه الارض الحصباء في فترات متفاوتة ، بينما كان النور ينبعث في ايماضات من نار أحمد العبدالله التي أخذ يعلفها باحجار غريبة بعد أن مانع السجناء في اعطائه الاوراق المتسخة والملابس القديمة . كان ينظر الى الارض بشراسة ويبرك على قدميه ويحفر بخشبة في الرمل حتى ينتهي الى نتوءات تلك الاحجار . كانت أحجارا جوزية اللون ، شفافة وهشة ، فيرفعها برفق من جذورها الارضية ، ويضعها برفق أيضا وسط النيران المشتعلة ، ولم تكن تخبو بعد خفوت ألسنتها ، كانت تستمر في اتقاد لامع أخاذ .

وعندما باتت الاحجار تنضب ، حدث ذلك التطور الذي لم أحسب له حسابا . كان ذلك في صباح خريفي ، رأيته يحزم فراشه ويكوم متاعه الضئيل في علبة ورقية سمكية ، ولم يكن ثمة ما يثير الاستغراب ، فلقد تعودنا على ما كان يؤديه أحمد العبدالله يوميا مع بداية الصباح : اذ يستيقظ من نومه يركن الى فراشه الرث ويطويه بعناية ثم يشده بحبل ويجمع متاعه في العلبة الورقية ، ويجلس القرفصاء هنيهة ثم يدخن قبل أن يبل ريقه ، مطيلا النظر الى الارض ومتحصنا بعباءة الوبر المرقعة . بعده يتوجه الى السور ليحاذيه في مشي سريع خفيف . أما في ذلك اليوم فقد جلس القرفصاء كعادته ودخن سيجارته ، لكنه بدل أن يتوجه الى السور حمل فراشه واتجه صوب بوابة السجن الرئيسية ، وأخذ يحفر في الارض الحصباء متسعا منخفضا ، وجاء بحزمة من عاقول ووضعها في الموقد وأشعلها وطفق يديم اشعالها والنظر اليها.

منذ ذلك اليوم ترك صلاته المعتادة ، في الردهة الاولى ، حيث تقاليد المستنقع ، بعد أن يتأكد من أنه أصبح وحيدا ، يتربع فوق إلبطانية السوداء ويبدأ ينود ، لم يكن يصدر أي صوت ، كان يحرك شفتيه متيحا لفكيه حركة دقيقة ، مرسلا بصره الى الاسفل ، مسافرا في ملكوت الاحياء والاموات ، دون أن يعير انتباها لخفق أحذية النزلاء الذين يمرون أمامه ، بعد أن بدأت الشمس تطلع في الجانب الشرقي من السجن والعالم .

بالاكيد كان يصلي ، كنت الى جانبه في تلك الايام نائما أو ناعسا ، أنظر الجسد المتحصن بالعباءة ، يلتفت مغمض العينين الى اليمين والشمال، يمرر كفيه على جبهته وخديه ، ويهبط برأسه الى الاسفل ، كمن يهبط في مرجل لا قرار له ، معطيا جسده تلك المرونة التي يتحكم بها من يعيشون اتصال الليل بالنهار ، ثم اتبين ارتعاشات جسده من داخل العباءة ، انه يخاطب اناسا لا أراهم ولا أعرفهم ، ثم يغمره السكون بينما وجهه يصفر ويرتعش منخراه ، وكأنه يحمل على كتفيه وزرا ثقيلا . على أنه ، أحيانا ، كان يلتفت الى ليقول باشارة مقتضبة : « هل ما زالت تعتقد بالغلط والصواب ؟ » . وكنت اقول في خلواتي : ان احمد العبدالله يخضع نفسه الى مرافعات مستمرة،

انه الحاكم والمتهم والشاهد والشرطي والسجان وأسياخ السجن. لكنني كنت أقول أيضا ، إنه يحاكم الذين لا أراهم ، وليد وسالمة وملكة والذين في دائرة الاستعلامات الوطنية ، واولئك الذين هبطوا علينا من عل ، لان ارتعاشات جسده ، من داخل عباءة الوبر ، تتحرك مثل أسماك صغيرة تلبط في كيس شبكي فغرت عيونه الصغيرة بحقة .

وعند الليل ، افتقده السجناء . كانت الزوبعة الخريفية خارج الردهات عارمة . اختفت النجوم خلف سماء محمرة الاديم ، والهواء المجنون ينقل ذرات الرمل بسرعة أكثر جنونا ، وفوق السور ، كانت الاسلاك الشائكة تطلق اصواتا غاضبة اذ تصطدم بها الرياح ، بينما كان أحمد العبدالله قريبا من البوابة الرئيسية يديم اشعال ناره بالاحجار الهشة واقفا على ساقين هزيلتين، تطير عباءاته في سورات الريح المدمدمة ، وبيده اليمنى يمسك جريدة السعف ويجأر : هراء ، ان هذا هراء .. هذا الذي يحدث كله هراء .

كان وجهه ملتهبا بلون سمكة شويت على عجل بروث البقر ، وكانت عيناه لا تطرفان وهو ينظر الى نيرانه ، وخيل الي في تلك اللحظة أنه قد تخلى عنه وعنا . جميعا . كان يخترق السور ليسافر الى حيث يشاء ، ويحرق بنيرانه كل من يعرف والذين يكره أو الذين لا يريد ان يراهم ، وكان قريبا الى النار حتى لتكاد تصفعه ، متراجعا الى ماض غير قابل للحفظ في اضبارة ، انه ماضيه هو وليس ماضي المدينة ، لان « لام » انتهت في عقله وقلبه . ورأى في النار صورته القديمة ، وتلك الهجرة من الكوفة الى العمارة والتوقف عند النهر الصغير ، كان يرى قافلة جده الاكبر ، وفي المقدمة « الم » كفيف البصر يترنح : « لقد أغلق الابصار جفني من شدة البصر .. فيا لتعس النور والظلمة !! » و ...

وسمعت صوت رئيس عرفاء السجن : « هذه ولاية ؟ قف » واستدار راجعا الى مبنى الادارة ، منحني الظهر ، متقوس الكتفين ، يدوس على أرض حصباء ، ويردد : هذي ولاية السجانة والمساجين ، قف . وبصق على الارض، بينما افتقد أحمد العبدالله علبة من الصفيح .. كان الوقت بداية الصباح ، وقد توزع السجناء الفسح الصغيرة التي تفصل بين الردهات .. كان هذا بداية اليوم السجني ، وكان ثمة من يقوم بعمل شاي الصباح والاستعداد لتهيئة طعام الغداء ، وفي الزوايا القصية كان هناك من يخيط حقائب صغيرة من خرز ملون .

واذا وصل الى البوابة الصغيرة التي تعزل القلعة الحجرية عن القلعة الجديدة ، نظر رئيس عرفاء السجن باتجاه البوابة الرئيسية المغلقة ، حيث كان أحمد العبدالله يقول « اسمع الحكمة من سجانك ، هذا زمان !! » داخلني شيء من الاطمئنان ، فقد تحدث الي بعد انقطاع . لكنني تشاءمت عندما

سألني : « وماذا بعد النار ؟ » .

الجنة . قلت هذا لقلبي . وخمنت أنه يعاتبني . وفي لحظة تشبه لحظة انخطاف قلب الطفل الصغير عندما يسمع كلبا يعوي في ليلة باردة ومطيرة ، أدركت ذلك الذي حدث : كنت مشاركا فيه ولم أذنب ، وكان قسط منه داخل عباءة أحمد العبدالله ، ولم يكن خارجه وليد أو سالمة . أما دائرة الاستعلامات الوطنية فهي التي قادت المدينة الى الخراب ، ثم اننا ، بعد هذا كله ، سلمنا لقمة سائغة . كان قرار دائرة الاستعلامات الوطنية بالقتل قرارا آثما ، لان أيا من رجالها لم يقاتلوا .. ولكن الذي كان اكثر اثما هو قرار الاستسلام ، لان رجالها لم يستسلموا ، لقد اجتمعوا الى الغزاة ، وصفوا الحساب في لقاء واحد . وكان أحمد العبد الله يورث ناره عندما سألني : « ماذا يفعلون في الردهات الاخرى ؟ »

يلعبون النرد والداما ، يتماحكون بالقراءة واصطياد الافكار ، يتحدثون عن الماضي ويمارسون كذبا أسود وأبيض ، يكتبون رسائل عاطفية لنساء متوهمات ، يدارون الهزيمة بالشعر ، ويعالجون الخراب بافكار المستنقع .. هذا هو السجن في آخر أيامه . واحتفظت بهذا كله لنفسي ، دون أن أجيب على تساؤله .

وفي بداية السنة التاسعة خمدت ناره فجأة .

ـ قل يا أحمد العبدالله .. ما هو الامل ؟ .

وعرفت انني تورطت . فما كان علي أن أنكل به بمثل هذه القساوة . كان موقد النار وسخا ، فجاء باحجاره الهشة وكومها من جديد فوق الوساخة وأدنى منها عود الثقاب المشتعل . بيد أن الاحجر فضلت أن تظل باردة ، وحاول مرة أخرى وثالثة ورابعة .. لكن الاحجار ظلت ترفض الاشتعال ، عند ذلك استدار الى صندوقه الصغير وفتحه عاجلا وصرخ « هراء .. هراء، ذاكرتي خرج كاف » .

ولم اتمكن من مصافحة الرجل وحديث السور بعد ذلك اليوم ، والآن اذ أقف في المكان الذي كانت فيه مدينة لام قلئمة ، فان ما أقدم عليه أحمد العبدالله لا يمكن ان يمحى من ذاكرتي .

ان للضفة الغربية رائحة الماضي ومعناه ، فبين هذه الخرائب رايت الخراب ، وعندها اليوم اجتمعنا وليد وسالمة وانا .

قال وليد الاحمد :

ـ والدي لم يمت

قالت سالمة :

ـ روح المدينة باقيــة

ولم ترق فكرتها لوليد الاحمد الذي تساءل :

ـ أحمد العبدالله ؟

لكنه كان أمامي منكربا وحزينا فقد كان أباه أيضا ، قلت :

ـ كان متوحدا . أخرج مقتنيات الصندوق الصغير وفرشها على الارض وقال : هؤلاء هم جنودي ، ان جنودي لا يهزمون ، وسوف يتعيــن عليكـم استدعاء الموتى ، وقولوا لهم : يقول أحمد العبدالله : تعالــوا يا أولادي .. تعالوا أيها البؤساء الذين قاتلتم وهربتم .. ثم قال لي : اذهب عنــي أنتَ . فتحركت قليلا ، غير أنه أمرني : ابتعد ابتعد . قام على حيله ، ورمى عباءته على الارض ، وتحرك باتجاه السور ، كان يمشي متطاولا ، صاعدا الى الاعلى ومنكفئا الى الارض ، عاريا تماما ، حتى اذا ما التصق بالسور أمسك باول بروز قابل يديه في السور ، وحاول ان يتسوره . كرر الامســاك بالبــروز ، وتشبث بالجدار بكلتا يديه ورجليه ، حتى استطاع في الاخيــر أن يعلــوه ويجلس على قمته . كان السجناء قد اجتمعوا حينئذ وهم يراقبون الرجـل العاري الذي سيغادرهم للتو .

فجــاة صــرخ أحدهــم :

ـ يا رئيس العرفاء .. هرب أحمد العبدالله .

من الرابية القريبة ، كان احد الحراس يراقب الموقف ساخرا ، لكنه اذ سمع صيحة السجين سدد بندقيته على أحمد العبدالله وأطلق رصاصة ثم ثانية ، فانهار الجسد العاري ، نصفه داخل السجن ونصفه الآخر خارج السور.

لم يكن ميتا ، قلت ، كان نائما ، وجهه الى الارض ، ورغم الضوضاء ، اقتربت منه كثيرا فسمعته يقول : « يا عوزي الثاري ، كيف الغلــط ، كيف الصــواب ؟ » .

قالت سالمــة :

ـ كل المدن ترفضنا . اننا نعيش حياة سرية . وكان وليد الاحمد قد غير هيأته ، فلقد تزيا بزي رجل دين ، وبدت سالمة أمامي ، مثل ربة بيت من بيوت مدينتنا القديمة .

مـن تـراثنـا الحـديـث

نـحـو ثـقـافـة متحـررة

عبـد اللـه ابراهيـم

ابتداء من العدد السابق شرعنا في تخصيص جانب من المجلة لتراثنا الحديث ، وقد افتتحنا هذا الجانب بنشر بعض النصوص التي كتبت والقيت اثناء احتفال المغاربة بذكرى المتنبي سنة 1935 .

اما في هذا العدد فنعيد نشر نص هام للاستاذ عبد الله ابراهيم هو عبارة عن محاضرة القاها بمراكش بدعوة من « جمعية الاديب » ، ونشرت بالعدد (6 ـ 7) من مجلة « رسالة الاديب » التي صدرت منها اعداد تسعة بإشراف وادارة الشاعر محمد الحبيب الفرقاني في الفترة المتراوحة بين يناير 1958 ومـاي 1959 .

وسنحاول في اعدادنا القادمة تقديم نصوص اخرى لها اهميتها التاريخية في ثقافتنا الوطنية ، وتكاد تكون اليوم مجهولة تماما بالنسبة للقارىء المغربي.

اخـوانـي اخـواتـي

اني اشكركم على حضوركم هنا ، كما اشكر « جمعيـة الاديب » ان اتاحت لنا هذا الاجتماع ، وان موضوع اليوم هو : نحو ثقافة متحررة .

اذا كانت شؤون الحياة اليومية تأخذ في أغلب الاوقات أكبر قسط من نشاطنا ، واذا كانت ظروف الكفاح التي خضناها كانت تشغلنا في كثير من الاحيان عن التفكير ـ فاننا الآن ـ ونحن على أهبـة الانغمار في معركة جديدة هي معركة البناء ـ يجب علينا أن نلتفت الى الناحية الفكرية ونعطيهـا مـا تستحق من عناية ، فان أعمالنا كيفما كانت يجب أن تصدر عن فكر ، فقديما قال شاعرنا المتنبـي :

الـرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان

هـو أول وهـى المحـل الثـانـي

كما يجب ان تكون اعمالنا في بناء الاستقلال على اسس متينة يجب ان تكون هذه الاعمال قائمة على دعامة قوية من الفكـر .

مـا هـي الثقـافـة ؟

لا اريد ان اضيع وقتكم في سرد الخلافات الطويلـة في معنـى كلمـة

« الثقافة » فالظاهر أن كلمة الثقافة من الكلمات المطاطة التي تستعصي على التحديد . فنحن لا نجد تعريفا لكلمة « الثقافة » الا ونجد من ناحية أخرى نقادا ينتقدون هذا التعريف . ومع ذلك فيمكن أن نحدد الموضوع فان هناك اتجاهين اثنين في تحديد الثقافة

ـ هناك اتجاه لاتيني على وجه العموم
ـ هناك اتجاه جرماني أو الماني

فالثقافة عند الالمان هي كلمة ترادف معنى الحضارة فالثقافة أو « الكولتور » ـ كما يسمونها ـ هي عبارة عن كل ما تنتجه امة سواء في الناحية الفكرية أو الحضارية فالبنايات الضخمة ، والشوارع المهمة والحدائق اللطيفة ، والقصائد الشعرية ، والروايات القصصية ، والافكار الفلسفية ، كل ذلك يمثل ثقافة أمة ، فالثقافة اذن عند الالمان هي مجموع ما تنتجه الامة سواء من الناحية المادية أو من الناحية العقلية ، فالثقافة عند الالمانيين ليست فقط ما انتجه هيجل وكانت وغيرهما من مئات أبطال الفكر الالماني ، ولكنها ايضا هذه البنايات الضخمة ، وهذه المؤسسات الاجتماعية في المانيا ، وكل ما انتجته الحضارة الالمانية ، وكل ما يدل على المانيا كل ذلك تجمعه كلمة « كولتور » أو كلمة « الثقافة »

هناك معنى آخر لكلمة « الثقافة » ، وهو المعنى السائد عند غير الالمان أي بالاولى عند الشعوب اللاتينية كالفرنسيين والاسبان والايطاليين ، فالثقافة عند هؤلاء ليس لها مدلول مادي بجانب المدلول العقلي ، ولكن الثقافة هي مجموع ما انتجه الفكر في الامة ، مجموع هذه القصائد ، وهذه القصص، وهذه المذاهب الفلسفية أي كل ما انتجه العقل فقط اما الحضارة فلها معنى آخر لا يمكن ان يختلف عن الثقافة ، فالثقافة اذن على هذين الاتجاهين اما أن يكون لها مدلول أعم بمعنى كل ما انتجه الانسان في وطن من الاوطان ، او كل ما انتجه الفكر في أمة .

فالثقافة ليست هي العلم : العلم هو جميع المعلومات التي يصل اليها الانسان ، فالعلم اذن من المسائل التي لا تعرف ، ولذلك أراني اتناقض في هذا التعريف فاقول ان العلم هو المعلومات ، وادخل كلمة المعلومات التي هي مشتقة من العلم ، وذلك يرجع الى أن العلم هو من الكلمات التي لا يمكن ان تعرف ، ولكن العلم كيفما كان الحال هو هذه المعارف ، هذه المعلومات التي تستند على العموم الى التجربة ، وتعتبر معلومات من حالتها الاصلية ليست لها صلة حتميا وبطريقة حتمية بالناحية العلمية . أما الثقافة فلها جانب أو محتوى علمي ، فالمثقف ليس عالما فقط ، ولكنه تثقف او تمرن فكره ، وأصبح مستقيما كما يستقيم العود بعد نحته . وكلمة الثقافة في حد ذاتها أو Culture بالفرنسية انما تعني جانبا عمليا في معنى الكلمة . فكلمة

الثقافة في العربية أخذت من ثقف العود أو السهم أي قومه وجعله مستقيما . وبالفرنسية فان كلمة Culture آتية من كلمة تدل في معناها الاصلي على الفلاحة ، فالفلاحة أي فلاحة الفكر ، أي العناية بالفكر . كما يعنى الانسان بالتربية يعنى بالفكر . وهذه هي الثقافة . فسواء بالمعنى الفرنسي أو بالمعنى العربي . فكلمة الثقافة لا تعنى العلم فقط . ولكنها العمل أيضا .

اذا خرجنا من هذه المقدمة التي تدور حول الكلمة نفسها التي تكون جزءا من عنوان الموضوع ، يمكننا ان ندخل في صلب الموضوع لنلقى نظرة عابرة على مختلف التيارات الثقافية التي سادت العصور الحديثة .

ليس من الممكن ابدا ان يستعرض الانسان جميع التيارات وجميع الانواع الثقافية التي لا تقبل الحصر ، وهي تتعدد على نفسها عند كل أمة وفي كل لغة . ولكن الذي يعنينا هو العناوين الكبرى للتيارات الثقافية ، وهي تتلخص في خمس تيارات . كل تيار منها ينقسم على نفسه الى عشرات من الانواع .

هناك تيار في الثقافة الالمانية . والمانيا تلعب دورا كبيرا في الفكر ، ومفكروها وعلماؤها كان لهم القدح المعلى في المدنية الحديثة ، فالاتجاه العام أو التيار الذي كان يغمر الثقافة الالمانية منذ قرون هو تيار مثالي ، تجريدي يتناقض مع الواقع أو على الاقل ينفصل عن الواقع ، هذا التيار التجريدي يسمى في عرف الفكر الاوربي بالتيار « الايديالي » او « المثالي » . فالالمانيون لم يتخيلوا حقائق واقعية أولا . ولكنهم تصوروا العالم على فكر مثالي ، على مجموعة من المبادىء والافكار ، ولكن تلك المبادىء التجريدية هي من القوة بحيث تدخل في طور ما من تطوراتها نحو الواقع ثم تعود فتكون فكرا . فالثقافة الالمانية هي ثقافة ايديالية أو ثقافة مثالية . والانسان فيها قبل أن يكون شخصا يمشي على رجلين كان فكرة ، وهذه الفكرة تطورت بشكل وبقيت تتطور فاكتسبت القوة اللازمة لتجسيمها فأصبحت رجلا . والمثقف الذي خلق هذا الاتجاه ، ولعب دورا كبيرا في الفكر الانساني العصري هو الرجل الالماني « هيجل » ... فهيجل قرر ان من خصائص الانسان انه لا يقف عند الواقع فقط ولكنه يتطور ويدخل في عالم التطورات . ويستقل عن الواقع ليمكن أن يحكم هذا الواقع ، وايا ما كان الحال في نظر هيجل فهي فكرة ، هذه الفكرة هي الكمال المطلق .

وهي قوة منبثقة عن الجسم ، هي روح لها جميع القوى ، وتتسم بجميع الصفات الكمالية ، وتتنزه عن النقص ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تحتوي على عناصر متناقضة هي التي جعلت منها حركة دائبة وأصبحت هذه الحركة في تفاعل الى ان تكون العالم .

فقبل أن يكون البشر اذن كانت فكرة العالم الحقيقي عند هيجل هو

عالم التطورات التي تستحيل بها الى الواقـع .

هذه الفلسفة وهذا التفكير المثالي الذي تقمصه رجل كهيجل كان له تأثير كبير في المانيا ، وكان جميع المفكرين يستمدون منه على نحو أو على نحو آخر ، وكان الى جانب هيجل « كانت » الذي يعتبر هو ايضا رجلا مثاليا . سار على أفكار مثالية مبنية على توازن بين الفضائل ، وعلى الخير المطلق قبل أن يكون الانسان ، فما الانسان اذن الا مظاهرة من مظاهـرات الخيـر المطلق في تطوره نحو الكمال المطلق .

وبجانب الفكر الالماني الذي كان يصطبغ بصبغة مثالية تجريدية ، نجد الفكر اللاتيني يصطبغ بصفة حسية ، والذين يفكرون هذا اللون مـن التفكير هم في فرنسا رجل كديكارت ، ديكارت الذي كان له أثر كبير في الثقافة الفرنسية ، اذ قرر لاول مرة ان العلم مصدره هو الواقع ، هو مـا يحسـه الانسان ، فاحساس الانسان يبتديء بالمقدمة الاولى في تفكيره ، اذن هذا النوع من التفكير يقوم على الحس ، ولذلك سميت جميع الاتجاهات الفكرية في فرنسا بنزعة الحس و « النزعة الحسية » اي « صانتياليسم » ـ التـي تقابل الاتجاه الالماني الذي سيطر على الثقافة الالمانية على العموم . وهـو الاتجاه الذي يسمى « الاتجاه المثالي » « ايديالسم » .

ويمكن أن أجمل لكم الفرق بين التيارين بأن الالماني عند ما يـرى شيئا أمامه ، عندما يرى مثلا شخصا امامه لا يفكر لا في عينيه ولا في قامته ، وانما يفكر في الاطوار الاولى التي تطور منها هذا الشخص قبل ان يتقمص جسدا فالفكر الالماني هو فكر غائب عن الواقع ، ويحاول أن يفهم الواقع من عالم الغيب ومن ثم كانت النزعة التي تسيطر على الفكر الالماني هي النزعة المثالية التي لا تقف أمام الواقع الذي يشاهده الانسان بعينيه ، وانما يريد أن يتجاوز الواقع ويبتعد عنه ليجد له تفسيرا ، اما الفرنسي فانه عندما يجد امامه الشخص يحاول ان يلمسه ويحسه ليقول انه موجود ، فثقافة الفرنسي اذن ثقافة مبنية على الحس المباشر ، لا على الهيام الفكري في عالم الغيب ، ومن ثم كانت الثقافة الفرنسية المصطبغة بصبغة الحس ثقافة لطيفة خفيفة الروح لا تتطلب جهدا في التفكير وليس فيها على العموم أي عمق أو عمقها يتسم دائما بسمة اللطافة التي لا تخرج بها عن المحسوس .

وهذا ما قد يفسر هيام الناس في جميع أطراف العالم بالثقافة الفرنسية لسهولتها وسلامتها ، وللطفها ، وفي الوقت نفسه يفسر أن الثقافة الالمانية نظرا لصبغتها التجريدية ، ولعمقها في التفكير تتطلب مجهودا كبيرا في التفكير ليس في متناول الناس كلهم .

فجانب هذين المذهبين : المذهب التجريدي الذي يرى المفكر فيه نحو السماء ليفهم المقصود ، والثقافة الفرنسية التي تلمس المحسوس ، وتمس

باليد لتقول بانه موجود ـ بجانب هاتين النزعتين . هناك نزعة تجريبية أو نزعة « البراجماتزم » وهي النزعة التي صبغت التفكير الانجلوساكسونتي في انجلترا أولا ، وفي اميركا ثانيا ، ثم في الشعوب الاوربية التي تأثرت بالثقافة الانجلوساكسونية .

هذه النزعة التجريبية أو « البراجماتية » هي نزعة واقعية ، لا تريد أن تفكر شيئا ، وانما تقوم على الملاحظة ، ولا تريد أن تفهم الناس شيئا وانما تصف للناس ما ترى . وهي مجرد صورة فوتوغرافية للواقع . واذا ما كتب الكاتب يتحدث عن مشكلة اجتماعية ، فلا يعنيه من ذلك أن يفسر جوانب من هذه المشكلة ولا أن يرجع أصولها لنظرية من النظريات ، وانما يكتبه الكاتب عن المشكلة الاجتماعية بفكر متحرر عن كل مبدأ ، وبعين تشبه عدسة المصور ويصور الاشياء كما يراها من غير أن يحاول تفكيرها ، أو توجيه الآراء في استعراضها فهي نزعة الواقع . نزعة التجربة ولكنها في الوقت نفسه هي نزعة تحدث قلقا لان النفس الانسانية والطاقة متعطشة دائما الى التفسير والايضاح . واذا قرأنا رأي بعض ما كتبه الامريكان مثلا في قصص تصور بؤسا في المجتمع كما فعل « سيمياك » في قصته المشهورة « ان تملك أو أن لا تملك » فانما تجد هؤلاء الكتاب يصفون لك قلق المجتمع كما تفعل عدسة المصور ، ويحدثون في فكرك قلقا واضطرابا للعناصر المتناقضة التي ياتون بها في عرضهم ، وأنت تظن انك اطلعت على البؤساء في ضياعهم وبؤسهم . واطلعت على الجهود الضائعة التي يتركها المتشردون في الطرقات ، من غير أن تعرف لماذا كان هذا البؤس ، وهل هناك عناية بهذا البؤس ومن ثم كانت النزعة البراجماتية أو النزعة التجريبية السائدة عند الانجلوساكسون ، نزعة فوتوغرافية للواقع ومن ثم كانت ناقصة ، لانها لا تفكر ، وانما تلتزم الحياد فيه .

وبجانب النزعة المثالية الالمانية ، والنزعة الحسية أو الاحساسية السائدة في الاداب الفرنسية ، وبجانب النزعة التجريبية أو البراجماتيزية السائدة عند المفكرين الانجليز أو الامريكان ـ توجد نزعة أخرى سادت الاداب الروسي . وتطورت تطورا مناقض البداية . وهذه النزعة تشبه شيئا ما النزعة البراجماتيزية التي سادت الانجلوساكسون . ولكنها في الواقع تختلف عنها اختلافا جوهريا ، اختلافا في الطبيعة ، اختلافا في التوجيه ، اختلافا في كل شيء ـ هذه النزعة هي التي سادت الادب الروسي في الوقت نفسه ـ التي تطورت تحت الثورة الروسية ، واتجهت في الآداب العالمية اتجاها فريدا من نوعه ، هذه النزعة يمكن تسميتها أول الامر بـ « النزعة الواقعية الميتافيزيقية » على ما في هذه الجملة من تناقض في التعبير فالواقع لا يهتم في الغالب بالحقائق الميتافيزيقية أو حقائق ما وراء الطبيعة ،

فالواقع هو من صميم الطبيعة . بينما الميتافيزيق هو من وراء الطبيعة . ــ هذه النزعة ظهرت في الآداب الروسية في القرن الماضي أي قبل الثورة الشيوعية ، وكانت تتقمص هذه النزعة أعلام في القصص الروسي مثل **دوستويفسكي ونيكولا كوكول .. وشيكروف** . وغير هؤلاء من الذين انطبع أدبهم على العموم بطابع واقعي ولكنه ينظر الى الله والى وراء الطبيعة من خلال أعمال الانسان التي يصفها هؤلاء الكتاب .

اقرأوا مثلا « الارواح الميتة » الذي كتبها **نيكولا كوكول** فانتم ستجدون فيها وصفا لاذعا لجميع الطبقات التي تعيش في روسيا ابان **نيكولا كوكول** .

وكوكول هذا الذي يصف الواقع وكأنه آلة فوتوغرافية ، كان في الوقت نفسه فكرا متدينا حائراً من آثام الناس . وكنت ترى من خلال « ارضيته » ان صح هذا التعبير ، ترى رجلا ملائكيا يحاول ان يتشبث بالمبادىء العليا للمسيحية ، ويريك بؤس الانسان وآثامه وذنوبه تحت سيف العدل الالهي . فنحن عندما نقرأ الرواية الكبرى « الارواح الميتة » ــ تجد أنفسنا أمام مجتمع مضحك ، تجد الفلاح على بساطته ، والمثقف المزيف يخدع الناس وتجد الحاكم يرتشي، وكل آثام روسيا، وكل آلام المجتمع تستعرض امامك، ولكنك ترى من وراء ذلك عقوبة الهية لهؤلاء الناس ، وترى آثامهم مجرد جزاء عن ضياع القيم الانسانية للمسيحية في نفوسهم وفي شعورهم ، وعندما ترى مؤلفا آخر مثل « **ديشويفسكي** » ترى بؤس الانسان كما ترى في نفس الوقت السلطة التي هي من وراء الطبيعة تسيطر على الوصف الدقيق الفوتوغرافي لاعمال الانسان فـ « **تيدور دوستويفسكي** » في رواياته المتعددة ، كان يقدم لنا وصفا دقيقا لمجتمعه ولكننا نشعر بأن هذا المجتمع الحسي السطحي الارضي محتد بخطوط خفية ــ تكاد تتصل في فصول الرواية بعالم غيبي فيه الجزاء وفيه المكافاة ، نرى مثلا عرض **دوستويفسكي** ــ في روايته « جريمة وعقاب » طالما عاش عيشة البؤس ، وقد نجح الى حد كبير دوستويفسكي في وصف حياة البؤس عند الطلاب . وهي حياة نعرفها عند جميع الطلاب . وهي بئيسة ولكنها في الوقت نفسه حياة جميلة . لان الطالب يعاني فيها آلام الفاقة من ناحية ولكنه في الوقت نفسه يحاول ان يكرع من مناهل العلم . وان يثقف نفسه متناسيا أو متجاهلا البؤس الذي يرتطم فيه . فالطالب اذن في رواية « جريمة وعقاب » لدوستيوفسكي عاش في البؤس ، وكان مكبا على العلم ، وكان لا يجد ما ياكل مدة اليومين والثلاثة ، وكانت بجانبه امرأة عجوز ، وكانت تخزن الذهب والفضة ، وكانت تعيش شر معيشة ، وكانت تكتري له البيت ، وتجرعه الويلات اذا هو لم يدفع لها ثمن الكراء .

واعتقد بان هناك دورا في الحياة ، لان هذه العجوز التي تكنز الذهب

والفضة لا تصرف ذهبها ولا فضتها بل تكنزهما تحت الارض وفي الوقت نفسه من أسباب بؤس هذا الطالب لانها لا ترحمه في آخر الشهر وهي تطالبه بان يدفع الكراء . ـ ويفكر الطالب في نفسه فيجد أنه عنصر خير . وبأنه لا يجرم ولا يرتكب أي جريمة ، ولنما كل همه في الحياة ان يكرع من مناهل العلم وان يتثقف ، ولكن هذه العجوز كانت تمثل في نظره مجتمعا بخيلا مجتمعا قاتما أحمق . ومع ذلك فهو يمد سيطرته على عناصر الخير .

تطورت هذه الفكرة عند الطالب ، فانتهى أول الامر بأن اقتنع بان هذه العجوز التي تكنز الذهب والفضة ولا تعرف ما تفعل بهما يجب أن تراح من الارض ، فكر الشاب اذن في الجريمة ، وذات يوم دخل الشاب على العجوز وذبحها ذبحا ، واستولى على الكنز الذي كان مختبئا ، وحاول ان يعيش سعيدا ، وان يستمر بفكر مرتاح في طلب العلم .

الى هذا الحد كان دوستويفسكي رجلا أرضيا ماديا يصور لنا مأساة نحسها جميعا ليس في روسيا فقط ولكنها مأساة جميع الشعوب، ومأساة جميع الطلاب ، وجميع العجائز اللائي يكنزن الذهب ويعشن في البؤس .

ولكن تظهر هذه الواقعية الميتافيزيقية عند ما يثب بنا دوستويفسكي فجاة الى افق آخر ، في سماء أخرى ، فيرينا هذا الطالب بعد ان قتل العجوز وقد رجع عن كل افكاره وشعوره ، وتسمم وجوده ، واصبح يعتقد بان الجريمة التي ارتكبها هي جريمة لا يمكن أن تغفر . ـ استطاع أن يهرب من يد البوليس ، استطاع ان يقنع الناس جميعا ببراءته ، لان أية شبهة لم تحم حول الطالب . واستطاع في الوقت نفسه أن يأخذ المال دون أن يعرض نفسه لاية عقوبة ولكن هناك عقوبة اكبر من كل عقوبة . وهناك محكمة أكبر من كل محكمة ، تلك العقوبة هي عقوبة الضمير . وهذه المحكمة هي محكمة الضمير .

وهناك اتجاه خامس بين هذه الاتجاهات . وهو « النزعة الواقعية الاشتراكية » التي تتمثل في هذا المنحى الكفاحي الذي يتزعمه ادباء البلدان التي تنزع في حياتها واقتصادها وقيمتها نزعة اشتراكية ، وهي النزعة التي يعنى فيها الكاتب بوصف الكفاح الذي يخوضه المجتمع ضد الطبيعة لاخضاعها لسلطانه أو ضد القوى الطاغية التي تصدر عن الظلم ومظاهر الاقطاعية والاستبداد .

اذن هناك في التيارات الادبية :

النزعة المثالية التي سادت الثقافة الالمانية

والنزعة الحسية التي سادت الثقافة اللاتينية .

والنزعة التجريبية او « البراجماتية » التي سادت الثقافة الانجلوساكسونية .

والنزعة الوافعية الميتافيزيقية التي سادت الآداب الروسيــة .

ثم النزعه الحديثة التي ترعرعت في البلاد ذات المذهب الشيوعي التي تدين بالواقعية الاشتراكية .

فالاديب انما يصف المجتمع في حالة الكفاح ضد عناصــر الطبيعــة ، ويريد ان يسجل من خلال رواياته الانتصارات التي ينتصرها الانسان لتسخير الطبيعــة لاغراضــه .

هذه هي النزعات الكبرى التي سادت الفكر .

وندخل للجزء الثاني من المحاضرة لنتساءل : ما موقع مغربنا من هذه التيارات ؟ وهل يمكن ان نحدد موقفنا منها ؟ ما هو ـ بالاجمال ـ الاتجــاه الــذي نسيــر فيــه ؟

هنا للاسف ـ نجد حقائق مؤلمة ! ذاك أن المغرب عاش اولا في أصعب الظروف بالنسبة للفكر . وبالاخص في القرون الاخيرة . فالفكر المغربي طيلة عدة اجيال كان فكرا متحجرا في ثقافة فقهية تقوم على الحفظ وتضعف ملكــة التفكير . وكان نظام التعليم السائد في بلادنا يشجع ضعف الفكر . وقــوة الحافظة ، فكانت النتيجة ان شبابنا كان يصرف من الجهود مالا يصرفــه الا القليل والقليل جدا في بلاد الغرب ، ولكن كانت النتيجة عندنا نتيجــة سلبية ، فكنت تجد الشخص يحفظ القرآن الكريم وربما يحفظه بالروايات ، ويحفظ الشيخ خليل ، ويحفظ الآلاف من الابيات الشعرية ، وبالاخص مــن الشعر التعليمي فتنمو حافظته ، ولكن فكره يبقى في طور الطفولة . ـ

هذه الحقيقة المؤلمة اثرت في ثقافتنا ، فكانت الثقافة المغربية تضيع في سني « **الحضار** » (1) وفي حفظ المؤلفات الكبيرة عن ظهر قلب وفي الوقت نفسه في حبس ملكة التفكيــر ولا عجــب ان ســادت في المغــرب نــزعــة الحفظ ، وبقي التفكير المغربي يتعثــر ، ويبقــى في الغالب فــي مستــوى الطفولة لان الحافظة لا توافق التفكير في شيء .

كان هذا جانبا مفجعا لانه عرقل سير الثقافة في المغرب ، كما عرقلها في البلاد العربية والاسلامية . وكان بجانب هذه العائقة عائقة أخرى هي أن ثقافتنا الصحيحة قد تجاوزها الزمن ، لان الثقافة الصحيحة عندنا ثقافــة اسلامية عربية ، والثقافة العربية مرت بعصور الركود بالعصر الذي انهارت فيه الامبراطورية العربية ، وساد الاتراك الرقعة الاسلامية على العموم ، وكان الاتراك قوما عجما لا يتكلمون بالعربية ، وكانت سلطتهم هي السائدة في البلاد العربية ، فتبربرت الالسن ، وضعف التفكير العربي ، وانحط الانتاج في جميع البلدان العربية ، فاصبحت ترى انتاجا مهلهلا ضعيفا ركيكا ، وانفصل

(1) الحضار هو المسيد « الكتاب » مدرسة الاطفال التقليدية لحفظ القرآن .

بطبيعة الحال عن التفكير ، فاصبحنا نرى التزويقات اللفظية ، ومن ثم جئنا في المغرب فوجدنا ثقافة قد غلمت سنين من الركود السياسي الذي ساد البلاد العربية ، ووجدنا ان الاحتلال التركي في البلدان العربية قد عرقل الثقافة فيها ، ووجدنا أنفسنا فجاة مع عالم الغرب الذي تطورت فيه الاتجاهات الثقافية التي تحدثت لكم عن الخطوط الكبرى فيها ، فوجدنا قوما لا يتكلمون العربية وانما يتكلمون بلغاتهم الاوربية . وقد تطور تفكيرهم فأصبحنا لا نستطيع ان نفهمهم لاننا متقفون بثقافة عتيقة ظلت ازمانا تتخبط في ظل الانحطاط الذي ساد العالم الاسلامي .

جاء التعليم الاوربي وفتح المدارس ونشر الثقافة بجد ضئيل في بلادنا ، ولكن كان المغاربة في منهل ثقافة لا يجدون أسسها في شعورهم وفي عائلتهم ، فكانت النتيجة هو ان الثقافة التي تلقاها أبناؤنا في المعاهد الاوربية كانت ثقافة لا تمتزج باحساسنا وانما كانت مجرد علم نتلقاه . فكانت النتيجة هو أن أربعين سنة في الثقافة الفرنسية لم تستطع أن تظهر فينا كتابا كبارا ولا مفكرين كما نجد ذلك في فرنسا . وانما وجدنا أشخاصا انتقلوا انتقالا الى الثقافة الاوربية فلم يستطيعوا أن يهضموها كما هضمها أبناء هذه الثقافة .

ومن ثم أصبح تفكيرنا يستند من ناحية الى ثقافة فاتها الوقت لانها لم تتجدد ، ويواجه ـ من ناحية أخرى ـ ثقافة اجنبية لم يستطع أن يهضمها لانها ثقافة آتية من الخارج ، وأصبح في الوقت نفسه يرتطم بعائق آخر هو الانحطاط الاجتماعي الذي ساد بلادنا ، فكانت النتيجة هي أن الفكر أصبح عاجزا عن أن يقود الحياة في بلادنا ، ورأينا لذلك مظهرا عند ما انهارت جميع القيم وكثر الخونة واصبح كثير ممن يستطيعون ان يغيروا شيئا يجدون انفسهم في ركاب الاجنبي ، عند ذلك ضل الطريق ، فكنت تسمع بين الآونة والاخرى بالفتاوي لتأييد هذا او القيام ضد ذاك . وكنت ترى القيم الفكرية تدخلها أغراض السياسة الاستعمارية ، فتورط كثير من الناس كمثقفين . ولكن مع ذلك كان هذا هو المظهر المؤلم في حياتنا .

ولم يكن بجانب هذا تيار فكري يستطيع ان يقود الكفاح . وان يقود المقاومة ، فكانت المقاومة على عكس ما وجدنا في آسيا وأوروبا قامت على عمل رجل الشارع ولم تكن عمل رجل الفكر ، فعلى العموم كانت الثورات الدامية تسبقها ثورات فكرية بشكل كتب وافكار وءاداب ثورية . فاذا رأينا الثورة الشيوعية مثلا . نجد انه قد سبقتها عشرات السنين من انتاج فكري خصب وأدب ثوري هيأ الافكار للثورة . ونجد الثورة الفرنسية قبل ذلك كان مهد لها رجال مثل جان جاك روسو ومفكرون كثيرون مثل فولتير ، أو سياسيون مفكرون كروبسبير . فكان هؤلاء أولا يكتبون . وكأن الشعب يقرأ .

وكانت الثورة تنعكس عن كتابة الكتاب وتفكير المفكرين . فمن ثم كان الفكر أولا يثور ، ثم يثور رجل الشارع .

أما عندنا فنظرا لهذه العراقيل التي ارتطم بها الفكر ، ولسياسة الخنق التي كانت تمارسها الحماية في بلادنا تأخر الفكر . وكان الخلاص لا في الفكر ، ولكن من رجل الشارع الذي لم يفكر ، ولم يأت بفلسفة وانما شعر شعورا قويا عميقا بالواجب فقاد الفكر قبل ان يقوده الفكر .

فما نريد اذن والحالة هذه ؟ كيف الخلاص ؟

الواقع ان الفكر هو الذي تأخر للاسباب التي ذكرت فلم يقد المقاومة وانما كانت المقاومة من صميم الشعب ، ولا يقود الفكر الآن دفة الامور لان دفة الامور هي اهداف حددها شهداء بدمائهم ، ولم يحددها مفكرون بنظرياتهم .

والواقع أن المفكر المغربي لا يزال كرسيه خاليا ينتظره فبلادنا في معركة البناء محتاجة الى ثقافة تساند هذا البناء ، هذه الثقافة هي الاساس الذي سنبني عليه حضارتنا ، وما دامت هذه الثقافة لم توجد الا وسنكون مضطرين الى أن نتقهقر الى الوراء ، كلما تقدمنا خطواته ذلك ان كل حضارة يجب أن تستند الى فكر . فالثقافة التي ننتظرها لان كرسيها فارغ . لان مقاعدها فارغة ـ هذه الثقافة يجب أن تكون هي الاداة العقلية للتحرر لتحرير الشعب ، يجب اذن أن تكون هي في نفسها ثقافة متحررة ، أن تكون ثقافة للشعب ، لا ثقافة خاصة ، واعني بثقافة الشعب الثقافة التي يفهمها جميع الناس بالتدريج ، وترفع الناس لمستوى النخبة وتجعل الناس يفكرون ، ويتجاوزون افق تفكيرهم اليومي ، وتجعل الناس يتذوقون نعم الفكر .

وليس هذا المرمى ببعيد ، فقد شاهدنا في المدة الاخيرة المسرح الشعبي على يد الفرقة العمالية ، شاهدناها أولا في رواية « الوارث » ثم شاهدناها كذلك في رواية « المفتش » ـ فوجدنا أن الثقافة قد تكون حقيقة في متناول الشعب اذا قدمها اليه أناس من الشعب ، فرواية المفتش كانت في الحقيقة نقلا عن الادب الروسي ولكنها ترجمت بشكل كنا نرى فيه عيوب المجتمع المغربي ، ونشاهد فيه الشخصيات المغربية . وقد رأيت بعيني الجماهير تصفق عند ما كان التصفيق مسألة محددة . وكان الجمهور يفهم النكت فعلمت ان وجود ثقافة شعبية ليس فقط أمرا مرغوب فيه ، ولكنه شيء قد يكون أمرا واقعا في أقرب وقت .

كما رأينا في نفس المسرح الشعبي الرواية الاخيرة التي أعطيت في الدار البيضاء بمناسبة ذكرى المقاومة ، وأذكر ان عنوانها كان « شوف أومنكت » ـ هذه الرواية تصف مجتمعنا بشكل دقيق . وكان حماس الناس وتصفيقهم يدل على ان اولئك الناس الذين هم على أعواد المسرح يفهمون اولئك الذين هم على الكراسي فكان هذا التجاوب بين عناصر ثقافية وبين الجمهور يدل

مرة اخرى على ان الجمهور عندنا يمكنه ان يفهم الثقافة ويمكنه ان يرتفع عن مستواه اليـومـي .

فالثقافة التي ننتظرها اذن ـ لان مكانها فارغ ـ هي ثقافة نريد ان تكون في متناول الجمهور لترفع الجمهور اليها ، والمسرح والروايات التـي تعطي الآن تدل على انه من الممكن أن تكون هناك ثقافة وطنية ، ثقافة شعبية في مدة قريبـة .

وهذه الثقافة يجب ان تكون في نفس الوقت عملا كفاحيا داخلا في نطاق حياة امة ، فالثقافة وشؤون الفكر . واذا قلت شؤون الفكر فاعنى التمثيل ، واعنى القصص ، واعنى الشعر ، واعني جميع اوجـه النشاط الفكـري والاحساسي والعاطفي . ـ هذه الثقافة يجب ان لا تكون ملهاة والعوبة للناس ، وذلك لا يعني أن الرواية لا ينبغي أن تضحك الناس ولكن ان تقرب للجمهور ما لا يمكن أن يفهمه بمجرد الخطب ، ولكن يفهمه بحوادث تخلق ، وحوادث تشخص على اعواد المسرح .

فهذه الثقافة بجميع مظاهرها يجب ان تكون ثقافة مسؤولة . فالكاتب الذي يكتب ليكتب من غير ان يكون هناك دافع لكتابته، هو مثل الاخرق الذى يقف ليتكلم من غير أن يكون لديه شيء يريد أن يقوله للناس .

فالثقافة اذن يجب ان تكون منتزعة من الوسط ، ومن الحقائق التـي يحياها الانسان ، وأن تكون مسؤولة ، يعني ان لها هدفا ترمي اليه ، فالثقافة من اجل الثقافة هي فكرة انصرف عنها الزمن ، واصبحت في الحقيقة من خبر اولئك الفانين الذين يرفضون أنفسهم من المجتمع ، ويعانون أمراضا عقلية ، ويجعلون بينهم وبين الناس حاجزا ، وعند ذلك يكتبون ! لمن ؟ ... يكتبون لانفسهم ! ... هؤلاء قد تكون لهم روائع أدبية ولكن ثقافتهم لا ينبغي ان تكون هي القاعدة ، انما هناك استثناءات ، فالقاعدة هي أن تكون الثقافـة أدبا مجندا مسؤولا . أي ان الكاتب يجب أن يكون مسؤولا عما يكتب ومـا يقدمه للنـاس .

ذلك ان الكاتب أو المثقف في جميع مظاهر نشاطه يشبه المهندس ، فكما انّ المهندس يخطط البناءات بقواعد فنية معلومة وتبنى هذه البنايات فتراها مطابقة دائما لقواعد وقوانين معلومة محددة . ـ كذلك المفكر ورجل الثقافة هو مهندس العقل ، هو الذي يهندس عقل الامة ، ويخطط اتجاهها الفكري ، فعليه أن لا يضع فيها الا المسائل التي هي خاضعة لقواعد واهداف

فمهندس العقل او مهندس البنايات كلاهما في الحقيقة يقوم بمهمة ، كلاهما يخضع لقوانين لا للفوضى فهذا هو معنى المسؤولية بالنسبة للمثقف .

واذا تحدثنا عن المسؤولية ، فاننا نجد انفسنا بطبيعة الحال منجرين الى ان نؤكد بان لا مسؤولية الا في ظل الحرية ، والمثقف يجب أن يكون حرا

لان الحرية وحدها اساس المسؤولية ، والمثقف الذي يعيش تحت تهديد السلطات فتقول له يجب ان لا تهاجم احدا ، وان لا تكتب هذا ، أو يجب ان تكتب هذا ، هذا المثقف هو في الحقيقة مضطهد ، ولا يمكن أن يعيش بثقافته الا في ظل الحرية ، فالثقافة اذن تتضمن المسؤولية ، والانسان العقلي هو المثقف الذي يفرض عليه أن يكون مسؤولا امام المجتمع ، فعلى المجتمع أيضا ان يتركه حرا كما ان المفكر يجب أن يكون حرا ازاء المجتمع واذا كان من واجب السلطات أن تترك الحرية للمفكر ان يكتب ، سواء أراد الحاكمون ام لم يريدوا ، فان له الحرية أن يقول ما يشاء ، لانه مسؤول في كلامه مسؤول امام المجتمع ، ومسؤول امام القواعد التي تهدف اليها الثقافة ، وكذلك على المجتمع أن لا يضطهد المثقف وان لا يضطهد المفكر .

فالمفكر هو رائد الحقيقة ، هو الشاهد الامين على هذه الحقيقة هو الذي يرى الاشياء ليقول بان هذا حق أو هذا باطل ، فيجب أن تكون له الحرية ليقول في الحق هذا حق ، وليقول في الباطل هذا باطل ، ولا ينبغي لمجتمع أن يضغط عليه ليصبغ الحقيقة بصبغة الباطل ، او الباطل بصبغة الحقيقة .

انما الاساس هو هذه المسؤولية التي يجب أن يشعر بها ويضطلع بها المثقف نفسه ازاء المجتمع . فهو لا يكتب ليلهو ، ولا يكتب ليعبث ، ولكن يكتب لانه يرى أن في الكتابة نفعا للمجتمع ، لانه يرى أن الاهداف التي يعيش من اجلها المجتمع ، وهي اهداف الخير والحق والجمال ستقوم بالطريقة التي يراها ، اذن على المجتمع ان يترك له كامل الحرية ما دام الكاتب او ما دام المثقف يشعر بمسؤولية ما يقول أو ما يكتب أو ما يقدم للناس .

فالثقافة المتحررة اذن يجب ان تكون لمصلحة الجمهور ولكن كما تعلمون يجب ان تكون بعيدة عن تملق الجمهور بل ان تهذب الجمهور عوض ان تتملق له ، ويجب أن تكون متحررة ازاء السلطات ، ولا ينبغي أن يصبح المثقف جنديا يقول ما تمليه عليه السلطات ، بل يجب أن يبقى له كامل الحرية فيما يقول كما انه يجب على المثقف ان يكون متحررا ازاء المجتمع ـ يجب على المجتمع كذلك أن يهاجمه اذا قال شيئا لا يعتقده الناس ، ولكن على الاساس الذي قلت . وهو أن المثقف يجب ان يعتبر الشاهد الامين على الحقيقة وعليه أن لا يدس ولا يدنس ولا يحرف ، وأن يقدم لامته كل ما يراه من الوسائل يدنيها من الجمال والحق والخير .

ففي هذه الاطارات يمكن ان تظهر في المغرب ثقافة شعبية متحررة ، متممة لما نريد أن نبنيه من عدالة اجتماعية ومن تحرير للفرد حتى يصبح الجميع تترعرع شخصيته في ظل الحرية التامة ، وفي طريق الخير والحق والجمال .

وكيفما كان دور المثقف ، يجب ان لا ننسى بانه تأخر نوعا ما عن وقته بل ان الجماهير الآن تسبق الطليعة الفكرية ، فيجب أن نعرف بأن هذه الثقافة التي نريد يجب :

يجب ان تكون مسؤولـة

وان تكـون حـرة

وان تكون في خدمة الجماهيـر

هذه هي الشروط التي يمكن بها للفكر المغربي أن ينطلق مرة أخرى ، وبها يمكننا جميعا ان نبني حضارة سواء بالمعنى الالماني الـذي يمتـزج بالثقافة ، او حضارة بالمعنى العادي للكلمة ، والسلام .

● الوضع التشكيلي بالمغرب 78 ـ 79 : خطوط عامة

اذا كانت السنة الماضية (77 ـ 78) قد شهدت تحركا تشكيليا قويا ، بالمغرب ، على صعيد الفنانين كافراد ، او على صعيد التجمعات ، وخاصة « الجمعية المغربية للفنون التشكيلية » ، التي انجزت تجربة مدينة اصيلا ، فان هذه السنة جاءت باردة ، يحكمها الفراغ الصامت ، والتشتت غير المفاجيء ، باستثناء ما شهدته بعض قاعات العرض من تقديم اعمال مغربية محدودة او غير مغربية ، كما هو الحال بالنسبة لقاعة « العمل » بالدرجة الاولى .

صراع صامت اتى كنتيجة لما ترسبت عنه تجربة اصيلا ، هذا مؤكد ، لان هذه التجربة الغنية جدا ، اثارت جدلا عريضا لم يدون اغلبه بعد ، بقي شفويا ، او ذا طابع صحفي سريع . تجربة اصيلاً كانت في بدئها تظاهرة فنية تريد لنفسها ان تعيد النظر في طبيعة الممارسة التشكيلية بالمغرب ، من حيث علاقات الفنانين فيما بينهم ، ثم طبيعة العمل التشكيلي في المرحلة الراهنة بالمغرب ، وضروب وسائل الاتصال والمشاركة مع البيئة والجمهور . كانت التظاهرة ذات طموح متشعب ، وهو طموح شرعي ، وقابل للتحقق والاستمرار ، ولكن البدء غير المنتهي ، اذ تحولت هذه التظاهرة الى سوق استهلاك ذهب ضحيته اغلب الفنانين ، وربما التجربة نفسها . ولذا كان التشتت داخل « الجمعية المغربية للفنون التشكيلية » غير مفاجيء ، وبالتالي توقف النشاط طيلة هذه السنة . هل هو غياب مفتعل ؟ . اظن ان الحساب كان طويلا ومرهقا ، وبالتالي فاصلا بين حدين . المهم ان الجمعية دخلت مرحلة الصمت .

امام هذا الوضع نجد « جمعية التشكيليين المغاربة » تحرق جميع مكتسبات العمل التشكيلي بالمغرب ، فتنظم مع « نادي البحر الابيض المتوسط » لقاء « فنيا » . جرى منظموه باندفاع طائش لخدمة مصالح لا علاقة لها بالهم التشكيلي الذي يراودنا ، بطبيعة الحال لا يمكن ان نعطي اهمية بالغة لما قامت به هذه الجمعية ، لانها في اصلها تجمع بعيد عن البحث الفني ، همه الشهرة ، والالقاب ، والاتصال مع الاوساط الباريسية ، من غير ادراك لشروط هذه العلاقة .

يحتاج الحديث عن لقاء « نادي البحر الابيض المتوسط » الى محاسبة طويلة النفس ، ونستعمل هنا كلمة « محاسبة » ، لان الوضع الثقافي ، وطنيا وعربيا ، يضطرنا لنكون واضحين ، ومع ذلك لن نتمادى في كشف الاوراق الخفية لجملة ممن يدعون الممارسة التشكيلية ، لان اعمالهم شاهدة على تصور وعيهم الفني ، وعلى حالتهم النفسية المتارجحة بين الاضطرابات والشك في عملهم . في نفس الوقت سنترك موقفهم « الوطني » جانبا ، لانه لا يحتاج الى تعليق .

على مستوى المعارض الفردية تلقانا اعمال القاسمي ، الحساني ، بورقبة ، بنعاس ، ربيع ، المليباني ، بلامين السلاوي في المقدمة ، وبعدها معارض موزعة بين قاعات الفنادق ، ودور الشباب ، وقاعات وزارة الثقافة (باب الرواح) ، ثم تجمعات صغيرة في بعض المدن (تطوان كنموذج) ، ما هو الجديد في اعمال هؤلاء ؟ قد نكون مبالغين ، وغير موضوعيين ، اذا نحن اصبحنا نطالب الفنان بالجديد في كل عمل يقدمه ، لان الطفرة ، والتميز ، يحتاجان الى فترة زمنية اولا ، ورغبة صادقة في تحقيق التجاوز ثانيا ، ووعيا فنيا لا مندوحة عنه . بصفة عامة لم نفاجا كثيرا ، ولم نصطدم باعمال خارجة عن مالوف هؤلاء الفنانين . القاسمي هو الذي تشعر معه بالحاحه على البحث ، وفق شاعرية ملحمية تتدفق باستمرار . ويبقى الحساني باحثا في اطار التجربة الباريسية ، مع اعتماد التجميل اللوني ، وانحصاره في افق يتاتى من الخارج دائما . بورقبة مستمر ، ولكن التكرار يطغى على البحث . بنعاس يعيش حالة نفسية يحاول ان يمزجها بحالة فنية ، وربيع في تجريديته بين المهادنة والدهشة والمليباني باحث يهدونه عن قوانين للعمل ، بينما بلامين غارق في شكلانيته الشفافة ، والفارقة في حلم طفولي يكاد ينفجر من صمت المساحة وتساكن الالوان ، ويقفز السلاوي على تجربته في النحت فيقدم عملا يستقل فيه مادة مشكلة في اصلها ، وهي جذور الاشجار ، هذه التجربة تثير تساؤلات بطبيعة الحال .

لن نطيل ، فنحن هنا بعيدون عن تقديم تصنيفات ، ستبعدنا ، يقينا عن طبيعة هذه الكلمة القصيرة . ما يلاحظ بالتاكيد هو ان رجة ما لم تحدث ، وان المدهش فعلا غاب عنا (لا ياتي المدهش دائما) ، كنا ننتظر حضور اسماء اخرى ، ويظهر أن الامر لا يحتاج الى اصدار احكام ، بقدر ما يحتاج الى الملاحظة كمرحلة اولى .

اتتنا المفاجاة هذه السنة من قاعات العرض ، وخاصة « المعمل » ، مع معرض ايتيل عدنان ، معرض الفنانين اليوغسلافيين ، معرض آدم حنين . ربما كانت هذه المفاجأة المباغتة هي اقوى علاقة تشكيلية في هذه السنة . مع اتيل عدنان دخلنا المتاه ، سلسلة من الكتابة المتعددة المستويات ، نصا يحرق العين ، ويفتح مسام الجلد ، يخترق النخاع الشوكي ، ويجلسك بين الوان الضحك والبكاء .

كانت للفنانين اليوغسلافيين رجتهم الهادئة ، رسوم فطرية ، وتجريد هندسي ، وتعبير خطي ، كلها ممتزجة في حلم يستحيل القبض عليه بسهولة ، ورؤية انسقية يشدها الانسياب والعنف . مع هذه الاعمال اكتشفنا وجها آخر للغرب . آدم حنين هو الآخر مدهش ببساطته ، وغنائيته ، وبحثه عن الجذور ، في الطبيعة والانسان ، من خلال ماض سحيق (الفراعنة) ، وحاضر ساخن ، برموزه والوانه النباتية وورق البردي .

ربما كانت هذه الوجوه الثلاثة (لبنان ـ يوغوسلافيا ـ مصر) محركة اكثر من غيرها هذه السنة لموسمنا التشكيلي ، ولا شك انها طرحت على الفنانين والمهتمين سؤالا ، ليس بالضرورة معرفة حجمه الآن ، ولكنه بالتاكيد يعارض السكون الذي لمسناه في اغلب الاعمال المغربية المعروضة هذه السنة . هذا السؤال المربك ، المحير ، هو ما نحتاج اليه ، سؤال منبعث من داخل العمل التشكيلي وخارجه . ولكن هل طرح السؤال ممكن دائما ؟

لم يتسع الحوار هذه السنة حول الوضع التشكيلي ، وهذا طبيعي ، مع نوعية النشاط الثقافي بصفة عامة بالمغرب طيلة هذا الموسم . ومع ذلك يجب الا ننسى مبادرة جمعية « الانطلاقة الثقافية » بالناضور . ربما لاول مرة شاهدت هذه المدينة معرضا لجماعة جيدة من الفنانين المغاربة ، ولا شك أنه كان فرصة الاتصال بالجمهور في هذه المنطقة النائية عن مراكز النشاط الثقافي . ان هذا يدخل في اطار تحرك المدن الصغيرة ثقافيا ، وهو تحرك ايجابي يعطي العمل الثقافي بعدا وطنيا ، يكسر دائرة تمركز المثقفين الفنانين ، ويسمح بتوسيع مجال التواصل والحوار .

ويبقى استمرار صدور « الاشارة » علامة بارزة في العلاقة التي بدات بين المثقفين والفنانين ، وهي من غير شك تحتاج الى تجاوز ترسبات الماضي ، وضيق افق العمل الذي لم تعد تطيقه وضعية ثقافتنا الوطنية الديمقراطية .

ماذا نريد من هذه الكلمة ؟

ببساطة نقول اننا امام تحول في الوضع التشكيلي ، والوضع الثقافي الوطني بصفة عامة ، ولكنه بطيء ، تعرقله مثبطات ذاتية وموضوعية : انشقاقات ، خلافات ، عدم تبلور وعي نقدي متكامل ، ثم الوسائل والامكانيات ، تجهيز ، وتحويل ، على مستوى انشاء المؤسسات التشكيلية ، والدفع بالموجود نحو اهتمام اكثر . ليست هذه الاسباب شكلية ، ولا عابرة .

نرجو ان يكون هذا الصراع الصامت ، وهذا التشتت غير المفاجيء ، قادرين على تجاوز الطاريء ، من خلال التشبث بالمفهوم الوطني الديمقراطي للعمل التشكيلي بالمغرب ، في التحامه مع التجربة الطلائعية في بعض الاقطار العربية ، والعالم الثالث ، ولن يتم هذا الا في اطار تكتل قوي ، واع بضرورة الصراع الفني ، الذي هو جزء من الصراع الايديولوجي الذي تخوضه ثقافتنا التقدمية التي اخذت ملامحها الجديدة تتجه باصرار نحو تحقيق هويتها المتميزة .

محمد بنيس

● نـــدوة ابـــن رشـــد

لنقل ان كلية الاداب والعلوم الانسانية (الرباط) قد فتحت بابا حن اليه جميع المهتمين والمثقفين والباحثين بالمغرب . هذا الباب هو الندوات العلمية الكبرى التي ابتدات في السنة الماضية في ندوة ابن رشد وحاولت أن تتقدم اكثر في ندوة ابن خلدون . ما يجعلنا نؤيد هذه المبادرة الثقافية هو حكم المتتبعين لها من بين الطلبة واساتذة الكلية بمختلف الشعب والمثقفين الذين توافدوا على الرباط . كان الجميع متعجلا ومتلهفا حتى ضاقت قاعة ابن خلدون بجمهورها المعتاد ، فلم يجد الحاضرون امامهم غير مدخل الكلية ومساحتها متحملين تقلب الطقس من شدة ريح ومطر اتى هو الآخر في نفس ايام ابن خلدون ، لن نقم بتحليل كامل

لعطاءات مناظرة ابن خلدون (ولم نتطرق من قبل لمناظرة ابن رشد لاسباب موضوعية لا نرى فائدة في ذكرها) لان مثل هذا العمل يتطلب تاملا وقراءة واعية ، ونقدية بالتاكيد لمجمل المساهمات حتى نكون في موقع يسمح لنا بهذه القراءة . هل نقف الآن عند تمجيد مناظرة ابن خلدون ؟ يظهر اننا تجاوزنا مثل هذا الاسلوب في معالجة قضايانا وتدارس همومنا الثقافية .

منذ اكثر من قرن والحديث يطول عن ابن خلدون . اذا هذا الحديث عن الحديث الخلدوني لم يكن في يوم من الايام بريئا كما لم يطرح صدفة في مرحلة محددة من فكرنا العربي الحديث . هذا الرجوع الى ابن خلدون دليل على ان (المقدمة) كانت قد نسيت في الفترة الفاصلة بين كتابتها وبين الفترة الحديثة . اشار الاستاذ اركون لهذه النقطة وهي مهمة جدا ولا نريد ان نشـوه كلامـه بشأنهـا (سينشر النص مستقبلا) .

ربما كان من الصعب علينا تحديد سلاسل الحديث التي قامت بقراءة للحديث الخلدوني وخاصة المقدمة . فمثل مثل هذا يتطلب بحثا نحن لا ندعي القيام به الآن . ولكن يظهر ان الحديث الخلدوني كان وجها لصراع طويل بين بعض تيارات النهضة العربية والفكر الاوربي وخاصة الاستشراق خاصة في القرن 19 وبداية القرن 20 . كان الحديث الخلدوني اذا وجها من دروب التنازع و « المغالبة » بين الشرق والغرب ، بين فكر عربي أراد أن يثبت هويته اولا ثم اختصاره للزمن ثانيا وسبقه على الغرب ثالثا وفضله في تقدم الغرب رابعا . كانت قراءات الحديث الخلدوني اذا في هذه المرحلة متعددة ومتنوعة ليس لها وظائف علمية فقط وانما كان الامر يتعدى هذا النطاق لمواجهة حضارية عربية آنا واستبداد استعماري واستيلاب ثقافي آنـا آخـر .

كثر الحديث اذا عن ابن خلدون وعلم الاجتماع ، عن ابن خلدون والمادية الجدلية ، عن ابن خلدون والعقلانية ، باختصار قرىء الحديث الخلدوني قراءة غربية ومن ثم وضعت علامة استفهام كبرى على جميع ما كتب في تلك المرحلة .

ما لاحظناه في مناظرة ابن خلدون الحالية تعدد قراءات ابن خلدون كل قراءة تستجيب لاهتمامات المشارك . يمكن ان نطرح على انفسنا سؤالا : الم يكن من الممكن تحديد اشكالية محددة تكون مدار الحوار والنقاش ؟ قد يقال بان الفترة لم تات بعد لتنظيم مناظرة تحمـل مثل هذا الهم الكبير . اذن هل نحن في حفل تكريم لابن خلدون ؟ بالتاكيد لا . ان بعض العروض والتدخلات هزتنا بعنف وقالت لنا بصدق ان الحديث الخلدوني ما زال لم يقرأ بعد . مسافة طويلة ، متعبة بيننا وابن خلدون .

لم يكن موضوع المناظرة محددا وبالتالي لم تعط المناظرة نتائج علمية في مستوى مـا بذل من مجهود ومع ذلك نحن لسنا عدميين . هذه مناظرة قامت على اكتاف رجال نومن انهم حققوا كسبا ، ولو كان جزئيا في بدايته الا انه تحد واضح لمن يختارون للثقافة صمتا دائما .

بطبيعة الحال عمت الفوضى ، منع الصحافيون من دخول القاعة ، بقي الاساتذة المهتمون على الدرج ينتظرون سماع جملة ، والطلبة ينتظرون دورهم في التقاط جمل او التحمس للتصفيق . انها فوضى لعرس ثقافي ، لذلك نود ان ينتبه الساهرون على مثل هذه المناظرات الى ضرورة تحديد صلتنا ونحن في مواقع مواجهة الضلال والتحريف بما نرفعه من شعار وما نمجده كوعي لا كاسم بالاضافة الى توفير الشروط المادية التي تسمح بافادة واستفادة أكبر عدد ممكن من عشاق الثقافة في هذا البلد . ان مناظرة ابن خلدون تستحق من (الثقافة الجديدة) اكثر من هذا ولكن نرجو ان يمكننا المشرفون على امثال هذه المناظرات مستقبلا بالقيام بواجبنا الذي هو بالتاكيد واجبنا الوطني . وتحية لكل من كان وراء نجاح مناظرة ابن خلدون .

● ندوة التقاليد والتحرر ـ 2 الى 7 أبريل 1979 .

انعقدت بين 2 و 7 ابريل 1979 بكل من الرباط وفاس ندوة عن « التقاليد والتحرر » نظمتها جمعية الفلسفة بالمغرب تحت رعاية الفدرالية الدولية لجمعيات الفلسفة ، وبتعاون مع كليتي الآداب بكل من الرباط وفـاس .

هذه هي الندوة الثانية التي تنظمها الفدرالية الدولية لجمعيات الفلسفة في بلاد من بلدان العالم الثالث ، وفي بلد عربي بصفـة خـاصـة .

نتساءل اولا : هل يكون اختيار موضوع « التقاليد والتحرر » ابرازا لرغبة من الفدرالية في أن نكون الموضوعات التي تخص بها العالم الثالث موضوعات تستجيب لمشاكل خاصة فهم ذلك العالم ؟ لا نشك في أن الموضوع الذي اختاره المنظمون ذو اهمية خاصة بالنسبة لبلدان العالم الثالث وان كان في الوقت ذاته موضوعا يهم حتى البلدان النامية لان عملية التحرر عملية لا تنتهي ، ولان تجاوز الماضي من التقاليد وخلق تقاليد جديدة عملية لا تنتهي كذلك . الا أن السمة الخاصة التي يتميز بها التغير المجتمعي والشروط التي يتم ضمنها هذا التغيير في البلدان الساعية الى النمو يجعل مسالة العلاقة بين التقاليد والتحرر تطرح بصورة اكثر حدة . ذلك لان الاسئلة التي تلقى على طريق التحرر في هذه البلدان اكثر عددا واكثر تعقدا . ويكفي ان نذكر منها أن التحرر قد يطرح على هذه البلدان لا في صورة تجاوز لتقاليدها او تبنى لما هو ايجابي في هذه التقاليد وخلق ذاتي لتقاليد جديدة ، بل في صورة تبنى نموذج معين للتحرر لن يكون سوى تبني التقاليد التي تطرحها البلدان النامية كما لو كانت نموذجا للتحرر .

هناك اذن اهمية خاصة لهذا الموضوع بالنسبة للبلدان الساعية الى النمو ، وما يمكن أن ناخذه على الندوة ليس بالتالي اختيار الموضوع بل الطرق التي توصلت اليها تحليلاته المشاركين .

ويمكن القول بهذا الصدد ان التحليلات المثالية للمشكل هي التي سادت العروض التي القيت في الجلسات المختلفة للندوة . لقد ساد طابع التحليل المثالي لا بفضل مضمون بعض العروض التي القيت فحسب ، بل بما فرضته تلك العروض من توجيه على المناقشة التي سارت في اتجاه المشاكل المطروحة . وياتي هذا الامر نتيجة لعدد من الاغفالات التي إشار اليها عدد من المتدخلين في الندوة ، وان كانت هذه التدخلات لم تغط كل ثغرتها لان اغلب الذين قاموا بها انما قدموا انتقادات ولم يكونوا مهيئين لاعطاء تصور جديد كامل لطرح المشكل .

في عرضه الختامي ، أشار الاستاذ محمد عزيز الحبابي الى عدد من الجوانب التي اغفلت الندوة تحليلها والتي اثرت في نظره في حدود النتائج .

فمن القضايا التي تم اغفالها في نظر الاستاذ الحبابي اللغة كوسيلة للتقليد وكوسيلة للتحرر في الوقت ذاته . ففي البلاد المتخلفة نلاحظ عند المتكلم لغة هي مزيج من لغته الخاصة ومن كلمات آتية من لغة أجنبية هي لغة المستعمر . ان المتكلم في هذه الحالة يفقد خصوصية لغته وهو الامر الذي يضع في خطر التقاليد الخاصة لشخصيته .

ومن القضايا التي تم اغفالها كذلك مسالة الجنس وعلاقته بالتقاليد والتحرر . فمن شان معالجة هذا المشكل أن يؤدي بنا الى التعرض لمسالة علاقة التقاليد بالتحرر لا في صورة تجزيدية عامة وانما في صورة واقعية بصدد مشاكل معينة .

القضية الثالثة التي اهملتها الندوة ايضا هي العمل كوسيلة للتحرر . والواقع هو أن الندوة اهملت في نظر الاستاذ الحبابي ان تعالج الدور الفعال الذي يلعبه العمل في التحرر بصورته الايجابية .

واذا كنت قد عرضت اولا لهذه الانتقادات التي قدمها الاستاذ الحبابي لسير الندوة ، فذلك لاني اعتبرها نوعا من النقد الذاتي مارسته الندوة على ذاتها ، وذلك بالنظر الى مسؤولية الناقد بوصفه رئيسا لجمعية الفلسفة بالمغرب في تنظيم الندوة وفي اختيار موضوعها وفي الاتفاق على المساهمين فيها .

ان هذه الانتقادات التي ذكرها الاستاذ الحبابي تبين لنا ان الاغفالات التي اغفلتها الندوة ، قد كانت تتعلق بالذات بمشكلات واقعية كان من الممكن لو عولج موضوع الندوة من خلالها ان ينقذها من الطابع التجريدي الذي اتصفت به اغلب العروض المقدمة .

ولكن الاستاذ الحبابي لم يكن وحده من نبه الى الجوانب التي اغفلتها الندوة ، بل ان اساتذة آخرين قد عملوا على ابراز جوانب اخرى تم اهمالها ، كما عملوا على نقد وجهة النظر المثالية التي طغت على هذه الندوة . ولكن بما ان اغلب هؤلاء الاساتذة قد عبروا عن آرائهم تلك في جملة من التدخلات التي جاءت بعد العروض ، فان ما صرحوا به لم يكن الا ذكرا لعدد من النقط التي يمكن الاعتماد عليها في القيام بتحليل موضوعي للمشكل .

وهكذا مثلا اكد الاستاذ الدريج انه كان على الفلاسفة المشاركين في الندوة أن يطرحوا على انفسهم السؤال الآتي : هل من المشروع أن يتناول مشكلة مثل هذه فلاسفة ؟ باي حق

يقومون بمثل هذا التنـاول ؟

وقد استغربت في الواقع ، في تدخل تلا سؤال الاستاذ الدريج ، من كون بعض المشاركين قد وصفوا وجهة النظر هذه بوكنها لا أدرية (حسن حنفي) . ذلك لاني أرى أن هذا التساؤل كان مشروعا ، وقد كان يهدف في حقيقة الامر الى أن يدفع بالمساهمين في الندوة الى الاستعانة بالعلوم الإنسانية الاخرى . فمسألة علاقة التقاليد بالتحرر ليست مسألة فلسفية تقليدية . ان للمشكلة مستويات نفسية ومجتمعية وتاريخية، وكان ينبغي للوصول الى فهم موضوعي عدم اهمال اي جانب منها ، ولقد اكدت شخصيا أن الاهمال الاساسي كان هو اهمال التاريـخ ، ليس التاريخ بمعنى الاحداث التي تروى ، وانما التاريخ من حيث هو اللحظة الفاعلة المؤثرة . لقد كان على الندوة أن تضع على نفسها السؤال حول علاقة ظرفنا التاريخي الخاص بطرحنا لمسألة علاقة التقاليـد بالتحـرر .

واعتقد أن تدخلات أساتذة آخرين قد سارت في هذا الاتجاه مؤيدة اياه بصور اخرى من التعبير وأشكال اخرى من التحليل ، ففي نفس الاطار تساءل الاستاذ حليم عبد الجليل : من يتحرر ؟ ولاي هدف يتحرر ؟ وقد بين الاستاذ حليم ان الشروط المجتمعية المختلفة تجعل علاقة التقاليد بالتحرر تطرح بصور مختلفة وعلى مستويات متباينة تستجيب لتباين الشـروط المجتمعيـة والظرف التاريخي . والواقع هو أن تساؤل الاستاذ حليم قد جاء ضدا على الاتجاه الذي سارت فيه عروض بعض الاساتذة الاوربيين المشاركين في الندوة ، حيث كان هؤلاء يتناولون المشكلة بصورة تعميمية قد توحي بانها تدرك عمق المشكل لانها تدركه في شموليته ، ولكن التـي توقع في هذه الحقيقة ـ الوهم من حيث أنها تغفل الجوانب الواقعية الخصوصية لهذا المشكل .

واكد الاستاذ احمد العلمي حمدان ان علينا لكي نفهم معنى التقليد أن ندرك خصوصية كل ثقافة . وقد جاء تدخله بصفة خاصة ضدا على ما أكده أحد المشاركين في الندوة وهو الاستاذ موتسوبولوس Motsoupolos عميد جامعة اثينا الذي قدم التراث اليوناني على أنه تراث انساني ذو قيمة شمولية . ولقد اكد الاستاذ العلمي ضدا على هذا أننا وحتى لو بقينا ضمن التقليد الفلسفي وحده مضطرون الى أن نقول ان المنطق الذي هيمن على الفكر الاسلامي ليس هو ذاته المنطق الذي ساد الفلسفة اليونانية .

اما الاستاذ عبد الصمد الديالمي فقد اثار انتباه المشاركين الى ثلاث نقط . الاولى هي ان علينا ، ولكي نفهم مفهوم التقاليد في معناه الواسع ، الا نقتصر على النظـر في التقليـــد المكتوب وأن نهتم بالقدر ذاته ، وربما اكثر من ذلك ، بالتقليد الشفوي . والنقطة الثانية هي ان علينا أن ننتبه الى علاقة التقليد بالسلطة . فالتقليد لا يغدو كذلك الا اذا كانت هناك سلطة هي التي تدعم وجوده . وقدم الاستاذ الديالمي مثالين لتاكيد فكرته هذه . يتعلق المثال الاول بالتقليد الفلسفي الذي بدأ مع أفلاطون ، ومن الواضح أن هناك علاقة بين النسق الافلاطوني الذي كان بداية هذا التقليد وبين الأوضاع السياسية في اليونان المعاصرة لافلاطون . ويتعلق المثال الثاني الذي لم يصبح تقليدا أو سنة الا بعد أن اصبح سلطة ، وذلك لانه قبل ذلك كان الاسلام حركة تهدف الى تثوير التقاليد التي كانت سائدة . ويمكننا في الواقع أن ندرك العلاقة بين هذه النقطة الثانية وبين النقطة الاولى عندما ندرك أن السنة لا تصبح مدركة من طـرف الجماهير الا عن طريق التقليد العرفي اي التقليد الشفوي لا عن طريق الكتابة والقراءة وهـو الشرط الغير متوفر في جميع الاحوال . اما النقطة الثالثة التي نبه اليها الاستاذ الديالمي فهي مفهوم التقدم الذي يقدم لنا كبديل للتقاليد .

فهذا المفهوم يتقدم لنا من جهة أولى كمفهوم نشأ لدى أوربا الراسمالية انطلاقا من القرن الثامن عشر ، أو في الفكر الماركسي على انه التقدم الحاصل على اثر مراحل معينة ضرورية . ولكننا في كلتا الحالتين أمام مفهوم ذي اتجاه واحد . ينبغي اذن أن نعي الوضعية التي يطرح فيها بالنسبة الينا مفهوم التقدم والا نأخذه كما لو كان مفهوما مجردا عن كل ظرف تاريخي في نشأته وتطـوره .

هذه بصفة عامة جملة الاغفالات التي عمل عدد من الاساتذة على ابرازها . وانما بدأنا بذكر هذه الإغفالات لكي نستطيع أن نفهم في ضوئها بعض العروض التي القيت والتي قلنا ان الطابع المثالي قد كان متغلبا على بعضها . ولكننا لا نريد في الواقع أن نقول بأن كل التدخـلات أو العروض قد اتسمت بهذا الطابع . فهناك عروض لامست جوانب ايجابية من المشكل ، وهناك

عروض تمكنت من عرض بعض جوانبه الاخرى بصورة موضوعية .

من بين المشاركين في الندوة بعروض ، تمثل التصور المثالي للمشكل عند الاساتذة : أندري مرسيي **A. Mercier** (جامعة بيرن) وموتسوبولوس **Motsoupolos** (جامعة أثينا) وجان فيال باران **Parrain** (جامعة ديجون ـ فرنسا) على أننا لا نستطيع في الواقع في هذا العرض الوجيز أن نعطي نظرة عما جاء في هذه العروض جميعها ، وسنكتفي بأن نقدم بعضا من الافكار التي وردت في عرض الاستاذ « مرسيي » كنموذج لهذا الاتجاه في التحليل .

لقد قدم الاستاذ « مرسيي » عرضه تحت عنوان : هل يتضمن التحرر فقدانا بالشعور بما هو مقدس ؟ والجواب المبدئي الذي أوحى به المحاضر منذ بداية عرضه والذي اختتم به عرضه هو انه ليس هناك تلازم بين التحرر وبين فقدان الشعور بما هو مقدس . الا أن فهم هذا الجواب يقتضي منا ان نفهم المعاني الخاصة التي حدد بها المحاضر معنى المقدس ومعنى التحرر ومعنى الشعور بالقداسة . فللمقدس معنيان . معنى مطلق وهو أن يكون المقدس خارج الفهم الاساسي وفوق القدرة الانسانية . ومعنى اضفاء القداسة وهو العملية التي يمكن أن نجد أن الانسان يقوم فيها باضفاء صفة القداسة على بعض الموضوعات كالطبيعة أو المجتمع أو العقل . الا أن هناك عملية أخرى معاكسة لهذه برزت في عصور مختلفة وتركزت في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر وهي التي كانت تعمل على نزع صفة القداسة عن كل الموضوعات الاخرى وعلى الاتجاه الى الانسان . وتتمثل هذه العملية في نزعات فلسفية حديثة ومعاصرة مختلفة . ضمن هذا المعنى للمقدس يمكن الحديث عن تقاليد . وهكذا نجد في الديانات الكبرى الثلاث تقاليد تضفي صفة القداسة على بعض الموضوعات او المواقف . وأما عند الشعوب البدائية فان الانسان يكون محاطا بما هو مقدس الى حد ان عملية بناء دار مثلا يكون من بين شروطها امكان لسكناها من طرف كائنات مقدسة .

أما التحرر فهو يعني في نظر الاستاذ « مرسيي » الانتقال في الكينونة من الاقل ملأ الى الاكثر ملأ . وبهذا المعنى لا يتمثل التحرر في الملكية الاكثر ولا في الاكتساب الاكثر للحقوق . وضمن هذا التصور المثالي للتحرر يتمكن اذن المحاضر من ان يقول بانه لا يرى تعارضا بين التحرر بذلك المعنى وبين المعرفة او الوعي بما هو مقدس ، بل ويعبر الاستاذ مرسيي عن ذلك بقول ذي دلالة عندما يقول : « انه ليس هنالك تخوف من وجود أي تعارض بين عملية التحرر المتقدمة وبين الوعي المقدس » .

ولا شك أن المقارنة بين مضمون هذا العرض الذي اوجزناه هنا وبين جملة الانتقادات التي سبق لنا أن قدمناها كافية لان تبين ان هذا التحليل كان بعيدا في الواقع عن ملامسة الجوانب الواقعية من المشكل . وهذا البعد في الواقع هو الذي يبرر السؤال الذي القاه البعض في الندوة حول مشروعية تناول الفلاسفة لمثل هذا المشكل في الابعاد المجتمعية والتاريخية والنفسية . ولم يجد المحاضر من رد يدفع به مثل الانتقادات التي ذكرناها ، سوى أن يرجع بالصورة المعتادة لدى الفلاسفة المثاليين المعاصرين الى القول بان التفكير الفلسفي تفكير شمولي وان التحليل الذي قام به كان يجري ضمن هذا الاطار الشمولي ، الا اننا نريد ان نفرق بين الشمولية الوهمية للتفكير الفلسفي تلك التي تريد أن توجد فوق كل المعارف والمعطيات العلمية وبعيدا عنها ، وبين التركيب الفلسفي الذي يأخذ فيه الحديث الفلسفي بكل المعارف والمعطيات العلمية المتوفرة لديه بصدد مشاكل معينة .

واذا كان هذا الاتجاه الاول الذي عرضنا لوجهة نظره قد ظل بعيداً عن كل تحليل عيني لعناصر المشكلة ، وعن تلمس جوانب الخصوصية في طرح المشكلة في بلاد من البلدان الساعية الى النمو بصفة عامة وفي بلاد عربية اسلامية بصفة خاصة ، فان عرضا آخر كالذي قام به الاستاذ حسن حنفي (عين شمس ـ القاهرة) قد حاول أن يوفر هذا الشرط .

عنون الاستاذ فتحي عرضه بـ « نحن وعصر الانوار » . وهذه « النحن » بالنسبة للاستاذ حنفي لم تكن تعني بصورة مجردة الانسانية باكملها ، بل كانت تعني بالنسبة اليه وهو المفكر العربي المسلم ، نحن في العالم العربي الاسلامي كجزء مما نسميه العالم الثالث ، فعندما نأخذ « نحن بهذا المعنى سنفهم لم جعل الاستاذ حنفي من مهمته ان يبحث عن علاقتنا بعصر الانوار . فالمشكل قد يبدو متجاوزا بالنسبة للمفكرين الاوربيين ، ولكنه ليس متجاوزا بالنسبة الينا . يمكن أن تكون أوربا قد تجاوزت عصر الانوار او ان تكون مسالة علاقتها به في صورة

خاصة ، ولكن هذه العلاقة بالنسبة الينا شيء آخر لان المرحلة التاريخية التي نعيشها تختلف عن تلك التي تعيشها أوربـا .

اما عصر الانوار فهو قد يعني في نظر الاستاذ حنفي عصر الانوار الاوربي في القرن الثامن عشر ، ولكنه قد يعني أيضا بالنسبة لنا العصر الذي مثله مفكرونا العقلانيون كالمعتزلة . فلقد أخذ المعتزلة بمفاهيم متقدمة للعقل وللطبيعة وللانسان وللحرية اذا ما قيست بالمفاهيم السائدة في مجتمعاتنا اليوم . وكذلك مفكرو الانوار الاوربيون . أما نحن ، هذا المجتمع العربي في اللحظة التاريخية الراهنة ، فاننا نوجد في حالة تأخر بالنسبة لكل عصور الانوار سواء منها العربية الاسلامية أو الاوربيـة .

لا بد اذن من دفع هذا التأخر ، ويقترح الاستاذ حنفي لذلك حلا خاصا . ونود أن نصوغ هذا الحل المقترح في صيغة الندوة أي بالبحث عن علاقة التقاليد بالتحرر . فالاستاذ حنفـي يؤكد اذن أن هنالك في ماضينا تقاليد ثقافية وفكرية ايجابية وأن تحررنا يكون بالعودة الـى هذه التقاليد . في خلال الندوة بكاملها ظل الاستاذ حنفي يعرف التقاليد بالنسبة الينا على انها الميراث الثقافي الذي تركه الآباء والاجداد ، وبما اننا نوجد في حالة تأخر بالنسبة لهذا الميراث الثقافي وكذلك بالنسبة لعصر الانوار الاوربي ، فان التحرر يكون بالنسبة الينا بالرجوع الى القيم الايجابية لكل عصور الانوار للانطلاق منها .

لا شك في ان في هذا العرض جانبا ايجابيا يتمثل في كونه يطرح مشكلة تحررنا المعاصر ويحاول أن يبحث في الصورة التي يمكن ان تكون لهذا التحرر بالتقاليد التي ورثناها عن ماضينا . الا أن الاقتراح الذي قدمه الاستاذ حنفي يلزمنا بعدة ملاحظات .

1 ـ أن التعريف الذي قدمه الاستاذ حنفي للتقاليد وحصر في الميراث الثقافي أمر لا يمكن عند الاخذ به اعتبار المشكلة في كل جوانبها . وقد سبق لنا أن أوردنا ملاحظة الاستاذ الديالمي التي ركز فيها على ضرورة النظر في التقاليد الشفوية ايضا باعتبارها جزءا هاما من مجمـوع مـا نـدعـوه بالتقـاليـد .

2 ـ يلاحظ الاستاذ حنفي أننا نوجد في حالة تأخر بالنسبة لكل عصور الانوار ، وهذا شيء يمكن ان نتفق معه فيه . ولكنه يقترح علينا كصورة لتحررنا المعاصر أن نرجع الى التقاليد العقلانية لهذه العصور ، وهذا هو الامر الذي نراه موضع نقاش . ذلك أن المفهوم الذي حدد به الاستاذ حنفي عصر الانوار يظل مفهوما غامضا باعتبار الفترات التاريخية المختلفة التـي يمكن أن يشير اليها . لقد ركز الاستاذ حنفي على الفكر المعتزلي ، ولكن هذا الفكر وجد في فترة تاريخية متباينة ، ولذلك نجده يشير الى الفكر العقلاني بصفة عامة ، وهذا فضلا عـن حديثه عن عصر الانوار الاوربي . فالمشكلة الاولى التي تطرح علينا عندما نريد أن نطبق اقتراح الاستاذ حنفي هي : ما عصر الانوار الذي نريد العودة اليه ؟ ان الامر ليس سهلا والعودة الى ميراثنا الثقافي في صورته الايجابية يقتضي القيام بعدد من الدراسات التي تمكننا مـن ان نميز في تراثنا بين ما تقتضيه اللحظة التاريخية الراهنة وبين ما تجاوزته مقتضيـات هـذه اللحظة . ومعنى ذلك انه سيكون علينا ان نتمثل كل ما هو ايجابي في تراثنا وفي تراث الانسانية .

3 ـ الملاحظة الثالثة هي أن الرجوع الى عصر الانوار ، الرجوع الى التقاليد الثقافيـة الايجابية لن يكون وحده كافيا لتحقيق التحرر . ذلك لان المفاهيم التي جاءت بهـا عصـور الانوار لا ينبغي أن تقاس على تأخرنا بالنسبة اليها فحسب لكي تعتبر من أجل ذلك مفاهيم متقدمة ، ولكنها ينبغي أن تقاس أيضا بالنسبة لتقدم عصرنا حيث تبدو عندئذ مفاهيم متجاوزة . فمهما يكن من تقدم المفاهيم التي بناها المعتزلة أو غيرهم عن العقل والطبيعـة والانسان والحرية ، فان هذه المفاهيم متجاوزة بالنسبة للتحليل المعاصر الذي ينطلق من معطيات أشمل مما كان ينطلق منه مفكرو عصر الانوار .

يمكن أن نصوغ الحل الذي اقترحه علينا الاستاذ حنفي بالصورة الآتية : ان التحـرر بالنسبة الينا لا يتوقف على تحقيق قطيعة مع التقاليد الحالية الغير ملائمة لكل تطور والناتجة عن عصور الانحطاط ، ولكنه يتوقف فوق ذلك على العودة الى التقاليد الايجابية في الماضي وعلى الارتكاز على هذه العناصر الايجابية . وبذلك فان علاقة التحرر بالتقاليـد لا تكـون علـى صيغـة تنـاقـض

وإذا كانت وجهة نظر الاستاذ حنفي قد تجاوزت من جهة أولى الطرح المثالي للمشكل بمحاولتها التركيز على مشكلة علاقة التقاليد بالتحرر كما تطرح بالنسبة لنا متجنبة بذلك السقوط في التعميم الشمولي الواهم ، فانها لم تستطع من جهة اخرى أن تقدم حلا يشمل كل جوانب المشكل . ذلك لان الاستاذ حنفي الذي يكتشف أننا لسنا متخلفين بالنسبة لمعاصرينا فحسب ، بل بالنسبة لماضينا ايضا ، يقترح العودة الى القيم الايجابية لهذا الماضي . وبذلك يصبح الرجوع الى الماضي الايجابي الوسيلة الاساسية لتحقيق التحرر الذي يتطلبه الحاضر والمستقبل .

بالاضافة الى وجهة نظر الاستاذ حنفي التي ظلت في نظرنا مترددة في طرحها للمشكل وجد في الندوة اتجاه آخر مثله في الندوة وبصورة مختلفة كل من الاستاذين مراد وهبة (مصر) وميشيل ماركوفيتش (يوغوسلافيا) .

قدم الاستاذ مراد وهبة عرضا تحت عنوان : التطور والتحرر . وقد بدأ الاستاذ وهبة عرضه بتاكيد القضية التالية : التطور ممهد للثورة ، والثورة نتيجة للعقل . ولذلك وجد الاستاذ وهبة أنه من الضروري أن ندرس علاقة العقل بالثورة . وهنا يصل المحاضر الى أن العقل الذي يقوم بالثورة هو العقل الثوري . وقد وجد مفهومان للعقل . العقل من حيث هو ملكة ترنسندانتالية للتأويل ، ومن حيث هو سكوني ومتلقي ، ويمكن أن نقول بأن العقل ، منظورا اليه كذلك ، قد وجد عند تيارات فلسفية كثيرة انطلاقا من ارسطو والى ديكارت . في نظر الاستاذ وهبة ليس هذا هو العقل الذ ي يمكن أن يكون مصدرا للتطور ولا للثورة لانه عقل ثوري . ولكن هناك مفهوما آخر للعقل وجد انطلاقا من هيغل الذي كان أول من بحث في العلاقة بين العقل والتاريخ ، فلم يعد العقل عندئذ ذلك المعطى السكوني المتلقي الثابت . وقد تبنى ماركس وجهة نظر هيغل هذه فانتقد الاسس الابستمولوجية للعقل الذي كان يأخذ به الفلاسفة وتحدث عن العقل لا من حيث أن وظيفته هي تأمل الواقع بصور مختلفة بل من حيث أن وظيفته هي تغيير الواقع .

ضمن هذا التصور اذن يقدم لنا الاستاذ وهبة التحرر كنفي مستمر للتقاليد .

ومن الواضح أن هذه الوجهة من النظر التي يقدمها لنا الاستاذ وهبة قد انتبهت الى جانب أغفله عرض الاستاذ حسن حنفي وهي أن في التحرر عملية نفي .

أما الاستاذ ميشيل ماركوفيتش فقد أكد على ضرورة ربط التحرر بشروطه التاريخية . فالتحرر لا يمكن أن يتصور في نظره الا كعملية ديناميكية ، حينما تنفتح أمامنا آفاق جديدة وحينما نصبح على قدرة في التصرف . وبفضل هذا التصور للتحرر كحركة ديناميكية مرتبطة بشروط تاريخية ينتقد الاستاذ ماركوفيتش الطابع التجريدي لمفهوم الحرية في الفلسفات الليبرالية التي لم تستطع أن تقدم لنا الا مفهوما سيكولوجيا عن الحرية .

ان التحرر الحقيقي عملية شاملة في نظر الاستاذ ماركوفيتش وهو يتطلب ضرورة اكتساب وعي نقدي ، والحد من سلطة المؤسسات ، والمشاركة الفعلية في القرار والمسؤولية . وقد تحدث المحاضر عن مستويات للتحرر فذكر التحرر السياسي ، والتحرر الاقتصادي من الاستغلال الراسمالي ، والتحرر الثقافي .

الا أنه نبه أن التحرر الاشتراكي اذ يكون مناسبة للتحرر من التقاليد المجتمعية التي ترافق وجود المجتمع خاضعا للمؤسسات الرأسمالية ، فانه قد لا يصل مباشرة الى خلق تقاليد جديدة بناءة ، ذلك لانه قد يسقط في البيروقراطية ، وضدا على هذا اقترح الاستاذ ماركوفيتش العمل لا على ايجاد ديمقراطية تمثيلية بل عل ى ايجاد ديمقراطية المشاركة وهي تؤهل الفرد للمشاركة في اتخاذ القرار والمسؤولية ، وهي التي تضمن حقوق الاقليات وتحترم خصوصياتها الثقافية .

وقد كانت ميزة هذا العرض الخاصة انه حاول انطلاقا من تجارب يوغوسلافيا أو بلدان اشتراكية أخرى أن ينفذ الى المسالة المطروحة في الندوة . لذلك فقد تضمن هذا العرض عناصر ايجابية كانت قادرة على اثارة النقاش في اتجاه موضوعي .

لقد حاولنا أن نقدم هنا عرضا عما جرى في هذه المناظرة التي نرى انها كانت مناسبة لمناقشة مشكلة لا يمكن أن ننكر أهميتها ، والتي مكنت من لقاء اساتذة مغاربة باساتذة أجانب

ومكنت من التعرف على وجهات نظر مختلفة . إلا ان المهم لم يكن في الحقيقة هو اللقاء بل كان هو المشكل .

ولذلك يجدر بنا ان ننبه الى ان تنظيم مثل هذه الندوات في المستقبل ينبغي ان يراعي عند اختياره للمشاركين قدرتهم على ان يساهموا بالفعل في تقديم حلول او مقترحات بحلول واقعية ، لا ان يوقعنا في وهم تعميم لن يكون في نهاية الامر الا تعميما ايديولوجيا .

محمد وقيدي

« آفاق » : عدد خاص بالقصة القصيرة في المغرب ـ مارس 79 .

جاء هذا العدد متميزا ، يعطي لآفاق بعضا من هويتها التي تبحث عنها ، بعد غياب ثلاث سنوات (73 ـ 76) ، وصدور عددين ضمن السلسلة الجديدة يغلب عليهما طابع التجميع . لذا كان طبيعيا ان يتعاطف القراء والمهتمون مع هذا العدد الخاص . لم يحدث هذا صدفة ، فاصدار عدد عن القصة القصيرة اصبح ملحا ، بحكم التحولات النوعية والكمية التي يشهدها هذا الجنس الادبي في مغرب السبعينات .

اذن جاء هذا العدد ليقدم حصيلة متكاملة عن طبيعة المتغيرات القصصية التي تسمح لنا ، داخل المغرب وخارجه ، من قياس درجة التحولات الابداعية ، ما دام العدد يضم اجيالا واختيارات . اكيد ان تعدد الاسماء والتجارب قد عبر عن نفسه بحرية ، وهذا شيء مهم ، لان « آفاق » ، كمجلة لاتحاد كتاب المغرب ، مفروض عليها عكس هذا التنوع في الاسماء والاختيارات ، حتى تكون في مستوى خدمة التوجه الديمقراطي للعمل الثقافي التي تحلم به .

لم يتوفر العدد على دراسات كثيرة ، ولا لوم في هذا على الاتحاد ، يعود اللوم على الباحثين والمهتمين من النقاد الذين لم يبادروا الى المساهمة في هذا العمل ، ومع ذلك فان حضور النصوص النقدية لكل من محمد برادة ، واحمد اليابوري ، والبشير الوديني ، ونجيب العوفي ، لها دلالتها واهميتها في آن معا ، انها مدخل مرة ، واقتراب مرة اخرى . تفتح امكانية حوار حول الوضع القصصي بالمغرب ، تطورا وتزامنا .

ثلاثة وعشرون قصاصا في هذا العدد ، هل هذا هو كم القصاصين المغاربة ؟ هل هو الممثل لجميع الاتجاهات ؟ بالتاكيد لا ، ولكنه يسجل لحظة هامة من لحظات تطور القصة القصيرة بالمغرب .

ان « آفاق » بهذا العدد تنسلخ عن عادتها ، وتدخل مرحلة نرجو ان تشهد ، رفقة المنظور الذي خرج به المؤتمر السادس للاتحاد ، انطلاقة اكثر رسوخا في العمل الموحد المتكامل ، الدافع بالضرورة الى تجميع اعضاء الاتحاد ، كتكتل فعال ، من خلال ممارسة مسؤولة تتجاوز حمل بطاقة العضوية ، والاكتفاء بتسطير المطالب ، وتقييد البرامج ، ممارسة لها القدرة على بلورة وعي مغاير بطبيعة الارتباط بهذه الجمعية التي لا يمكن ان تؤكد تقدمها الملموس بغير تكاثف كل الاعضاء المنتمين ، بمختلف امكانياتهم ، وفي مقدمتها الكتابة . مسؤولية نتحملها جميعا .

جمعية الانطلاقة الثقافية ـ بالناظور .

كانت « الثقافة الجديدة » المجلة التي سارعت الى تدعيم جمعية « الانطلاقة الثقافية » (انظر ع. 9) حين الاعلان عن تاسيسها . هذا واجبنا ما دام بيان الجمعية متميزا بطرحه الواعي للوضع الثقافي بالمغرب .

وقد توصلنا مؤخرا ، بتقرير عن الجمع العام لهذه الجمعية ، الذي انعقد بتاريخ 25 مارس 79 ، ولكنه تقرير مختصر لم يسمح لنا باستيعاب بعض ما جاء فيه ، ومع ذلك ننشره ، مرفقا بتساؤلين نرجو ان نتوصل من الجمعية بجواب في شانهما :

1 / لم نفهم المقصود من « اننا لسنا ضد احد » ، خاصة ونحن نعيش صراعا ثقافيا يتطلب منا تعيين مع من نحن ، وضد من ، ولا بد من التاكيد على ان كل « ثقافة جديدة » هي ثقافة وطنية ديمقراطية ، ذات بعد تحرري

متكامل ، ثقافة تواجه الاستيلاب بجميع تصنيفاته . اذن ما معنى « اننا لسنا ضد أحد » ؟

2 / يحتاج الملتمس الخاص باللغة والثقافة الامازيغية الى توضيح . ان الثقافة الشعبية بالمغرب تشكل ، رغم اختلاف اساليب تعبيرها ، ووسائل اداتها ، في جوهرها ، وحدة ، نحن في حاجة الى الكشف عنها وتوظيفها ، وفق منظور تقدمي عربي وحدوي ، في خلق هذا الانسان الجديد الذي نحلم به . وقد كان بودنا ان يطالب الملتمس بانشاء معهد يتولى الاهتمام بالثقافة الشعبية ككل ، بمختلف أساليب تعبيرها ، ووسائل اداتها ، خاصة ونحن نعلم ان جماعات رجعية ، شوفينية ، تعمل من اجل تنفيذ مشروع استعماري ما يزال اصحاب التفرقة يدعون اليه . نحن مع الثقافة الشعبية ، ذات التوجه العربي ، بجميع الفروقات التي تميزت بها تاريخيا ، اذن لسنا ضد الامازيغية ، ولكن في حاجة لتفسير من اصدقائنا اعضاء جمعية « الانطلاقة الثقافية » بالناظور ، حتى تكون علاقاتنا واضحة .

وهذا نص ما توصلنا به :

تحت شعار « لنطور العمل الثقافي في اتجاه خلق انسان جديد متحرر من عقد الخوف والانطواء على الذات » عقدت جمعية الانطلاقة الثقافية جمعها العام الاول في جو من الحماس والشعور بالمسؤولية . ففي كلمة الافتتاح التي القاها رئيس الجمعية ، بعد ان حيى فيها اللجنة التحضيرية التي ساهمت في بلورة فكرة الانطلاقة واظهارها الى الوجود يوم 20 يناير 78 ، وبعد ان حيى جميع المثقفين وغير المثقفين الذين ساهموا في مختلف انشطة الجمعية ، وبعد ان حيى اسرة الشبيبة والرياضة بالناظور التي مهدت السبيل للجمعية للقيام بانشطتها بدار الشباب ، تطرق الى التذكير باهداف الجمعية وآفاقها حيث قال بالخصوص :

ان قناعتنا : هي ان العمل الثقافي انجع اسلوب لخلق الانسان المغربي الجديد ، انسان متفتح متحرر من عقد الخوف والانطواء على الذات .

اسلوبنا : هو ربط الثقافة والعمل الثقافي بالواقع اليومي المعاش .

هدفنا : هو المساهمة في خلق ذلك الانسان الجديد المتحرر من عقد الخوف والانطواء على الذات ، من خلال عمل ثقافي يرمي الى بلورة وتطوير الامكانيات الابداعية لدى الفرد والجماعة

وبخصوص العلاقة بين الجمعية والافراد او الهيئات ، جاء في كلمة الرئيس ما يلي : اننا لسنا ضد احد ، ونتمنى ان تربطنا علاقات حميمة مع جميع من يؤمن بالحد الادنى لمفهوم العمل الثقافي لدينا . اننا لسنا ضد احد ، اننا فقط نريد ان نمارس حقا من اقدس الحقوق : حقنا في صياغة شعورنا واحساساتنا في شكل شعر او غناء او موسيقى او اي شكل فني اخر ، وفي استعمال ومداولة اللغة التي رضعناها مع لبن امهاتنا . وعلى هذا الاساس نطالب من الجميع ان يعاملونا ، والا يدفعوننا او يرغموننا على اتخاذ مواقف تخرج عن اطار اهدافنا وامكانياتنا .

وبعد كلمة الافتتاح صادق الجمع العام بالاغلبية المطلقة على جدول الاعمال الذي تضمن تلاوة التقريرين الادبي والمادي ، وتعديل القانون الاساسي ، والتصويت على لائحة المرشحين للعضوية الشرفية المقترحة من طرف المكتب ، والتصويت على الملتمسات ثم استقالة المكتب الاداري القديم وانتخاب المكتب الاداري الجديد . وقد اسفرت اعمال الجمع العام على ما يلي :

1 ـ المصادقة بالاجماع على التقريرين الادبي والمادي ،

2 ـ تعديل بعض فصول القانون الاساسي المتعلقة بالاهداف والعضوية والجمع العام ،

3 ـ منح العضوية الشرفية بالاغلبية المطلقة لكل من : الزمبيبري محمد ، بنعاس بغداد واحمودي العربي ،

4 ـ المصادقة بالاجماع على الملتمسات الآتية :

ـ ملتمس حول احداث تجهيزات ثقافية ،

ـ ملتمس حول استعمال قاعات العرض السينمائية من طرف الفرق الموسيقية والمسرحية والنوادي السينمائية ،

ـ ملتمس حول اللغة والثقافة الامازيغية (وقد اعقب المصادقة على هذا الملتمس تصفيق حار استمر حوالي خمس دقائق)

ملتمس حول احداث تجهيزات ثقافية

ان اعضاء جمعية الانطلاقة الثقافية ، المجتمعين في اطار جمعهم العام المنعقد بتاريخ 25 مارس 79 ليسجلون بكامل الاسى والأسف الاهمال الذي تعرض له اقليم الناظور ـ منذ ازيد من عشرين سنة من الاستقلال في ميدان التجهيزات الثقافية . وحتى لا تستمر الاوضاع على ما هي عليها وتستفحل اكثر ، يلتمسون من الجهات المختصة ما يلي :

1 ـ بناء دار للثقافة تحتوي على مكتبة وقاعة للمحاضرات والعروض المسرحية والسينمائية ومعامل فنية وتربوية .

2 ـ بناء دار للشباب وسط المدينة .

3 ـ التعجيل في فتح مكتبة البلدية وجعلها في خدمة الشباب والقراء .

ملتمس حول استعمال قاعات العرض السينمائية من طرف الفرق الموسيقية والمسرحية والنوادي السينمائية

ان اعضاء جمعية الانطلاقة الثقافية ، المجتمعين في اطار جمعهم العام المنعقد بتاريخ 25 مارس 79 ، وعيا منهم بضرورة تشجيع الحركة المسرحية والفنية ببلادنا ، وبضرورة تعرف الجمهور على الانتاج الفني والمسرحي لمختلف الفرق العاملة باقليمنا ، يلتمسون من المسؤولين وضع قاعات العرض السينمائية المتواجدة بالاقليم رهن اشارة الفرق الموسيقية والمسرحية والنوادي السينمائية ، سواء بالمجان او بالمقابل ، وربط علاقات معقولة بين اصحاب هذه القاعات ومختلف الفرق والجمعيات .

ملتمس حول مساهمة المثقفين في دعم جمعية الانطلاقة الثقافية

ان اعضاء جمعية الانطلاقة الثقافية ، المجتمعين في اطار جمعهم العام المنعقد بتاريخ 25 مارس 79 ، يلتمسون من جميع المثقفين مهما اختلفت تياراتهم ، وسواء كانوا يعملون داخل الاقليم او خارجه ، ان يدعموا جمعية الانطلاقة الثقافية عن طريق العمل الجماعي او الفردي ، ويعملوا ما امكن على تخطي المعوقات الذاتية والمركزية الفكرية والثقافية حتى يساهموا في خلق انسان جديد متفتح على العلم والادب والفن والمستقبل .

ملتمس حول اللغة والثقافة الامازيغية

ان اعضاء جمعية الانطلاقة الثقافية المجتمعين في اطار جمعهم العام المنعقد بتاريخ 25 مارس 79 ، وعيا منهم بالدور التاريخي والاجتماعي الذي لعبته اللغة والثقافة الامازيغية ، ووعيا منهم بمدى امكانية هذه اللغة وهذه الثقافة في المساهمة في تطوير الامكانيات الفكرية والابداعية للشعب المغربي ، يلتمسون ما يلي :

(1) ان يكون معهد دراسات اللغة الامازيغية المزمع انشاؤه ، في مستوى طموحات الشعب المغربي من الناحية العلمية والعملية . وان تعمل الجهات المسؤولة على تدريس هذه اللغة في الجامعة وفي المدارس الثانوية والابتدائية، وان تعمل على دمجها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية جنبا لجنب مع اللغة العربية .

(2) ان تخصص برامج اذاعية وتلفزيونية متطورة من حيث الكم والكيف باللهجات الامازيغية الثلاث .

(3) ان تعمل الجهات المسؤولة على تشجيع وتطوير صحافة وطنية ناطقة باللغة الامازيغية ، وتعمل على تشجيع الادب الامازيغي المكتوب .

جمعية الانطلاقة الثقافية ص. ب. 26 ـ الناظور

● معرض الرسام عبد الكبير ربيع

اقام الفنان عبد الكبير ربيع معرضا بقاعة « المعمل » من 12 ابريل الى 8 ماي 1979 . وهذه كلمة كتبها مصطفى النيسابوري بالمناسبة :

« غطست في البحر المحيط ، وهناك وجدت الصدف وتحولت داخله الى لؤلؤ : ماعاد يهمني المحيط ! »

يونس امره

في البدء كان اللايقين . وفي الاصل هناك مسار . عندئذ ، كل شيء سيخطط ، حتى الصدفة الناجمة عن مفعول بلاستيكي ، لن يكون لها معنى الا اذا كانت مندرجة ضمن حجة للتجاوز مقترحة باستمرار : تجاوز الموضوع والذات والفكرة نفسها .

بذلك يصلح ايماز « الشك » لان يكون محركا لارادة توفيق الاضداد . اضداد كثيرة . والوسيم عند « ربيع » هو قبل كل شيء ، سلوك . واذا كان رسمه يرفض التصنع واغواء الناظر ، فلان الرضا الاستتيقي الخالص ، ليس هو افضل طريقة لتاكيد ذاتية يطالب بها العمل الفني عكسيا . كذلك فان اضطهاد الوسط الاجتماعي والثقافي يكف عن ان يكون مؤهلات نجاح اساسية في التعبير عن صيرورة . وفي العموم ، فان العمل واللوحة ليسا لا اسئلة ولا اجوبة بل هما انعكاسات متقابلة في فضاءات متعددة ، يوحيان بما يضعه الشاعر بعيدا عن الواقع وعن اللاواقع ، أي يوحيان بالمهوس .

« انني ابدا برسم خلفية لوحاتي باللون الاسود » . في هذا التاكيد الوارد على لسان الرسام ربيع ، ليس هناك صيغة سحرية قادرة على ان تقدم مفتاح اللوحة . فاللوحة ، من اول وهلة ، فضاء متعدد ومفتوح ، لن تصلح تلك العبارة اذن ، لتفك رموز نسيج هذه الفروق الدقيقة الاثيرية المنهكة بفعل لمسات عالمة ، ولا لتشرح العلائق القائمة بين اصباغ رمادية ـ بيضاء او حمراء متالقة تناقضها بقع سوداء ومربعات من سماء ذات ازرق صوفي . وفي هذا قبل كل شيء ، فكر معروض للنظر . وهو فكر يسائل العالم ، ويعيش ويتحرك داخل القلق الذي يمليه عليه ، ويكتشف اصلا ، لكنه يحاول بدون انقطاع ان يحركه في قلق : ذلك ان حلقة العناصر لن تكون قط ساكنة ، بل ستشارك في استئناف حقيقي للزمن وللفضاء ولمبادئ الخلق ، لتحويل الفعل ، وحالة الرسم ، وطريقة الكينونة بصفة عامة . هنا لا يكون الموضوع هو المراهنة الاخيرة ، وتتوقف العلاقة بين التصويري ـ والتجريدي لصالح حركة الروح الباحثة عن جوهر تتطلع منه النفس ، من اعماق العلامات الى امتطاء الضوء .

ـ مصطفى النيسابوري ـ

نداء من الشاعر احمد فؤاد نجم

الى ضمائر الكتاب والفنانين والمثقفين الشرفاء في مصر والعالم انني ادعوكم الى الوقوف بجانبي في هذه اللحظات لانني في حاجة حقيقية لكل مساندتكم يا من تحملون مسؤولية الكلمة وتدافعون عن شرف الانسان في كل زمان ومكان .. انني ورفاقي نتعرض في مصر الآن لابشع واغرب انواع الاضطهاد فانا مطارد من قوات الشرطة ولا استطيع دخول منزلي لان محاكم التفتيش العسكرية أصدرت حكمها في العام الماضي بسجني لمدة عام بتهمة تاليف والقاء الاشعار !!

وزوجتي الفنانة عزة بليغ معتقلة الآن بسجن القناطر بعد ان داهمتها شرطة السادات في بيتنا واقتادوها في منتصف الليل الى سجن التخشيبة المخصص لنزلاء المجرمين حيث عاشت هناك سبعة ايام رهيبة تعرضت خلالها لابشع أنواع المعاملة بما فيها الضرب الوحشي الذي مارسه عليها رجال غلاظ أشداء ومدربون على اعمال المصارعة والكاراتية !!

ولم ينقلوها من هذا السجن الرهيب الا بعد ان وقعت لهم عن تنازلها عن محضر اثبات واقعة الضرب والتعذيب . وهي تعيش الآن مريضة بسجن القناطر دون تهمة حقيقية تبرر حبسها . اما رفيقاي الشيخ امام المغني الشعبي الضرير الذي جاوز الستين من عمره ومحمد علي الفنان التشكيلي

ومرافق الشيخ امام الدائم فهما الآن مطاردان ايضا ولا يستطيعان دخول منزلنا بالغورية لان شرطة السادات ونائبه العام وسيادة قانونه اغلقوا بيتنا بالشمع الاحمر بعد ان اقتحموه ودمروا ونهبوا محتوياته البسيطة . ان تهمتنا الوحيدة التي جلبت علينا كل هذا التنكيل ... !!

لقد اصبح الغناء جريمة في ظل ديمقراطية السادات وصديقه كارتر حامي حمى الحرية وحقوق الانسان في العصر الحديث . انني اطالب كافة المنظمات ولجان الحريات وحقوق الانسان في العالم بان ترسل مندوبيها الى القاهرة ليتأكدوا من صحة هذه المعلومات . يا شرفاء العالم اسالوا الرئيس كارتر عن رأيه في ديمقراطية صديقه السادات الذي وقف بكل تبجح ليحكي حقوق الانسان في مصر بينما تطارد شرطته اربعة فنانين كل جريمتهم انهم لا يغنون للخيانة ويبيعون مصر ولا يؤمنون بغير عروبة شعب مصر وقدرته الخلاقة على صنع المستقبل المشرق للاجيال السعيدة القادمة .

ارفعوا اصواتكم أيها الرفاق الشرفاء حتى يسمعها جلادوا مصر ونخاسوها ، انني اطالبكم بالوقوف بحزم الى جانب قضيتنا لانها قضية كل المضطهدين في الارض . عاشت كل كلمة شريفة . عاش كل ضمير حر .

عن مجلة « 23 يوليو »

احمد فؤاد نجم
شاعر الارض المحتلة

تصويبات :

رغم الامكانيات التقنية المحدودة التي تتحرك طباعة المجلة في نطاقها فاننا نحرص دائما على خروجها للقاريء باقل عدد ممكن من الاخطاء الطباعية ، الا انه رغم حرصنا الشديد ذلك ، يحصل أن « تفلت » بعض الاخطاء ، مثلما حصل في العدد الماضي ، حيث أصبح محمد توفالي محمد توتالي (الاغنية الشعبية واغنية الشعب) ، بل وحيث وقع خلط وقلب في بعض المقاطع من قصيدة الصديق الشاعر عز الدين المناصرة الى حد أنها أصبحت بعيدة تماما عن الاصل .

وإذ يحزننا حصول ذلك ، نعيد نشر المقاطع التي وقع فيها الخطأ . ومعذرة .

المقطع الثامن :

اطيلي ضفائرك
كي أحبك اكثر
فقد كنت احب امي كثيرا
ادهجي الى البحر
وتداخلي معه
امسحي جسدك بالرمل وبالشعاع
وتمددي
ضعي قدميك في رابي الخليج
وراسك في وهج الرمل
فقد كانت امي سمراء وطويلة

تركض كشجيرة « الميموزا »
في مرج بني عامر
واحسرتاه

المقطع العاشر :

أصفر ، أصفر ، أصفر
كالنيبرة .
ـ واسألوا القاموس اذا لم تصدقوني ـ
هكذا كان وجهه الاجاصي
لكنها كانت تقبله كثيرا على المصطبة
عرفت انها لم تكن « غيره »
انه الفراق يا جفرا
لان شعرك اصفر
وشعره كالحجر الاسود
واحسرتاه .... كم انا حسن النية

المقطع الرابع عشر :

بعد سماع نشرة الاخبار العربية
يكون لي نصيب من الموت
كاي مواطن صالح
سأظل ابكي عند نهر الليطاني
الذي ينبع الآن ، ويصب
في هذا المقهى الرمادي
في مدينة « صوفيا » .